

مُخْبَرُ الْمَلِكِ

تسليم
١٩٠٨

الكتاب

جمعا الاب يوحنا ليو والاب اغوستينوس روده

من الرهبنة اليسوعية

الجزء الاول

القسم الثاني

وَهُوَ يَشْتَمِلُ عَلَى حِكَايَاتٍ
وَنَوَادِرِ حِكْمِيَّةٍ وَحَوَادِثَ



المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين

في بيروت سنة ١٨٩٢

برخصة مجلس معارف ولاية بيروت الحبليلة ٣٩

مُحَنَّةٌ

مِنْ مُقَدِّمَةِ بَهْرُودَ بْنِ سَحَوَانَ وَيُعْرَفُ بِعَلِيِّ بْنِ الشَّاهِ الْفَارِسِيِّ

ذَكَرَ فِيهَا السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ

عَمِلَ يَدْبَا الفيلسوف الهندي راس البراهمة

لدبشليم ملك الهند كآبَهُ الَّذِي سَمَاهُ

كَلِيلُهُ وَدَمْنُهُ

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الشَّاهِ الْفَارِسِيِّ : كَانَ السَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ
وَضَعَ يَدْبَا الْفِيلَسُوفُ لِدَبْشَلِيمَ مَلِكِ الْهِنْدِ كِتَابَ كَلِيلَةٍ وَدَمْنَةٍ أَنَّ
الْإِسْكَندَرَ ذَا الْقَرْنَيْنِ الرَّومِيِّ لَمَّا فَرَّغَ مِنْ أَمْرِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا
بِنَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ سَارَ يُرِيدُ مُلُوكَ الْمَشْرِقِ مِنَ الْفَرَسِ وَغَيْرِهِمْ . فَلَمَّ
يَزِلْ يُحَارِبُ مِنْ نَازِعِهِ وَيُؤَافِقُ مِنْ وَاقِعِهِ وَيُسَالِمُ مَنْ وَادَعَهُ مِنْ
مُلُوكِ الْفَرَسِ وَهُمْ الطَّبَقَةُ الْأُولَى حَتَّى ظَهَرَ عَلَيْهِمْ وَقَهَرَهُ مِنْ نَاوَاهُ
وَتَغَلَّبَ عَلَى مَنْ حَارَبَهُ . فَتَفَرَّقُوا طَرَائِقَ وَتَمَزَّقُوا خَرَائِقَ . فَتَوَجَّهَ
بِالْجُنُودِ نَحْوَ بِلَادِ الصِّينِ فَبَدَأَ فِي طَرِيقِهِ بِمَلِكِ الْهِنْدِ لِيَدْعُوهُ إِلَى
طَاعَتِهِ وَالِدُخُولِ فِي مِلَّتِهِ وَوِلَايَتِهِ . وَكَانَ عَلَى الْهِنْدِ فِي ذَلِكَ
الزَّمَانِ مَلِكٌ ذُو سَطْوَةٍ وَبَأْسٍ وَقُوَّةٍ مِرَاسٍ يُقَالُ لَهُ فُورُ . فَلَمَّا بَلَغَهُ
إِقْبَالُ ذِي الْقَرْنَيْنِ نَحْوَهُ تَأَهَّبَ لِمُحَارَبَتِهِ وَاسْتَعَدَّ لِمُحَادَذَتِهِ وَضَمَّ
إِلَيْهِ أَطْرَافَهُ وَجَدَّ فِي التَّالِبِ عَلَيْهِمْ وَجَمَعَ لَهُ الْعُدَّةَ فِي أَسْرَعِ مَدَّةٍ
مِنْ الْقِيَلَةِ الْمُعَدَّةِ لِلْغُرُوبِ وَالسَّبَاعِ الْمَضْرَاةِ بِالْوُثُوبِ مَعَ الْخِيُولِ
الْمُسَرَّجَةِ وَالسُّيُوفِ الْقَوَاطِعِ وَالْحِرَابِ اللَّوَامِعِ

فَلَمَّا مَرَّبَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْ فُورِ الْهِنْدِيِّ وَبَلَّغَهُ مَا قَدْ أَعَدَّ لَهُ
 مِنَ الْحِيلِ الَّتِي كَانَتْهَا قِطْعُ اللَّيْلِ مِمَّا لَمْ يَلْقَهُ بِمِثْلِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ
 الَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَقَالِيمِ . تَخَوَّفَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْ تَهْصِيرِ يَقَعُ بِهِ
 إِنْ عَجَلَ الْمُبَارَاةَ . وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ رَجُلًا ذَا حِيلٍ وَمَكَايِدَ مَعَ
 حُسْنِ تَدْبِيرٍ وَتَجَرُّبَةٍ . فَرَأَى إِعْمَالَ الْحِيلَةِ وَالْتِهَمَلَ وَاحْتَفَرَ خَنْدَقًا
 عَلَى عَسْكَرِهِ وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ لِاسْتِئْبَاطِ الْحِيلَةِ وَالتَّدْبِيرِ لِأَمْرِهِ وَكَيْفَ
 يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى الْإِقْبَاعِ بِهِ . فَاسْتَدْعَى بِالْمُتَجَبِّينَ وَأَمَرَهُمْ
 بِالْإِخْتِيَارِ لِيَوْمٍ مُوَافِقٍ تَكُونُ لَهُ فِيهِ سَعَادَةٌ لِحَارَبَةِ مَلِكِ الْهِنْدِ
 وَالنُّصْرَةَ عَلَيْهِ . فَاسْتَعْمَلُوا بِذَلِكَ وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ لَا يَمُرُّ بِمَدِينَةٍ
 إِلَّا أَخَذَ الصَّنَاعَ الْمَشْهُورِينَ مِنْ صُنَائِعِهَا بِالْحَذَقِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ .
 فَتَجَمَّعَتْ لَهُ هِمَّتُهُ وَدَلَّتْهُ وَطْنَتُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى الصَّنَاعِ الَّذِينَ مَعَهُ أَنْ
 يَصْنَعُوا خَيْلًا مِنْ نُحَاسٍ مُجُوفَةً عَلَيْهِمَا تَمَائِيلُ مِنَ الرِّجَالِ عَلَى بَكْرِ
 تَجْرِي إِذَا دُفِعَتْ مَرَّتَ سِرَاعًا . وَأَمَرَ إِذَا فَرَعُوا مِنْهَا أَنْ تَحْشَى
 أَجْوَاهُهَا بِالنُّظِ وَالْكِبْرِيَّتِ وَتُبَلَّسَ وَتُقَدِّمَ أَمَامَ الصَّفِّ فِي الْقَابِ .
 وَوَقْتُ مَا يَلْتَقِي الْجَمْعَانِ تَضَرَّمُ فِيهَا النَّيْرَانُ . فَإِنَّ الْفِيلَةَ إِذَا لَتَتْ
 خَرَاطِيمَهَا عَلَى الْفُرْسَانِ وَهِيَ حَامِيَةٌ وَلَتْ هَارِبَةٌ . وَأَوْعَزَ إِلَى
 الصَّنَاعِ بِالتَّشْمِيرِ وَالْإِنْكَاشِ وَالْفَرَاغِ مِنْهَا . فَحَدُّوا فِي ذَلِكَ وَعَجَّلُوا
 وَقُرْبَ أَيْضًا وَقْتُ اخْتِيَارِ الْمُتَجَبِّينَ . فَأَعَادَ ذُو الْقَرْنَيْنِ رُسُلَهُ إِلَى
 فُورٍ بِمَا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَالْإِذْعَانِ لِدَوْلَتِهِ . فَأَجَابَ جَوَابَ

مُصِرٍّ عَلَى مُحَالَفَتِهِ مُقِيمٍ عَلَى مُحَارَبَتِهِ . فَلَمَّا رَأَى ذُو الْقَرْنَيْنِ عَزِيمَتَهُ
سَارَ إِلَيْهِ بِأَهْبَتِهِ وَقَدَّمَ فُورُ الْقَيْلَةِ أَمَامَهُ وَدَفَعَتِ الرِّجَالُ تِلْكَ
الْحَيْلَ وَتَمَائِيلَ الْفُرْسَانِ فَأَقْبَلَتِ الْقَيْلَةُ نَحْوَهَا وَلَقَتْ خَرَاطِيمَهَا عَلَيْهَا .
فَلَمَّا أَحَسَّتْ بِالْحَرَارَةِ أَلْقَتْ مَنْ كَانَ عَلَيْهَا وَدَاسَتْهُمْ تَحْتَ أَرْجُلِهَا
وَمَضَتْ مَهْزُومَةً هَارِبَةً لَا تَلْوِي عَلَى شَيْءٍ وَلَا تَمُرُّ بِأَحَدٍ إِلَّا وَطِئَتْهُ .
وَتَقَطَّعَ فُورُ وَجَعَهُ وَتَبِعَهُمْ أَصْحَابُ الْإِسْكَندَرِ وَأَتَمَّخُوا فِيهِمُ الْجِرَاحَ
وَعَاكَحَ الْإِسْكَندَرُ : يَا مَلِكُ الْهِنْدِ ابْرُزْ إِلَيْنَا وَاتَّبِقْ عَلَى عُدَّتِكَ
وَعِيَا لَكَ وَلَا تَحْمِلُهُمْ إِلَى الْفَنَاءِ . فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الرُّوَّةِ أَنْ يَرْمِيَ الْمَلِكُ
بِعُدَّتِهِ فِي أُمَّةٍ أَلْتَلَفَ وَالْمَوَاضِعِ الْمُتَحَفِّةِ . بَلْ يَقِيمُهُمْ بِأَمَلِهِ
وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ بِنَفْسِهِ . فَأَبْرَزَ إِلَى وَدَعِ الْجُنْدُ فَأَيْنَا قَهَرَ صَاحِبَهُ فَهُوَ
الْأَسْعَدُ : فَلَمَّا سَمِعَ فُورُ مِنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ذَلِكَ الْكَلَامَ دَعَتْهُ نَفْسُهُ
لِمُلَاقَاتِهِ طَمَعًا فِيهِ وَظَنَّ ذَلِكَ فُرْصَةً . فَابْرَزَ إِلَيْهِ الْإِسْكَندَرُ فَتَجَاوَلَا
عَلَى ظَهْرِي فَرَسَيْهِمَا سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ لَيْسَ يَأْتِي أَحَدُهُمَا مِنْ
صَاحِبِهِ فُرْصَةً وَلَا حِيلَةً وَلَمْ يَزَالَا يَتَعَارَكَانِ . فَلَمَّا أَعْيَا الْإِسْكَندَرُ
أَمْرُهُ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ فُرْصَةً أَوْقَعَ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِعَسَاكِرِهِ صِجَّةَ عَظِيمَةٍ
ارْتَجَّتْ لَهَا الْأَرْضُ وَالْعَسَاكِرُ . فَالْتَفَتَ فُورُ عِنْدَمَا سَمِعَ الزَّعَمَةَ وَظَنَهَا
مَكِيدَةً فِي عَسَاكِرِهِ فَعَاجَلَهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِضَرْبَةٍ أَمَلَتْهُ عَنْ سَرَجِهِ
فَوَقَعَ إِلَى الْأَرْضِ . فَلَمَّا رَأَتْ الْهُنُودُ مَا نَزَلَ بِهِمْ وَمَا صَارَ إِلَيْهِ مَلِكُهُمْ
حَمَلُوا عَلَى الْإِسْكَندَرِ فَقَاتَلُوهُ قِتَالًا أَحْبَبُوا مَعَهُ الْمَوْتَ . فَوَعَدَهُمْ مِنْ

نَفْسِهِ الْإِحْسَانَ وَمَنْحَهُ اللَّهُ أَكْثَافَهُمْ . فَأَسْتَوَى عَلَى بِلَادِهِمْ وَمَلَكَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ ثِقَاتِهِ وَأَقَامَ بِالْهِنْدِ حَتَّى اسْتَوْثَقَ لَهُ مَا أَرَادَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَاتَّفَاقَ كَلِمَتِهِمْ . ثُمَّ أَنْصَرَفَ عَنِ الْهِنْدِ وَخَلَفَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَيْهِمْ وَمَضَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ مَا قَصَدَ لَهُ

فَلَمَّا بَعْدَ ذُو الْقَرْنَيْنِ عَنِ الْهِنْدِ بِجُيُوشِهِ تَغَيَّرَتِ الْهُنُودُ عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ طَاعَةِ الرَّجُلِ الَّذِي خَلَفَهُ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: لَيْسَ يَضُحُّ لِلْسِّيَاسَةِ وَلَا تَرْضَى الْخَاصَّةُ وَلَا الْعَامَّةُ أَنْ يَمْلِكُوا عَلَيْهِمْ رَجُلًا لَيْسَ هُوَ مِنْهُمْ وَلَا مِنْ أَهْلِ يُوتِيهِمْ . فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَسْتَدِلُّهُمْ وَيَسْتَفْلِهِمْ . وَاجْتَمَعُوا يَمْلِكُونَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ مُلُوكِهِمْ فَلَمَّكَوْا عَلَيْهِمْ مَلَكًا يُقَالُ لَهُ دَبْشَلِيمُ وَخَطَمُوا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ خَلَفَهُ عَلَيْهِمْ الْأَسْكَندَرُ . فَلَمَّا اسْتَوْثَقَ لَهُ الْأَمْرُ وَاسْتَقَرَّ لَهُ الْمُلْكُ طَفَى وَبَنَى وَتَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ وَجَعَلَ يَغْزُو مِنْ جَوْلِهِ مِنَ الْمُلُوكِ . وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مُؤَيَّدًا مُظَهَّرًا مَنْصُورًا فَهَابَتْهُ الرِّعْيَةُ . فَلَمَّا رَأَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْمُلْكِ وَالسُّطُورَةِ عَيْثَ بِالرِّعْيَةِ وَاسْتَصَفَرَ أَمْرَهُمْ وَأَسَاءَ السَّيْرَةَ فِيهِمْ وَكَانَ لَا يَدْرِي حَالَهُ إِلَّا أَرْدَادَ عُتُوًّا

فَكَثَّ عَلَى ذَلِكَ بُرْهَةٌ مِنْ دَهْرِهِ . وَكَانَ فِي زَمَانِهِ رَجُلٌ فَيْلَسُوفٌ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ فَاضِلٌ حَكِيمٌ يُعْرِفُ بِفَضْلِهِ وَيَرْجِعُ فِي الْأُمُورِ إِلَى قَوْلِهِ : يُقَالُ لَهُ يُدَبِّبُ . فَلَمَّا رَأَى الْمُلْكَ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ لِلرِّعْيَةِ فَكَّرَ فِي وَجْهِ الْحِيلَةِ فِي صَرْفِهِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ وَرَدِّهِ إِلَى

الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ . فَجَمَعَ لِدَلِيلِكَ تَلَامِيذَهُ وَقَالَ : أَتَعْلَمُونَ
مَا أُرِيدُ أَنْ أَشَاوِرَكُمْ فِيهِ . أَعْلَمُوا أَنِّي أَطَلْتُ الْفِكْرَةَ فِي دَبْشَلِيمَ
وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الْعَدْلِ وَلُزُومِ الشَّرِّ وَرَدَاءَةِ السَّيْرِ
وَسُوءِ الْعِشْرَةِ مَعَ الرَّعِيَّةِ . وَنَحْنُ مَا نَزُوضُ أَنْفُسَنَا بِمِثْلِ هَذِهِ
الْأُمُورِ إِذَا ظَهَرَتْ مِنَ الْمُلُوكِ إِلَّا لِنَرُدَّهُمْ إِلَى فِدْلِ الْخَيْرِ وَلُزُومِ
الْعَدْلِ . وَمَتَى أَغْفَلْنَا ذَلِكَ وَأَهْمَلْنَاهُ لَزِمْنَا مِنْ وَقُوعِ الْمَكْرُوهِ بِنَا
وَبُلُوغِ الْخُذُورَاتِ إِلَيْنَا أَنْ كُنَّا فِي أَنْفُسِ الْجَهَالِ أَجْمَلَ مِنْهُمْ وَفِي
الْعِيُونِ عِنْدَهُمْ أَقْلَ مِنْهُمْ . وَلَيْسَ لِلرَّأْيِ عِنْدِي الْخُلُوعُ عَنِ الْوَطَنِ
وَلَا يَسَعُنَا فِي حِكْمَتِنَا إِبْقَاؤُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السَّيْرِ وَقَبِيحِ
الطَّرِيقَةِ . وَلَا يُمْكِنُنَا مُجَاهَدَتُهُ بِغَيْرِ أَسَانَةٍ وَلَوْ ذَهَبْنَا إِلَى أَنْ
نَسْتَعِينَ بِغَيْرِنَا لَمْ تَنْتَهِيَ لَنَا مُعَانَدَتُهُ . وَإِنْ أَحَسَّ مِنَّا بِخَالَاتِهِ
وِإِنْكَارِنَا سُوءَ سِيرَتِهِ كَانَ فِي ذَلِكَ بَوَارِنَا . وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّ
مُجَاوَرَةَ السَّعْبِ وَالْكَلْبِ وَالْحَيَّةِ وَالثَّوْرِ عَلَى طِيبِ الْوَطَنِ وَنَضَارَةِ
الْعَيْشِ غَدْرٌ بِالنَّفْسِ . وَإِنَّ الْقِيَاسُ وَفَلْحَقِ أَنْ تَكُونَ هِمَّتُهُ
مَصْرُوفَةً إِلَى مَا يُحَصِّنُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ تَوَازُلِ الْمَكْرُوهِ وَلَوْ أَحَقَّ
الْخُذُورِ وَيَدْفَعُ الْخُوفَ لِاسْتِجْلَابِ الْحُبُوبِ . وَلَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّ
فَلَسُوفًا كَتَبَ لِلتَّلَامِيذِ يَقُولُ : إِنَّ مُجَاوَرَةَ رِجَالِ السُّوءِ وَالْمَصَاحِبَةِ
لَهُمْ كَرَاكِبُ النَّجَرِ إِنْ هُوَ سَلِمَ مِنَ الْفَرْقِ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ الْخُافِ .
فَإِذَا أَوْرَدَ نَفْسَهُ مَوَارِدَ الْهَلَكَاتِ وَمَصَادِرِ الْخُوفَاتِ عُدَّ مِنَ الْحَبِيرِ

الَّتِي لَا نَفْسَ لَهَا . لِأَنَّ الْحَيَوَانَاتِ الْبَهِيمَةَ قَدْ خُصَّتْ فِي طَبَائِعِهَا
بِمَعْرِفَةِ مَا تَكْتَسِبُ بِهِ النَّفْعَ وَتَتَوَقَّى الْمَكْرُوهَ . لِذَلِكَ لَمْ تَزَلْ تُورِدُ
أَنْفُسَهَا مَوْرِدًا فِيهِ هَلَكُوتُهَا . وَإِنَّمَا مَتَى أَشْرَفَتْ عَلَى مَوْرِدٍ مُهِلِكٍ
لَهَا مَالَتْ بِطَبَائِعِهَا إِلَيَّ رُكِبَتْ فِيهَا شَحْمًا بِأَنْفُسِهَا وَصِيَانَةً لَهَا
إِلَى الثُّغُورِ وَالتَّبَاعِدِ عَنْهُ

وَقَدْ جَمَعْتُمْكُمْ لِهَذَا الْأَمْرِ لِأَنَّكُمْ أَسْرَعِي وَمَكَانُ سِرِّي
وَمَوْضِعُ مَعْرِفَتِي وَبِكُمْ أَعْتَصِدُ وَعَلَيْكُمْ أَعْتَمِدُ . فَإِنَّ الْوَحِيدَ بِنَفْسِهِ
وَالْمُنْفَرِدَ بِرَأْيِهِ حَيْثُ كَانَ فَهُوَ ضَائِعٌ وَلَا نَاصِرَ لَهُ . عَلَى أَنَّ الْعَاقِلَ
قَدْ يَبْلُغُ بِحِيلَتِهِ مَا لَا يَبْلُغُ بِالْخَيْلِ وَالْجُنُودِ . وَالْمَثَلُ فِي ذَلِكَ . أَنَّ
قُبْرَةَ اتَّخَذَتْ أُذْحِيَّةً وَبَاضَتْ فِيهَا عَلَى طَرِيقِ الْفِيلِ وَكَانَ لِلْفِيلِ
مَشْرَبٌ يَرْتَدُّ إِلَيْهِ . فَمَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى عَادَتِهِ لِيَرِدَ مَوْرِدَهُ فَوَطِئَ عَشَّ
الْقُبْرَةِ وَهَشَّمَ بَعْضَهَا وَقَتَلَ فِرَاحَهَا . فَلَمَّا نَظَرَتْ مَا سَاءَ مَا عِلِمَتْ
أَنَّ الَّذِي نَالَهَا مِنَ الْفِيلِ لَا مِنْ غَيْرِهِ . فَطَارَتْ فَوَقَعَتْ عَلَى رَأْسِهِ
بَاكِئَةً . ثُمَّ قَالَتْ : أَيُّهَا الْمَلِكُ . لِمَ هَشَّمْتَ بَيْضِي وَقَتَلْتَ فِرَاحِي
وَأَنَا فِي جَوَارِكِ أَفَعَلْتَ هَذَا اسْتِصْفَارًا مِنْكَ لِأَمْرِي وَاحْتِقَارًا
لِسَانِي قَالَ هُوَ الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى ذَلِكَ : فَتَرَكْتُهُ وَانْصَرَفْتُ إِلَى جَمَاعَةِ
الطَّيْرِ فَشَكَّتْ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ الْفِيلِ . فَقَالَتْ لَهَا : وَمَا عَسَى أَنْ
نَبْلُغَ مِنْهُ وَنَحْنُ طُيُورٌ : فَقَالَتْ لِلْعَقَاقِرِ وَالْفِرَبَانِ : أَحِبُّ مِنْكُمْ أَنْ
تَصِرْنَ مَعِيَ إِلَيْهِ فَتَفْقَأَنَّ عَيْنَيْهِ فَإِنِّي أَحْتَالُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِحِيلَةٍ أُخْرَى :

فَاجَابُوهَا إِلَى ذَلِكَ وَذَهَبُوا إِلَى الْقَلِيلِ فَلَمْ يَزَالُوا يَنْفُرُونَ عَنْهُ
 حَتَّى ذَهَبُوا بِهِمَا وَبَقِيَ لَا يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِ مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ . فَلَمَّا
 عَلِمَتْ ذَلِكَ مِنْهُ جَاءَتْ إِلَى غَدِيرٍ فِيهِ ضَفَادِعٌ كَثِيرَةٌ فَشَكَتْ إِلَيْهَا
 مَا نَالَهَا مِنَ الْقَلِيلِ . قَالَتِ الضَّفَادِعُ : مَا حِيلَتُنَا نَحْنُ فِي عِظَمِ الْقَلِيلِ
 وَأَيْنَ نَبْلُغُ مِنْهُ : قَالَتْ : أَحِبُّ مِنْكُمْ أَنْ تَسِيرُوا مَعِيَ إِلَى وَهْدَةٍ
 قَرِيبَةٍ مِنْهُ فَتَشْتَوْا (١) فِيهَا وَتَضِجُوا فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ أَصْوَاتَكُمْ لَمْ
 يَشْكُ فِي الْمَاءِ فَيَهْوِي فِيهَا : فَاجَابُوهَا إِلَى ذَلِكَ وَاجْتَمَعُوا فِي الْمَاوِيَةِ .
 فَسَمِعَ الْقَلِيلُ نَفِيقَ الضَّفَادِعِ وَقَدَّ جَهْدَهُ الْعَطَشُ فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَعَ
 فِي الْوَهْدَةِ فَأَعْطَمَ فِيهَا وَجَاءَتِ الْفُتْرَةُ تُرْفَرُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَتْ
 أَيُّهَا الطَّاعِي الْمُنْتَرُ بِقُوَّتِهِ الْمُخْتَرُ لِأَمْرِي كَيْفَ رَأَيْتَ عِظَمَ حِيلَتِي
 مَعَ صِغَرِ جُثَّتِي عِنْدَ عِظَمِ جُثَّتِكَ وَصِغَرِ هِمَّتِكَ

فَلْيُشِرْ كُلُّ مِنْكُمْ بِمَا يَسْنُخُ لَهُ مِنَ الرَّأْيِ : قَالُوا بِاجْتِمَعِهِمْ : أَيُّهَا
 الْقَلِيلُ سَوْفَ الْقَاضِلُ وَالْحَكِيمُ الْعَادِلُ أَنْتَ الْمَقْدَمُ فِينَا وَالْقَاضِلُ
 عَلَيْنَا وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مَبْلَغُ رَأْيِنَا عِنْدَ رَأْيِكَ وَفَهْمِنَا عِنْدَ فَهْمِكَ .
 غَيْرَ أَنَّنا نَعْلَمُ أَنَّ السِّبَاخَةَ فِي الْمَاءِ مَعَ التِّسْمَاحِ تَغْرِيرٌ وَالذَّنَبُ

(١) يقال للضفدع والمقرب والدجاجة والمرنق أي صات وللانقي فح والارنب
 ضغب والسنور ماء والكلب نبج والمختبر قبع واليث زئر والسبع جلجل والذئب هوى
 والتعلب ضج والظي بغم والغراب نعب والبازي صرصر والنسر صفر والحمام هدر
 والبط بقبق والصقر ففقق والذباب طن والمصفور شقشق والجمل هدر والقيل صأى
 والممر ير والشاة ثنت والعجل خار والفرس صهل والبغل شحج والمفوق حق

فِيهِ لَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ . وَالَّذِي يَسْتَخْرِجُ السَّمَّ مِنْ نَابِ
 الْحَيَّةِ قَيْتَامُهُ فَلَيْسَ الذَّنْبُ لِلْحَيَّةِ . وَمَنْ دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فِي غَايَةِ
 لَمْ يَأْمَنْ وَثَبَتْهُ . وَهَذَا الْمَلِكُ لَمْ تُفَزَّعْهُ النَّوَابُ وَلَمْ تُؤَذِّبْهُ التَّجَارِبُ
 وَلَسْنَا نَأْمَنُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَنْفُسِنَا سَطَوْتُهُ . وَإِنَّا نَخَافُ عَلَيْكَ مِنْ
 سَوْرَتِهِ وَمَبَادَرَتِهِ بِسُوءِ إِذَا لَقِيْتَهُ يَغْيِرُ مَا يُحِبُّ : فَقَالَ الْحَكِيمُ
 بَيْدَبَا : لَعَمْرِي لَقَدْ قُلْتُمْ فَأَحْسَنْتُمْ لَكِنْ ذَا الرَّأْيِ الْحَازِمِ لَا يَدْعُ أَنْ
 يُشَاوِرَ مَنْ هُوَ دُونُهُ أَوْ فَوْقَهُ فِي الْمُنْزِلَةِ . وَالرَّأْيُ الْقَرْدُ لَا يَكْتَفِي بِهِ
 فِي الْخَاصَّةِ وَلَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الْعَامَّةِ . وَقَدْ صَحَّتْ عَزِيمَتِي عَلَى إِقَاءِ
 دَبْشَايِمَ وَقَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ وَتَيَّنَ لِي نَصِيحَتُكُمْ وَالْإِشْفَاقُ عَلَيَّ
 وَعَلَيْكُمْ . غَيْرَ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيَا وَعَزَمْتُ عَزْمًا وَسَتَعْرِفُونَ حَدِيثِي
 عِنْدَ الْمَلِكِ وَمُجَابَوَتِي إِيَّاهُ . فَإِذَا اتَّصَلَ بِكُمْ خُرُوجِي مِنْ عِنْدِهِ
 فَاجْتَمِعُوا إِلَيَّ : وَصَرِّفْهُمْ وَهُمْ يَدْعُونَ لَهُ بِالسَّلَامَةِ

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا اخْتَارَ يَوْمًا لِلدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ حَتَّى إِذَا كَانَ ذَلِكَ
 الْوَقْتُ أَلْقَى عَلَيْهِ مُسُوْحَهُ وَهِيَ لِبَاسُ الْبَرَاهِمَةِ وَقَصَدَ بَابَ الْمَلِكِ
 وَسَأَلَ عَنْ صَاحِبِ إِذْنِهِ وَارْشَدَ إِلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَأَعْلَمَهُ وَقَالَ : إِنِّي
 رَجُلٌ قَصَدْتُ الْمَلِكَ فِي نَصِيحَةٍ : فَدَخَلَ الْأَذْنُ عَلَى الْمَلِكِ فِي وَقْتِهِ
 وَقَالَ : بِالْبَابِ رَجُلٌ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ يُقَالُ لَهُ بَيْدَبَا ذَكَرَ أَنَّ مَعَهُ لِمَالِكِ
 نَصِيحَةً : فَأَذِنَ لَهُ فَدَخَلَ وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَكَهَّرَ وَتَجَدَّ لَهُ وَأَسْتَوَى
 قَائِمًا وَسَكَتَ . وَفَكَرَ دَبْشَايِمُ فِي سَكْوَتِهِ وَقَالَ : إِنَّ هَذَا لَمْ يَصِدْنَا

إِلَّا لِمَرَيْنِ . إِمَّا أَنْ يَلْتَمِسَ مِنَّا شَيْئًا يُضِلُّ بِهِ حَالَهُ . أَوْ لِأَمْرِ لِحَقِّهِ
فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِهِ طَاقَةٌ . ثُمَّ قَالَ : إِنْ كَانَ لِلْمُلُوكِ فَضْلٌ فِي مَمْلَكَتِهَا
فَإِنَّ لِلْحُكَمَاءِ فَضْلًا فِي حِكْمَتِهَا أَعْظَمَ . لِأَنَّ الْحُكَمَاءَ أَغْنَاهُ عَنْ
الْمُلُوكِ بِالْعِلْمِ . وَلَيْسَ الْمُلُوكُ بِأَغْنِيَاءَ عَنِ الْحُكَمَاءِ بِالْمَالِ . وَقَدْ
وَجَدْتُ أَلَمَ وَالْحَيَاءِ الْإِقْنِينَ مُتَالِفَيْنِ لَا يَفْتَرِقَانِ مَتَى فُقِدَ أَحَدُهُمَا
يُوجَدُ الْآخَرُ كَالْمُتَصَافِيَيْنِ إِنْ عُدِمَ مِنْهُمَا أَحَدٌ لَمْ يَطِبْ صَاحِبُهُ
نَفْسًا بِالْبَقَاءِ بَعْدَهُ تَأْسَفًا عَلَيْهِ . وَمَنْ لَمْ يَسْتَحْ مِنْ الْحُكَمَاءِ
وَيُكْرِهَهُمْ وَيَعْرِفَ فَضْلَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ وَيَصُنَّهُمْ عَنِ الْمَوَاقِفِ الْوَاهِنَةِ
وَيَنْزِيهِهُمْ عَنِ الْمَوَاطِنِ الرَّذِيلَةِ كَانَ مِنْ حَرَمِ عَشَلِهِ وَخَسِرَ دُنْيَاهُ
وَزَلَمَ الْحُكَمَاءَ حُقُوقَهُمْ وَعَدَّ مِنَ الْجُهَالِ : ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى
يَدْبَا وَقَالَ لَهُ : نَظَرْتُ إِلَيْكَ يَا يَدْبَا سَاكِنًا لَا تَعْرِضُ حَاجَتَكَ
وَلَا تَذْكُرُ بُيُوتَكَ فَقُلْتُ : إِنَّ الَّذِي أَسْكَنَهُ هَيْبَةً سَاوَرَتْهُ أَوْ حَيْرَةً
أَذْرَكَهُ وَتَأَمَّلْتُ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ طُولِ وَقُوفِكَ وَقُلْتُ : لَمْ يَكُنْ لِيَدْبَا
أَنْ يَطْرُقَنَا عَلَى غَيْرِ عَادَةٍ إِلَّا لِأَمْرِ حَرَكَةٍ لِيَذْلِكَ فَإِنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ
أَهْلِ زَمَانِهِ فَهَلَّا نَسْأَلُهُ عَنْ سَبَبِ دُخُولِهِ فَإِنْ يَكُنْ مِنْ ضَمِيمِ
نَالِهِ كُنْتُ أَوَّلَى مَنْ أَخَذَ بِيَدِهِ وَسَارَعَ فِي تَشْرِيفِهِ وَتَقَدَّمَ فِي
الْبُلُوغِ إِلَى مُرَادِهِ وَإِعْزَازِهِ . وَإِنْ كَانَتْ بُغْيَتُهُ عَرَضًا مِنْ أَغْرَاضِ
الدُّنْيَا أَمَرْتُ بِإِرْضَائِهِ مِنْ ذَلِكَ فِيمَا أَحَبَّ وَإِنْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِ
الْمُلْكِ وَمِمَّا لَا يَنْبَغِي لِلْمُلُوكِ أَنْ يَبْذُلُوهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَا يَقَادُوا إِلَيْهِ

نَظَرْتُ فِي قَدَرِ عُقُوبَتِهِ . عَلَى أَنَّ مِثْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَحْتَرَى عَلَى إِدْخَالِ
نَفْسِهِ فِي بَابِ مَسْئَلَةِ الْمُلُوكِ . وَإِنْ كَانَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الرُّعْيَةِ يَقْصِدُ
فِيهِ صَرْفَ عَنَابَتِي إِلَيْهِمْ نَظَرْتُ مَا هُوَ . فَإِنَّ الْحُكَمَاءَ لَا يُشِيرُونَ
إِلَّا بِالْخَيْرِ وَالْجَهْلُ يُشِيرُونَ بِضَدِّهِ وَأَنَا قَدْ فَسَّخْتُ لَكَ بِالْكَلَامِ
فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ يَبْدَأُ مِنَ الْمَلِكِ أَفْرَجَ عَنْهُ رَوْعَهُ وَسَرِيَّ عَنْهُ مَا
كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ خَوْفِهِ وَكَثَّرَ لَهُ وَتَجَدَّ . ثُمَّ قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ
وَقَالَ : أَوَّلُ مَا أَقُولُ . أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى بَقَاءَ الْمَلِكِ عَلَى الْأَبَدِ وَدَوَامَ
مُلْكِهِ عَلَى الْأَمَدِ . لِأَنَّهُ قَدْ مَنَحَنِي الْمَلِكُ فِي مَقَامِي هَذَا مَحَلًّا جَعَلَهُ
شَرَفًا لِي عَلَى جَمِيعِ مَنْ بَعْدِي مِنَ الْعُلَمَاءِ . وَذِكْرًا بَاقِيًا عَلَى الدَّهْرِ
عِنْدَ الْحُكَمَاءِ . ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْمَلِكِ بِوَجْهِهِ مُسْتَبْشِرًا بِهِ قَرَحًا بِمَا
بَدَأَ لَهُ مِنْهُ وَقَالَ : قَدْ عَطَفَ الْمَلِكُ عَلَيَّ بِكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ . وَالْأَمْرُ
الَّذِي دَعَانِي إِلَى الدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ وَحَمَلَنِي عَلَى الْخَاطَرَةِ فِي كَلَامِهِ
وَالْإِقْدَامِ إِلَى الْمَلِكِ نَصِيحَةٌ اخْتَصَصْتُهَا بِهَا دُونَ غَيْرِهِ وَسَيَعْلَمُ مَنْ
يَتَّصِلُ بِهِ ذَلِكَ أَنِّي لَمْ أَقْصُرْ عَنْ غَايَةِ فِيمَا يَجِبُ لِلْمَوْلَى عَلَى
الْحُكَمَاءِ . فَإِنْ فَسَّخَ فِي كَلَامِي وَوَعَاهُ عَنِّي فَهُوَ حَقِيقٌ بِذَلِكَ وَمَا
يَرَاهُ . وَإِنْ هُوَ أَلْقَاهُ فَقَدْ بَلَّغْتُ مَا يَلِزُنِي وَخَرَجْتُ مِنْ لَوْمِ
يَلْحُقَنِي : قَالَ الْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا تَكَلَّمْ مَهْمَا شِئْتَ فَإِنِّي مُضَعِّجٌ إِلَيْكَ
وَمُقْبِلٌ عَلَيْكَ وَسَامِعٌ مِنْكَ حَتَّى أَسْتَفْرِغَ مَا عِنْدَكَ إِلَى آخِرِهِ
وَأَجَازِيكَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ

قَالَ يَدَبًا: إِنَّ الْأُمُورَ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا الْإِنْسَانُ مِنْ سَائِرِ
الْحَيَوَانِ أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ وَهِيَ جُمَاعُ مَا فِي الْعَالَمِ وَهِيَ: الْحِكْمَةُ وَالْعِفَّةُ
وَالْعَقْلُ وَالْعَدْلُ. وَالْعِلْمُ وَالْأَدَبُ وَالرَّوِيَّةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْحِكْمَةِ.
وَالْحِلْمُ وَالصَّبْرُ وَالْوَفَارُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعَقْلِ. وَالْحَيَاءُ وَالْكَرَمُ
وَالصِّيَانَةُ وَالْأَنَفَةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعِفَّةِ. وَالصِّدْقُ وَالْإِحْسَانُ
وَالرَّاقِبَةُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعَدْلِ. وَهَذِهِ هِيَ الْخَاسِنُ
وَأَضْدَادُهَا هِيَ الْمَسَاوِي فَمَتَى كَمَاتَ هَذِهِ فِي وَاحِدٍ لَمْ تُنْجِرْهُ
الزِّيَادَةُ فِي نِعْمَةٍ إِلَى سُوءٍ أَلْخَطَّ مِنْ دُنْيَاهُ وَلَا إِلَى نَقْصٍ وَلَمْ
يَتَأَسَفْ عَلَى مَا لَمْ يُعِنِ التَّوْفِيقُ بِيَقَانِهِ وَلَمْ يُجْزِنَهُ مَا تَجَرَّي بِهِ
الْمُقَادِيرُ فِي مُلْكِهِ وَلَمْ يَدْهَشْ عِنْدَ مَكْرُوهِهِ. فَالْحِكْمَةُ كَنْزٌ لَا يَنْتَنِي
عَلَى إِنْفَاقٍ. وَذَخِيرَةٌ لَا يُضْرَبُ لَهَا بِالْإِمْلَاقِ وَحُلَةٌ لَا تَخْلُقُ جِدَّتَهَا
وَلَذَّةٌ لَا تُضَرِّمُ مُدَّتَهَا. وَلَئِنْ كُنْتُ عِنْدَ مُقَامِي بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ
أَمْسَكْتُ عَنْ أَتْدَانِهِ بِالْكَلَامِ. فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنِّي إِلَّا لِهَيْبَتِهِ
وَالْإِجْلَالِ لَهُ. وَلَعَمْرِي إِنَّ الْمُلُوكَ لِأَهْلٍ أَنْ يَهَابُوا لَا سِيَّمَا مَنْ هُوَ
فِي الْمُنَزَلَةِ الَّتِي جَلَّ فِيهَا الْمَلِكُ عَنْ مَنَازِلِ الْمُلُوكِ قَبْلَهُ. وَقَدْ قَالَتْ
الْعُلَمَاءُ: أَلْزَمَ السَّكُوتَ فَإِنَّ فِيهِ سَلَامَةً وَتَجَنَّبَ الْكَلَامَ الْفَارِغَ
فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ النَّدَامَةُ

وَحُكِيَ أَنَّ أَرْبَعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ ضَمُّهُمْ مَجْلِسُ مَالِكٍ فَقَالَ لَهُمْ:
لَيْتَكُمْ كُلُّ وَاحِدٍ بِكَلَامٍ يَكُونُ أَصْلًا لِلْأَدَبِ: فَقَالَ أَحَدُهُمْ:

أَفْضَلُ خَلَّةِ الْعُلَمَاءِ السُّكُوتُ : وَقَالَ الثَّانِي : إِنْ مِنْ أَنْفَعِ الْأَشْيَاءِ
لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ مَنْزِلَتِهِ مِنْ عَقْلِهِ : وَقَالَ الثَّالِثُ : أَنْفَعُ
الْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ بِمَا لَا يَنْبَغِيهِ : قَالَ الرَّابِعُ : أَرْوَحُ
الْأُمُورِ لِلْإِنْسَانِ التَّسْلِيمُ لِلْمَقَادِيرِ : وَاجْتِمَاعُ فِي بَعْضِ الزَّمَانِ مُلُوكُ
الْأَقَالِيمِ مِنَ الصِّينِ وَالْهِنْدِ وَفَارِسَ وَالرُّومِ وَقَالُوا : يَنْبَغِي أَنْ
يَتَكَلَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِكَلِمَةٍ تُدَوِّنُ عَنْهُ عَلَى غَايِرِ الدَّهْرِ : قَالَ
مَلِكُ الصِّينِ : أَنَا عَلَى مَا لَمْ أَقُلْ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى رَدِّ مَا قُلْتُ : قَالَ
مَلِكُ الْهِنْدِ عَجِبْتُ لِمَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ فَإِنْ كَانَتْ لَهُ لَمْ تَنْفَعُهُ وَإِنْ
كَانَتْ عَلَيْهِ أَوْبَقَتْهُ : قَالَ مَلِكُ فَارِسَ : أَنَا إِذَا تَكَلَّمْتُ بِالْكَلِمَةِ
مَلَكَتْنِي وَإِذَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَا مَلَكَتْهَا : قَالَ مَلِكُ الرُّومِ : مَا نَدِمْتُ عَلَى
مَا لَمْ أَتَكَلَّمْ قَطُّ وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ كَثِيرًا . وَالسُّكُوتُ
عِنْدَ الْمُلُوكِ أَحْسَنُ مِنَ الْهَذَرِ الَّذِي لَا يُرْجَعُ مِنْهُ إِلَى نَفْعٍ وَأَفْضَلُ
مَا بِهِ اسْتَظَلَّ الْإِنْسَانُ لِسَانَهُ

غَيْرَ أَنَّ الْمَلِكَ أَطَالَ اللَّهُ مَدَّتَهُ لَمَّا فَسَحَ لِي فِي الْكَلَامِ
وَأَوْسَعَ لِي فِيهِ كَانَ أَوَّلِي مَا أَبْدَأُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ غَرَضِي
أَنْ تَكُونَ ثَمَرَةً ذَلِكَ لَهُ دُونِي وَأَنَا أَخْتَصُّ بِالْثَائِدَةِ قَبْلِي . عَلَى أَنَّ
الْعُقْبَى هِيَ مَا أَقْصِدُ فِي كَلَامِي لَهُ وَإِنَّمَا نَفْعُهُ وَشَرُّهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ
وَأَكُونُ أَنَا قَضَيْتُ فَرَضًا وَجَبَ عَلَيَّ فَأَقُولُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّكَ فِي
مَنَازِلِ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ مِنَ الْجَبَّارَةِ الَّذِينَ أَسَّسُوا الْمُلْكَ قَبْلَكَ

وَشَدُّوهُ دُونَكَ وَبَنُوا الْقَلَاعَ وَالْخُصُونَ وَهَدُّوا الْبِلَادَ وَقَادُوا
الْجُيُوشَ وَاسْتَجَاشُوا الْمُدَّةَ وَطَلَّتْ لَهُمُ الْمُدَّةُ وَاسْتَكْثَرُوا مِنْ
السَّلَاحِ وَالْكَرَاعِ وَعَاشُوا الدُّهُورَ فِي الْفَيْطَةِ وَالسُّرُورِ . فَلَمْ
يَنْعَمْ ذَلِكَ مِنْ اكْتِسَابِ حِمْلِ الذِّكْرِ وَلَا قَطْمِهِمْ عَنْ اِغْتِنَامِ
الشُّكْرِ وَلَا اسْتِعْمَالِ الْإِحْسَانِ إِلَى مَنْ خَوْلُوهُ وَالْإِزْفَاقِ بَيْنَ وَلُوهُ
وَحُسْنِ السَّيْرِ فِيمَا تَقْلُدُوهُ مَعَ عِظَمِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ غِرَّةِ الْمَلِكِ
وَسَكْرَةِ الْاِقْتِدَارِ

وَإِنَّكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ السَّعِيدُ جَدُّهُ الطَّالِعُ كَوَكَبُ سَعْدِهِ قَدْ
وَرِثْتَ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَنَازِلَهُمْ الَّتِي كَانَتْ عِدَّتُهُمْ
فَأَقَمْتَ فِيمَا خَوْلْتَ مِنَ الْمَلِكِ وَوَرِثْتَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْجُنُودِ . فَلَمْ
تَقُمْ فِي ذَلِكَ بِحَقِّ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ بَلْ طَفِيتَ وَبَغَيْتَ وَعَتَوْتَ وَعَلَوْتَ
عَلَى الرِّعْيَةِ وَأَسَأْتَ السَّيْرَةَ وَعَظَمْتَ مِنْكَ الْبَلِيَّةَ . وَكَانَ الْأَوَّلَى
وَالْأَشْبَهُ بِكَ أَنْ تَسْلِكَ سَبِيلَ أَسْلَافِكَ وَتَتَّبِعَ آثَارَ الْمُلُوكِ قَبْلَكَ
وَتَتَّقُوا مُحَاسِنَ مَا أَتَقَوُّهُ لَكَ وَتُطْلِعَ عَمَّا عَارُهُ لَازِمُكَ وَشَيْنُهُ وَاقِعُ
عَلَيْكَ . وَتُحْسِنَ النَّظَرَ بِرِعْيَتِكَ وَتَسُنَّ لَهُمْ سُنَنَ الْخَيْرِ الَّذِي يَبْقَى
بَعْدَكَ ذِكْرُهُ وَيُعْقِبُكَ الْجَمِيلُ فَخْرُهُ . وَيَكُونَ ذَلِكَ أَبْقَى عَلَى السَّلَامَةِ
وَأَدْوَمَ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ . فَإِنَّ الْجَاهِلَ الْمُفْتَرَّ مَنْ اسْتَعْمَلَ فِي أُمُورِهِ
الْبَطَرَ وَالْأُمْنِيَّةَ . وَالْحَازِمَ الْاَيِّبَ مَنْ سَاسَ الْمَلِكُ بِالْمُدَارَاةِ وَالرِّفْقِ .
فَإَنْظُرْ أَيُّهَا الْمَلِكُ مَا أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ وَلَا يَثْمُنَنَّ ذَلِكَ عَلَيْكَ فَلَمْ

أَتَكَلِّمَ أَتَبَاءَ غَرَضُ تَجَازِينِي بِهِ وَلَا أَلْتَمَسَ مَرْوْفٍ تُكَافِيَنِي فِيهِ
وَلِكِنِّي أَتَيْتُكَ نَاصِحًا مُشْفِقًا عَلَيْكَ

فَلَمَّا فَرِغَ يَدْبَا مِنْ مَقَالَتِهِ وَقَضَى مُنَاصَحَةَ الْمَلِكِ أَوْغَرَ قَلْبَ
الْمَلِكِ فَأَغْلَظَ لَهُ فِي الْجَوَابِ اسْتِصْغَارًا لِأَمْرِهِ وَقَالَ : لَقَدْ تَكَلَّمْتَ
بِكَلَامٍ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي يَسْتَقْبِلُنِي بِمِثْلِهِ
وَلَا يُقَدِّمُ عَلَيَّ مَا أَقْدَمْتَ عَلَيْهِ . فَكَيْفَ أَنْتَ مَعَ صِغَرِ شَأْنِكَ
وَضُفِّ بَنِيكَ وَعَجْزِ قُوَّتِكَ . وَلَقَدْ أَكْثَرْتَ إِعْجَابِي مِنْ إِقْدَامِكَ
عَلَيَّ وَتَسَلُّطِكَ بِإِسَانِكَ فِيمَا جَاوَزْتَ فِيهِ حَدَّكَ . وَمَا أَجِدُ شَيْئًا فِي
تَأْدِيبِ غَيْرِكَ أَبْلَغَ مِنْ التَّنْكِيلِ بِكَ . فَذَلِكَ عِبْرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ لِمَنْ
عَسَاهُ أَنْ يَبْلُغَ وَيَرُومَ مَا رُمْتَ أَنْتَ مِنَ الْمُلُوكِ إِذَا أَوْسَعُوا لَهُمْ
فِي مَجَالِسِهِمْ : ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُقْتَلَ وَيُصَلَّبَ . فَلَمَّا مَضَوْا بِهِ فِيمَا أَمَرَ
فَكَرَّ فِيمَا أَمَرَ بِهِ فَأَجْجَمَ عَنْهُ . ثُمَّ أَمَرَ بِحَبْسِهِ وَتَقْيِيدِهِ

فَلَمَّا حُسِنَ أَنْفَذَ بِطَلَبِ تَلَامِيذَتِهِ وَمَنْ كَانَ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ فَهَرَبُوا
فِي الْبِلَادِ وَاعْتَصَمُوا بِحُزَائِرِ الْبُحَّارِ . فَكَثَرَ يَدْبَا فِي بَيْتِهِ أَيَّامًا
لَا يَسْأَلُ الْمَلِكُ عَنْهُ وَلَا يَلْتَفِتُ وَلَا يَحْجُرُ أَحَدٌ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَهُ .
حَتَّى إِذَا كَانَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي سَهَدَ الْمَلِكُ سَهْدًا شَدِيدًا فَطَالَ سَهْدُهُ
فَدَّ إِلَى أَلْفَلَكِ بَصَرَهُ وَتَفَكَّرَ فِي تَفَلُّكِ أَلْفَلَكِ وَحَرَكَاتِ الْكَوَاكِبِ .
فَأَغْرَقَ الْفِكْرُ فِيهِ فَسَلَكَ بِهِ إِلَى اسْتِنْبَاطِ شَيْءٍ عَرَضَ لَهُ مِنْ
أُمُورِ أَلْفَلَكِ وَالْمَسْئَلَةِ عَنْهُ . فَذَكَرَ عِنْدَ ذَلِكَ يَدْبَا وَتَفَكَّرَ فِيمَا كَلَّمَهُ

بِهِ فَأَرْعَوَى لِذَلِكَ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: لَقَدْ أَسَأْتُ فِيمَا صَنَعْتُ بِهِذَا
 أَتَقَلِّسُوفٍ وَصَنَيْتُ وَاجِبَ حَقِّهِ وَحَمَلْتَنِي عَلَى ذَلِكَ سُرْعَةَ الْغَضَبِ.
 هَذَا قَالَتْ الْحُكَمَاةُ: أَرْبَعَةٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ فِي الْمُلُوكِ. الْغَضَبُ
 فَإِنَّهُ أَجْدَرُ الْأَشْيَاءِ مَقْتًا. وَالْجُلُفُ فَإِنَّ صَاحِبَهُ لَيْسَ بِمَعْذُورٍ مَعَ ذَاتِ
 يَدِهِ. وَالْكَذِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُجَاوِرَهُ. وَالرَّفَقُ فِي الْحَاوِرَةِ فَإِنَّ
 السَّفْهَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا. وَإِنِّي أَتَى إِلَيَّ رَجُلٌ نَصَحَ لِي وَلَمْ يَكُنْ
 بَلَاغًا فَعَامَلْتُهُ بِضِدِّ مَا يَسْتَحِقُّ وَكَافَأْتُهُ بِخِلَافِ مَا يَسْتَوْجِبُ. وَمَا
 كَانَ هَذَا جَزَاءَهُ مِنِّي بَلْ كَانَ الْوَاجِبُ أَنْ أَسْمَعَ كَلَامَهُ وَأَنْقَادَ
 لِمَا يُشِيرُ بِهِ: ثُمَّ أَنْفَذَ فِي سَاعَتِهِ مِنْ يَأْتِيهِ بِهِ

فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ: يَا بَيْدَبَا أَلَسْتَ الَّذِي قَصَدْتَ
 إِلَيَّ تَقْصِيرَ هَمَّتِي وَعَجَزَتِ رَأْيِي فِي سِيرَتِي بِمَا تَكَلَّمْتَ بِهِ آنِفًا: فَقَالَ
 لَهُ بَيْدَبَا: أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّاصِحُ الشَّفِيقُ الصَّادِقُ الرَّفِيقُ إِنَّمَا نَبَأْتُكَ بِمَا
 فِيهِ صَلَاحٌ لَكَ وَلِرَعِيَّتِكَ وَدَوَامُ مُلْكِكَ لَكَ: قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا بَيْدَبَا
 أَعِدْ عَلَيَّ كَلَامَكَ كُلَّهُ وَلَا تَدَعْ مِنْهُ حَرْفًا إِلَّا جِئْتَ بِهِ: فَجَعَلَ بَيْدَبَا
 يَتَرُ كَلَامَهُ وَالْمَلِكُ مُضْغٍ إِلَيْهِ وَجَعَلَ دَبْشَلِيمُ كَلِمًا سَمِعَ مِنْهُ
 شَيْئًا يَنْكُتُ الْأَرْضَ شَيْئًا فِي يَدِهِ. ثُمَّ رَفَعَ طَرَفَهُ إِلَى بَيْدَبَا وَأَمَرَهُ
 الْجُلُوسَ وَقَالَ لَهُ: يَا بَيْدَبَا إِنِّي قَدْ اسْتَعَذْتُ بِكَ كَلَامَكَ وَحَسَنَ
 وَقَعُهُ مِنْ قَلْبِي وَأَنَا نَاطِرٌ فِي الَّذِي أَشَرْتُ بِهِ وَعَامِلٌ بِمَا أَمَرْتُ:
 ثُمَّ أَمَرَ بِهُودِهِ فَحَاتَتْ وَأَلْقَى عَلَيْهِ مِنْ لِبَاسِهِ وَتَلَقَّاهُ. فَقَالَ بَيْدَبَا:

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ فِي دُونِ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ نُهْيَةً لِنَفْسِكَ قَالَ : صَدَقْتَ
 أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ وَقَدْ وَلَّيْتُكَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى جَمِيعِ أَقَاصِي
 مَمْلَكَتِي فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ أَغْنَيْني مِنْ هَذَا الْأَمْرِ فَإِنِّي لَسْتُ
 مُضْطَلَعًا بِتَبَوُّعِيهِ : فَأَعْفَاهُ مِنْ ذَلِكَ . فَلَمَّا أَنْصَرَفَ عَلِمَ أَنَّ الَّذِي
 قَعَلَهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ قَبِعَتْ فِرْدَهُ . وَقَالَ : إِنِّي فَكَّرْتُ فِي إِعْفَائِكَ فِيمَا عَرَضَتْ
 عَلَيْكَ فَوَجَدْتُهُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِكَ وَلَا يَنْهَضُ بِهِ غَيْرُكَ وَلَا يَضْطَلَعُ
 بِهِ سِوَاكَ فَلَا تَخَالِفْنِي فِيهِ . فَأَجَابَهُ بَيِّدًا إِلَى ذَلِكَ

وَكَانَ عَادَةً ذَلِكَ الزَّمانَ إِذَا اسْتَوْزَرُوا وَزِيْرًا أَنْ يَتَقَدَّوْا عَلَى
 رَأْسِهِ تَاجًا وَرِكَابٍ فِي أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَيُطَافَ بِهِ فِي الْمَدِينَةِ . فَأَمَرَ الْمَلِكُ
 أَنْ يُفْعَلَ ذَلِكَ بِبَيِّدَبَا . فَوُضِعَ التَّاجُ عَلَى رَأْسِهِ وَرِكَابٌ فِي الْمَدِينَةِ
 وَرَجَعَ وَجَلَسَ بِمَجْلِسِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ يَأْخُذُ لِلدَّيْنِ مِنَ الشَّرِيفِ
 وَيُسَاوِي بَيْنَ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ وَرَدَّ الْمَظْلَمَ وَوَضَعَ سُنَنَ الْعَدْلِ
 وَأَكْثَرَ مِنَ الْعَطَاءِ وَالْبَذْلِ . وَاتَّصَلَ الْخَبَرُ بِتَلَامِيذَتِهِ فَجَاؤُهُ مِنْ كُلِّ
 مَكَانٍ فَرِحِينَ بِمَا قَدَّرَ اللَّهُ لَهُ مِنْ جَدِيدِ رَأْيِ الْمَلِكِ فِيهِ . وَشَكَرُوا
 اللَّهَ تَعَالَى عَلَى تَوْفِيقِ بَيِّدَبَا فِي إِزَالَةِ دَبْشَلِيمَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ
 سُوءِ السَّيَرَةِ . وَاتَّخَذُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا يُعِيدُونَ فِيهِ فَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ
 عِيدٌ عِنْدَهُمْ فِي بِلَادِ الْهِنْدِ

ثُمَّ إِنَّ بَيِّدَبَا لَمَّا خَلَا فِكْرَهُ مِنْ اِشْتِغَالِهِ بِدَبْشَلِيمَ تَفَرَّغَ لَوْضِعِ
 كُتُبِ السِّيَاسَةِ وَنَشِطَ لَهَا . فَعَمِلَ كُتُبًا كَثِيرَةً فِيهَا دَقَائِقُ الْحِلِّ

وَمَضَى الْمَلِكُ عَلَى مَا رَسَمَ لَهُ بَيْدَبَا مِنْ حُسْنِ السَّيْرِ وَالْعَدْلِ فِي
الرَّعِيَّةِ . فَرَعِبَتْ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ الَّذِينَ كَانُوا فِي نَوَاحِيهِ وَأَتَادَتْ إِلَيْهِ
الْأُمُورُ عَلَى أَسْتَوَائِهَا . وَفَرِحَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ وَأَهْلُ مَمْلَكَتِهِ . ثُمَّ إِنَّ
بَيْدَبَا جَمَعَ تَلَامِيذَهُ وَأَحْسَنَ صَلَاتَهُمْ وَوَدَّعَهُمْ وَعَدَّاجِمِيلاً وَقَالَ لَهُمْ :
لَسْتُ أَشْكُ أَنَّهُ وَقَعَ فِي نَفْسِكُمْ وَقْتُ دُخُولِي عَلَى الْمَلِكِ أَنَّ
قُلْتُمْ إِنَّ بَيْدَبَا قَدْ صَاعَتْ حِكْمَتُهُ وَبَطَلَتْ فِكْرَتُهُ إِذْ عَزَمَ عَلَى الدُّخُولِ
عَلَى هَذَا الْجَبَّارِ الطَّاعِي . فَقَدْ عَلِمْتُمْ نَتِيجَةَ رَأْيِي وَصَحَّةَ فِكْرِي
وَأَنِّي لَمْ آتِهِ جَهْلًا بِهِ لِأَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ مِنَ الْمُلُكَمَاءِ قَبْلِي تَقُولُ :
إِنَّ الْمُلُوكَ لَهَا سَكْرَةٌ كَسَكْرَةِ الشَّرَابِ : فَأَلْمُلُوكُ لَا تُفِيقُ مِنَ السُّكْرَةِ
إِلَّا بِمَوَاعِظِ الْعُلَمَاءِ وَأَدَبِ الْحُكَمَاءِ . وَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُلُوكِ أَنْ يَتَّبِعُوا
بِمَوَاعِظِ الْعُلَمَاءِ . وَالْوَاجِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ تَقْوِيمُ الْمُلُوكِ بِالسَّنَنِ
وَتَأْدِيبُهَا بِحُكْمَتِهَا وَإِظْهَارُ الْحُجَّةِ الْبَيِّنَةِ الْإِلَازِمَةِ لَهُمْ لِيَرْتَدِعُوا عَمَّا
هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِعْوِجَاجِ وَالْخُرُوجِ عَنِ الْعَدْلِ . فَوَجَدْتُ مَا قَالَتْ
الْعُلَمَاءُ فَرَضًا وَاجِبًا عَلَى الْحُكَمَاءِ لِيُوقِظُوهُمْ مِنْ سِنَةِ
سُكْرَتِهِمْ كَالطَّيِّبِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ فِي صِنَاعَتِهِ حِفْظُ الْأَجْسَادِ
عَلَى صِحَّتِهَا أَوْ رَدُّهَا إِلَى الصَّحَّةِ . فَكَرِهْتُ أَنْ يَمُوتَ أَوْ أَنْ أَمُوتَ وَلَا
يَبْقَى عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ يَقُولُ : إِنَّهُ كَانَ بَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفُ فِي
زَمَانِ دَبْشَلِيمِ الطَّاعِي فَلَمْ يَرُدَّهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ . فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ إِنَّهُ لَمْ
يُمْكِنْهُ كَلَامُهُ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ قَالُوا كَانَ الْفَرَبُ مِنْهُ وَمِنْ جَوَارِهِ

أَوَّلَى بِهِ وَالْإِزْعَاجُ عَنِ الْوَطَنِ شَدِيدٌ. فَرَأَيْتُ أَنْ أَجُودَ بِحَاكِي
فَأَكُونَ قَدْ أَتَيْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْحُكَمَاءِ بَعْدِي عُذْرًا. فَحَمَلْتَهَا عَلَى التَّغْرِيدِ
وَالظَّفَرِ بِمَا أُرِيدُهُ. وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ مَا أَنْتُمْ مُعَايِنُوهُ. فَإِنَّهُ يُقَالُ فِي بَعْضِ
الْأَمْثَالِ: إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ أَحَدُ مَرْتَبَةٍ إِلَّا بِأَحَدَى ثَلَاثٍ. إِمَّا بِمَشَقَّةٍ تَنَالُهُ
فِي نَفْسِهِ وَإِمَّا بِوَضِيعَةٍ فِي مَالِهِ أَوْ وَكْسٍ فِي دِينِهِ: مَنْ لَمْ يَرْكَبِ
الْأَهْوَالَ لَمْ يَنْلِ الرِّغَابَ. وَإِنَّ الْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ قَدْ بَسَطَ لِسَانِي
فِي أَنْ أَضَعُ كِتَابًا فِيهِ ضُرُوبُ الْحِكْمَةِ. فَلْيَضَعْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ
شَيْئًا فِي أَيِّ فَنٍ شَاءَ وَلْيَعْرِضْهُ عَلَيَّ لِأَنْظُرَ مِقْدَارَ عَقْلِهِ وَأَيَّنْ بَلَغَ
مِنَ الْحِكْمَةِ فَهَمُّهُ: قَالُوا: أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ وَاللَّيِّبُ الْمَاعِزُ
وَالَّذِي وَهَبَ لَكَ مَا مَتَحَكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعَقْلِ وَالْأَدَبِ وَالْقُضِيَّةِ
مَا خَطَرَ هَذَا بِقُلُوبِنَا قَطُّ وَأَنْتَ رَيْسُنَا وَقَاضِنَا وَعَلَى يَدِكَ أَنْتَعِشْنَا
وَلَكِنْ سَنَجِدُ أَنْفُسَنَا فِيمَا أَمَرْتَ

وَمَكَثَ الْمَلِكُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ حُسْنِ السَّيْرِ زَمَانًا تَوَلَّى ذَلِكَ
لَهُ بَيْدَبَا وَيَوْمَ بِهِ. ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ لَمَّا اسْتَقَرَّ لَهُ الْمَلِكُ وَسَقَطَ
عَنْهُ النَّظَرُ فِي أُمُورِ الْأَعْدَاءِ بِمَا قَدْ كَفَاهُ ذَلِكَ بَيْدَبَا صَرَفَ هِمَّتَهُ
إِلَى النَّظَرِ فِي الْكُتُبِ الَّتِي وَضَعَتْهَا فَلَاسِفَةُ الْهِنْدِ لَا بَابَ لَهُ وَأَجْدَادِهِ.
فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَيْضًا كِتَابٌ مَشْرُوحٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ
تُذَكِّرُ فِيهِ آيَاتُهُ كَمَا ذَكَرَ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ مِنْ قَبْلِهِ. فَلَمَّا عَزَمَ عَلَى
ذَلِكَ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَوْمَ بِذَلِكَ إِلَّا بِبَيْدَبَا فَدَعَاهُ وَخَلَا بِهِ وَقَالَ لَهُ:

يَا بَيْدَبَا إِنَّكَ حَكِيمٌ أَلْهَدُ وَفَيْسُوفُهَا وَإِنِّي فَكَّرْتُ وَنَظَرْتُ فِي
خَزَائِنِ الْحِكْمَةِ الَّتِي كَانَتْ لِلْمُلُوكِ قَبْلِي فَلَمْ أَرْ فِيهِمْ أَحَدًا إِلَّا وَقَدْ
وَضَعَ كِتَابًا يَذْكُرُ فِيهِ أَيَّامَهُ وَسِيرَتَهُ وَيُنَبِّئُ عَنْ أَدَبِهِ وَأَهْلِهِ
مَمْلُوكَتِهِ . فَمِنْهُ مَا وَضَعَهُ الْمُلُوكُ لِأَنْفُسِهِا وَذَلِكَ لِتَفْضِيلِ حِكْمَةٍ فِيهَا .
وَمِنْهُ مَا وَضَعْتَهُ حُكْمًا وَهَامًا . وَأَخَافُ أَنْ يُلْحَقَنِي مَا لَحِقَ أَوْلَئِكَ بِمَا لَا
حِيلَةَ لِي فِيهِ وَلَا يُوجَدُ فِي خَزَائِنِي كِتَابٌ أَذْكُرُ فِيهِ بَعْدِي وَأَنْسَبُ
إِلَيْهِ كَمَا ذَكَرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي بِكُتُبِهِمْ . وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَضَعَ لِي
كِتَابًا يَلِيغًا تَسْتَفْرِغُ فِيهِ عَقْلَكَ . يَكُونُ ظَاهِرُهُ سِيَاسَةَ الْعَامَّةِ
وَتَأْدِيبَهَا وَبَاطِنُهُ أَخْلَاقَ الْمُلُوكِ وَسِيَاسَتَهَا لِلرَّعِيَّةِ عَلَى طَاعَةِ الْمَلِكِ
وَعِزِّمَتِهِ فَيَسْقُطَ بِذَلِكَ عَنِّي وَعَنْهُمْ مَا مَخْتِاجُ إِلَيْهِ فِي مُعَانَاةِ الْمَلِكِ .
وَأُرِيدُ أَنْ يُبْقِيَ لِي هَذَا الْكِتَابُ بَعْدِي ذِكْرًا عَلَى غَايِرِ الدُّهُورِ
فَلَمَّا سَمِعَ بَيْدَبَا كَلَامَهُ خَرَّ لَهُ سَاجِدًا وَرَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ : أَيُّهَا
الْمَلِكُ السَّعِيدُ جَدُّهُ . عَلَانِجُمُكَ وَغَابَ نَحْسُكَ وَدَامَتْ أَيَّامُكَ . إِنَّ
الَّذِي قَدْ طُبِعَ عَلَيْهِ الْمَلِكُ مِنْ جُودَةِ الْقَرِيحَةِ وَوُفُورِ الْعَقْلِ حَرَكُهُ
لِعَالِي الْأُمُورِ وَسَمَتْ بِهِ نَفْسُهُ وَهَمَّتْهُ إِلَى أَشْرَفِ الْمُرَاتِبِ مَنْزِلَةً
وَأَبْعَدَهَا غَايَةً . وَأَدَامَ اللَّهُ سَعَادَةَ الْمَلِكِ وَأَعَانَهُ عَلَى مَا عَزَمَ مِنْ
ذَلِكَ وَأَعَانَنِي عَلَى بُلُوغِ مُرَادِهِ . فَلْيَأْمُرِ الْمَلِكُ بِمَا شَاءَ مِنْ ذَلِكَ
فَإِنِّي صَارْتُ إِلَى غَرَضِهِ مُجْتَهِدٌ فِيهِ بِرَأْيِي : قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا لَمْ تَرَلْ
مَوْصُوفًا بِحُسْنِ الرَّأْيِ وَطَاعَةِ الْمُلُوكِ فِي أُمُورِهِمْ . وَقَدْ اخْتَبَرْتُ

مِنْكَ ذَلِكَ وَأَخْتَرْتُ أَنْ تَضَعَ هَذَا الْكِتَابَ وَتَعْمَلَ فِيهِ فِكْرَكَ
وَتَجْهَدَ فِيهِ نَفْسَكَ بِغَايَةِ مَا تَحْدُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ . وَلَيْكُنْ مُشْتَمَلًا عَلَى
الْجِدِّ وَالْمَزَلِ وَاللَّهُوِ وَالْحِكْمَةِ وَالْفَلَسَفَةِ . فَكَفَّرَ لَهُ بِنِدْبَا وَسَجَدَ
وَقَالَ : قَدْ أَحْبَبْتُ الْمَلِكُ أَدَامَ اللَّهُ أَيَّامَهُ إِلَى مَا أَمَرَ نِي بِهِ وَقَدْ
جَعَلْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَجَلًا : قَالَ : وَكَمْ هُوَ الْأَجَلُ : قَالَ : سَنَةٌ : قَالَ :
قَدْ أَجَلْتُكَ : وَأَمَرَ لَهُ بِمَجَازَةِ سَيِّئَةٍ تُعِينُهُ عَلَى عَمَلِ الْكِتَابِ

فَبَقِيَ بِنِدْبَا مَفْكِرًا فِي الْأَخْذِ فِيهِ وَفِي أَيِّ صُورَةٍ يَبْتَدِئُ فِيهِ
وَفِي وَضْعِهِ . ثُمَّ إِنَّ بِنْدْبَا جَمَعَ تَلَامِيذَهُ وَقَالَ لَهُمْ : إِنْ الْمَلِكُ قَدْ نَدَبَنِي
لِأَمْرِ فِيهِ فَخَرِي وَفَخَرُكُمْ وَفَخَرُ بِلَادِكُمْ وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهَذَا الْأَمْرِ : ثُمَّ وَصَفَ
لَهُمْ مَا سَأَلَ الْمَلِكُ مِنْ أَمْرِ الْكِتَابِ وَالْفَرْضِ الَّذِي قَصَدَ فِيهِ فَلَمْ
يَقَعْ لَهُمُ الْفِكْرُ فِيهِ . فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُمْ مَا يُرِيدُهُ فَكَّرَ بِفَضْلِ حِكْمَتِهِ
وَعَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ يَتِمُّ بِاسْتِفْرَاحِ الْعَقْلِ وَإِعْمَالِ الْفِكْرِ وَقَالَ :
أَرَى السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي فِي الْبَحْرِ إِلَّا بِالْمَلَّاحِينَ لِأَنَّهُمْ يُعَدِّلُونَهَا . وَإِنَّمَا
تَسْلُكُ السَّجَّةَ يُعَدِّبُهَا الَّذِي تَقَرَّدُ بِأَمْرِهَا . وَمَتَى شِخِنْتَ بِالرُّكَّابِ
الْكَثِيرِينَ وَكَثُرَ مَلَأُحُوهَا لَمْ يُؤْمِنْ عَلَيْهَا مِنَ الْغَرَقِ : وَلَمْ يَزَلْ يُفَكِّرُ
فِيمَا يَعْمَلُهُ فِي بَابِ الْكِتَابِ حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى الْإِنْفِرَادِ بِنَفْسِهِ مَعَ
رَجُلٍ مِنَ التَّلَامِيذَةِ كَانَ يَثِقُ بِهِ . فَخَلَا بِهِ مُنْقَرِدًا بَعْدَ أَنْ أَعَدَّ مِنَ
الْوَرَقِ الَّذِي كَانَتْ تَكْتُبُ الْهِنْدُ فِيهِ شَيْئًا وَمِنْ الْقَوْتِ مَا يَقُومُ بِهِ
وَيَتَأَمَّلُ بِهِ تِلْكَ الْمُدَّةَ . وَجَلَسَا فِي مَقْصُورَةٍ وَرَدَّا عَلَيْهِمَا الْبَابَ . ثُمَّ

بَدَأَ فِي نَظْمِ الْكِتَابِ وَتَصْنِيفِهِ وَلَمْ يَزَلْ هُوَ يَلِي وَتَأْمِيذُهُ يَكْتُوبُ
وَيَرْجِعُ هُوَ فِيهِ حَتَّى اسْتَقَرَّ الْكِتَابُ عَلَى غَايَةِ الْإِتْقَانِ وَالْإِحْكَامِ .
وَرَتَّبَ فِيهِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ بَابًا كُلُّ بَابٍ مِنْهَا قَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَفِي كُلِّ بَابٍ
مَسْئَلَةٌ وَالْجَوَابُ عَنْهَا لِيَكُونَ لِمَنْ نَظَرَ فِيهِ حَظٌّ . وَصَمَّنَ تِلْكَ
الْأَبْوَابَ كِتَابًا وَلِحْدًا وَسَمَاهُ كِتَابَ كَيْلَةِ وَدِمْنَةٍ . ثُمَّ جَعَلَ كَلَامَهُ
عَلَى أَلْسِنِ الْبِهَائِمِ وَالسَّبَاعِ وَالطَّيْرِ لِيَكُونَ ظَاهِرُهُ لِهَوَا لِيُخَوِّصَ
وَالْعَوَامِ وَبَاطِنُهُ رِيَاضَةٌ لِمَقُولِ الْخَاصَّةِ . وَضَمَّنَهُ أَيْضًا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ
الْإِنْسَانُ مِنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ يُحْضُهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ
لِلْمُلُوكِ وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانِبَتُهُ خَيْرًا لَهُ . ثُمَّ جَعَلَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا
كَرَّسَهُ سَائِرِ الْكُتُبِ الَّتِي يَرَسُمُ الْحِكْمَةَ . فَصَارَ الْحَيَوَانُ لَهُوَ وَمَا
يَنْطِقُ بِهِ حِكْمًا وَأَدَبًا . فَلَمَّا أَتَبَدَأَ بَيْدَبَا بِذَلِكَ جَعَلَ أَوَّلَ الْكِتَابِ
وَصَفَ الصَّدِيقِ كَيْفَ يَكُونُ صَدِيقَانِ وَكَيْفَ تُقَطَّعُ الْمُودَّةُ بَيْنَهُمَا
بِحِيلَةٍ ذِي النَّمِيَةِ . وَأَمَرَ تَأْمِيذُهُ أَنْ يَكْتُبَ عَلَى لِسَانِ بَيْدَبَا مِثْلَ
مَا كَانَ الْمَلِكُ شَارِطُهُ فِي أَنْ يَجْعَلَهُ لَهُوَ وَحِكْمَةً . فَذَكَرَ بَيْدَبَا أَنَّ
الْحِكْمَةَ مَتَى دَخَلَهَا كَلَامُ النُّقْلَةِ أَفْسَدَهَا وَأَسْتَجْهَلَ حِكْمَتَهَا . فَلَمْ
يَزَلْ هُوَ وَتَأْمِيذُهُ يُعْمِلَانِ الْفِكْرَ فِيمَا سَأَلَهُ الْمَلِكُ حَتَّى فَتَقَ لَهُمَا الْعَمَلُ
أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُمَا عَلَى لِسَانِ بَهِيمَتَيْنِ . فَوَقَعَ لَهُمَا مَوْضِعُ اللَّهِوِ
وَالْهَزْلِ بِكَلَامِ الْبِهَائِمِ . وَكَانَتْ الْحِكْمَةُ مَا نَطَقَ بِهِ . فَأَصْنَتِ
الْحِكْمَاءُ إِلَى حِكْمَتِهِ وَتَرَكُوا الْبِهَائِمَ وَاللَّهُوَ وَعَامُوا أَنَّهَا السَّبَبُ فِي

الَّذِي وَضَعَ لَهُمْ . وَمَاتَ إِلَيْهِ الْجَمَالُ عَجَبًا مِنْ مُحَاوَرَةِ بَهِيمَتَيْنِ وَلَمْ
يَشْكُوا فِي ذَلِكَ وَاتَّخَذُوهُ لَهْوًا وَتَرَكُوا مَنَى الْكَلَامِ أَنْ يَفْهَمُوهُ وَلَمْ
يَعْلَمُوا الْفَرَضَ الَّذِي وَضَعَ لَهُ . لِأَنَّ الْفَلَسُوفَ إِنَّمَا كَانَ غَرَضُهُ فِي
الْبَابِ الْأَوَّلِ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ تَوَاصُلِ الْإِخْوَانِ كَيْفَ تَتَأَكَّدُهُ
الْمُودَّةُ بَيْنَهُمْ عَلَى التَّحْفُظِ مِنْ أَهْلِ السَّعَايَةِ وَالتَّحَرُّزِ مِمَّنْ يُوقِعُ
الْعَدَاوَةَ بَيْنَ الْمُتَحَايِنِ لِيَجْرِيَ بِذَلِكَ نَفْعًا إِلَى نَفْسِهِ .

فَلَمْ يَزَلْ يَبْدَأُ وَتَلْمِيزُهُ فِي الْمَقْصُورَةِ حَتَّى اسْتَمَّ عَمَلُ الْكِتَابِ
فِي مُدَّةِ سَنَةٍ . فَلَمَّا تَمَّ الْحَوْلُ أَنْفَذَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ : أَنْ قَدْ جَاءَ الْوَعْدُ
فَمَاذَا صَنَعْتَ : فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ يَبْدَأُ : إِنِّي عَلَى مَا وَعَدْتُ أَلَّاكَ فَلْيَأْمُرْنِي
بِمَجْلِهِ بَعْدَ أَنْ يَجْمَعَ أَهْلُ الْمُلْكَةِ لَتَكُونَ قِرَاءَتِي هَذَا الْكِتَابِ
يَحْضُرُهُمْ : فَلَمَّا رَجَعَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَلِكِ سُرَّ بِذَلِكَ وَوَعَدَهُ يَوْمًا
يَجْمَعُ فِيهِ أَهْلَ الْمُلْكَةِ . ثُمَّ نَادَى فِي أَقَاصِي بِلَادِ الْهِنْدِ لِيَحْضُرُوا
قِرَاءَةَ الْكِتَابِ . فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ أَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُنْصَبَ لِيَبْدَأُ
سَرِيْرٌ مِثْلُ سَرِيْرِهِ وَكَرَاسِيٌّ لِأَبْنَاءِ الْمُلُوكِ وَالْعُلَمَاءِ وَأَنْفَذَ فَأَحْضَرَهُ .
فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَامَ فَلَيْسَ الْبَابُ الَّذِي كَانَ يَلْبَسُهُ إِذَا دَخَلَ عَلَى
الْمُلُوكِ وَهِيَ الْمُسُوحُ السُّودُ وَحَمَلَ الْكِتَابَ تَلْمِيزُهُ . فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى
الْمَلِكِ وَتَبَّ الْخَلَائِقُ بِأَجْمَعِهِمْ وَقَامَ الْمَلِكُ شَاكِرًا . فَلَمَّا قَرُبَ مِنْ
الْمَلِكِ كَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ وَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ . فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا يَبْدَأُ ارْفَعْ
رَأْسَكَ فَإِنَّ هَذَا يَوْمٌ هَنَاءٍ وَفَرَحٍ وَسُرُورٍ : وَأَمَرَهُ أَنْ يَجْلِسَ . فَحِينَ

جَلَسَ لِقِرَاءَةِ الْكِتَابِ . سَأَلَهُ الْمَلِكُ عَنْ مَعْنَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ
الْكِتَابِ وَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ قَصَدَ فِيهِ . فَأَخْبَرَهُ بِغَرَضِهِ فِيهِ وَفِي كُلِّ
بَابٍ . فَأَزْدَادَ الْمَلِكُ مِنْهُ تَعْجَبًا وَسُرُورًا فَقَالَ لَهُ : يَا بَيْدَبَا مَا عَدَوْتَ
الَّذِي فِي نَفْسِي وَهَذَا الَّذِي كُنْتُ أَطْلُبُ فَأُطْلَبُ مَا شِئْتَ وَتَحَكَّمْ .
فَدَعَا لَهُ بَيْدَبَا بِالسَّعَادَةِ وَطُولِ الْحَيِّدِ وَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ أَمَّا الْمَالُ فَلَا
حَاجَةَ لِي فِيهِ . وَأَمَّا الْكُسُوفُ فَلَا أَخْتَارُ عَلَى لِبَاسِي هَذَا شَيْئًا وَلَسْتُ
أُحِبُّ الْمَلِكَ مِنْ حَاجَةٍ : قَالَ الْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا مَا حَاجَتُكَ . فَكُلُّ حَاجَةٍ
لَكَ قَبْلَنَا مَقْضِيَةٌ . قَالَ : يَا مُرُّ الْمَلِكُ أَنْ يُدَوِّنَ كِتَابِي هَذَا كَمَا دَوَّنَ
آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ كِتَابَهُمْ . وَيَأْمُرُ بِالْإِخْتِاطِ عَلَيْهِ . فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ
يُخْرِجَ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ فَيَتَنَاوَلَهُ أَهْلُ فَارِسَ إِذَا عَلِمُوا بِهِ . فَلْيَأْمُرْ
الْمَلِكُ أَنْ لَا يُخْرِجَ مِنْ بَيْتِ الْحِكْمَةِ : ثُمَّ دَعَا الْمَلِكُ بِتَلَامِيذَتِهِ
وَأَحْسَنَ لَهُمُ الْجَوَازِ . ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا مَلَكَ كِسْرَى أُنُوشِروَانَ وَكَانَ
مُسْتَأْثَرًا بِالْكِتَابِ وَالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَالنَّظَرِ فِي أَخْبَارِ الْأَوَائِلِ وَقَعَ
لَهُ خَبَرُ الْكِتَابِ فَلَمْ يَقِرَّ قَرَارُهُ حَتَّى بَعَثَ بِرِزْوِيهِ الطَّيِّبِ حَتَّى
أَخْرَجَهُ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ فَأَقْرَهُ فِي خَزَائِنِ فَارِسَ

مِنْ كِتَابِ كَلِيلَةِ وَدِمْنَةِ

فِي بَعْتِهِ بَرْزَوِيهِ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ

وَقَدْ رَزَقَ اللَّهُ الْمَلِكَ السَّعِيدَ أَنْوَشِرَوَانَ مِنَ الْعَقْلِ أَفْضَلَهُ وَمِنْ
الْعِلْمِ أَجْزَلَهُ وَمِنْ الْمَعْرِفَةِ بِالْأُمُورِ أَصَوَّبَهَا وَسَدَّدَهُ مِنَ الْأَفْعَالِ
إِلَى أَسَدِّهَا وَمِنْ التَّجَتُّبِ عَنِ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ إِلَى أَنْفَعِهِ . وَبَلَّغَهُ
مِنْ فُنُونِ اخْتِلَافِ الْعِلْمِ وَبُلُوغِ مَنْزِلَةِ الْفَلَسَفَةِ مَا لَمْ يَبْلُغَهُ مَلِكٌ
قَطُّ مِنَ الْمُلُوكِ قَبْلَهُ . حَتَّى كَانَ فِي مَا طَلَبَ وَبَحَثَ عَنْهُ مِنَ الْعِلْمِ
أَنْ بَلَّغَهُ عَنْ كِتَابِ الْهِنْدِ عِلْمٌ أَنَّهُ أَصْلُ كُلِّ أَدَبٍ وَرَأْسُ كُلِّ عِلْمٍ
وَالدَّلِيلُ عَلَى كُلِّ مَنْفَعَةٍ . فَأَمَرَ الْمَلِكُ وَزِيرَهُ بَرْزَجُورَ أَنْ يَبْحَثَ لَهُ
عَنْ رَجُلٍ أَدِيبٍ عَاقِلٍ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ بِصِيرٍ بِإِسَانِ الْفَارَسِيَّةِ
مَاهِرٍ فِي كَلَامِ الْهِنْدِ وَيَكُونُ بَلِيغًا بِاللِّسَانَيْنِ جَمِيعًا . حَرِيصًا عَلَى
طَلَبِ الْعِلْمِ مُجْتَهِدًا فِي اسْتِعْمَالِ الْأَدَبِ مُبَادِرًا فِي الْعِلْمِ وَالتَّجَتُّبِ
عَنْ كُتُبِ الْفَلَسَفَةِ . فَأَتَاهُ رَجُلٌ أَدِيبٌ كَامِلٌ الْعَقْلِ وَالْأَدَبِ مَعْرُوفٌ
بِصِنَاعَةِ الطِّبِّ مَاهِرٍ فِي الْفَارَسِيَّةِ وَالْهِنْدِيَّةِ يُقَالُ لَهُ بَرْزَوِيهِ
فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ كَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ :

يَا بَرْزَوِيهِ إِنِّي قَدْ اخْتَرْتُكَ لِمَا بَلَّغَنِي مِنْ فَضْلِكَ وَعِلْمِكَ وَعَقْلِكَ
وَحَرِيصَتِكَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ حَيْثُ كَانَ . وَقَدْ بَلَّغَنِي عَنْ كِتَابِ الْهِنْدِ
مَخْزُونٍ فِي خَزَائِنِهِمْ : وَقَصَّ عَلَيْهِ مَا بَلَّغَهُ عَنْهُ وَقَالَ لَهُ : تَجَوَّزْ فَإِنِّي

مَرَحَلَكْ إِلَى أَرْضِ الْهِنْدِ فَتَلَطَّفَ بِمَقْلِكَ وَحُسْنِ أَدَبِكَ وَنَاقِدِ رَأْيِكَ
لَا سِتْرَاجَ هَذَا الْكِتَابِ مِنْ خَزَائِنِهِمْ وَمِنْ قَبْلِ عُلَمَائِهِمْ فَتَسْتَفِيدُ
مِنْ ذَلِكَ وَتُفِيدُنَا. وَمَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ كُتُبِ الْهِنْدِ مِمَّا لَيْسَ فِي
خَزَائِنِنَا مِنْهُ شَيْءٌ فَأَجْمَلْهُ مَعَكَ وَخُذْ مَعَكَ مِنَ الْمَالِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ
وَعَجَلُ فِي ذَلِكَ وَلَا تُقَصِّرْ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ . وَإِنْ أَكْثَرْتَ فِيهِ
النَّفَقَةَ فَإِنَّ جَمِيعَ مَا فِي خَزَائِنِي مَبْذُولٌ لَكَ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ :
وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ الْمُتَجَمِّعِينَ فَأَخْتَارُوا لَهُ يَوْمًا يَسِيرُ فِيهِ وَسَاعَةٌ صَالِحَةٌ
يَخْرُجُ فِيهَا وَحَمَلُ مَعَهُ مِنَ الْمَالِ عِشْرِينَ جِرَابًا كُلُّ جِرَابٍ فِيهِ عَشْرَةُ
آلَافٍ دِينَارٍ

فَلَمَّا قَدِمَ بَرْزَوِيهِ بِلَادَ الْهِنْدِ طَافَ بِبَابِ الْمَلِكِ وَمَجَالِسِ السُّوقَةِ
وَسَأَلَ عَنْ خَوَاصِّ الْمَلِكِ وَالْأَشْرَافِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ . فَعَجَلَ
يُنْفِشُهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ وَيَتَلَقَّاهُمْ بِالنَّجْوَةِ وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ
قَدِمَ بِلَادَهُمْ لِيَطْلُبَ الْعُلُومَ وَالْأَدَبَ . وَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى مُعَاوَتِهِمْ
فِي ذَلِكَ . فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ زَمَانًا طَوِيلًا يَتَأَدَّبُ عَلَى عُلَمَاءِ الْهِنْدِ مِمَّا
هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِهِ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مِنْهُ شَيْئًا . وَهُوَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ يَسْتَرُ
بُعِيَّتَهُ وَحَاجَتَهُ . وَاتَّخَذَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ لَطُولِ مُقَامِهِ أَصْدِقَاءَ كَثِيرَةً مِنْ
الْأَشْرَافِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ وَالسُّوقَةِ وَمِنْ أَهْلِ كُلِّ طَبَقَةٍ وَصِنَاعَةٍ .
وَكَانَ قَدْ اتَّخَذَ مِنْ بَيْنِ أَصْدِقَائِهِ رَجُلًا وَاحِدًا قَدْ اتَّخَذَهُ لِسِرِّهِ
وَمَا يَجِبُ مُشَاوَرَتُهُ فِيهِ لِلَّذِي ظَهَرَ لَهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَدَبِهِ وَلِمَا اسْتَبَانَ

لَهُ مِنْ صَحَّةِ إِخَانِهِ وَكَانَ يُشَاوِرُهُ فِي الْأُمُورِ وَدَّ تَأْخُذَ بِهِ فِي جَمِيعِ مَا أَهَمَّهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَكْتُمُ عَنْهُ الْأَمْرَ الَّذِي قَدِمَ مِنْ أَجْلِهِ لِكَيْ يَلُوهُ وَيَخْتَبِرَهُ. وَيَنْظُرُ هَلْ هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُطْلِعَهُ عَلَى سِرِّهِ.

فَقَالَ لَهُ يَوْمًا وَهَذَا جَالِسَانِ: يَا أَخِي مَا أُرِيدُ أَنْ أَكْتُمَكَ مِنْ أَمْرِي فَوْقَ الَّذِي كَتَمْتُكَ. فَأَعْلَمَ أَنِّي لِأَمْرٍ قَدِمْتُ وَهُوَ غَيْرُ الَّذِي يَظْهَرُ مِنِّي وَالْعَاقِلُ يَكْتُمُنِي مِنَ الرَّجُلِ بِالْعَلَامَاتِ مِنْ نَظَرِهِ حَتَّى يَعْلَمَ سِرَّ نَفْسِهِ وَمَا يُضْمِرُ قَلْبُهُ. قَالَ لَهُ الْهِنْدِيُّ: إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ بَدَأْتُكَ وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا جِئْتُ لَهُ وَإِيَّاهُ تُرِيدُ وَأَنْتَ تَكْتُمُ أَمْرًا تَطْلُبُهُ وَتُظْهِرُ غَيْرَهُ. فَمَا خَفِيَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْكَ وَلَكِنِّي لِرَغْبَتِي فِي إِخَانِكَ كَرِهْتُ أَنْ أُوَاجِهَكَ بِهِ وَأَنَّهُ قَدْ اسْتَبَانَ مَا تُخْفِيهِ عَنِّي. فَأَمَّا إِذْ قَدْ أَظْهَرْتَ ذَلِكَ وَأَقْصَصْتَ بِهِ وَبِالْكَلَامِ فِيهِ فَإِنِّي تُخْبِرُكَ عَنْ نَفْسِكَ وَمُظْهِرٌ لَكَ سَرِيرَتِكَ وَمُعْلِمٌ بِحَالِكَ الَّتِي قَدِمْتَ لَهَا بِلَادَنَا لِتَسْلُبَنَا كُنُوزَنَا النَّفِيسَةَ فَتَذْهَبَ بِهَا إِلَى بِلَادِكَ وَتَسْرِبَهَا مَلِكَكَ وَكَانَ قُدُومُكَ بِالْمَكْرِ وَالْحَدِيعَةِ. وَلَكِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ صَبْرَكَ وَمُواظِبَتَكَ عَلَى طَلَبِ حَاجَتِكَ وَالتَّحْفِظِ مِنْ أَنْ يَسْقُطَ مِنْكَ الْكَلَامُ مَعَ طَوْلِ مُكْنِكَ عِنْدَنَا بِشَيْءٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى سَرِيرَتِكَ وَأُمُورِكَ أَرَدَدْتُ رَغْبَةً فِي إِخَانِكَ وَثِقَةً بِعَقْلِكَ وَأَحْيَيْتُ مُودَّتَكَ. فَإِنِّي لَمْ أَرِ فِي الرِّجَالِ رَجُلًا هُوَ أَرْصَنُ مِنْكَ عَقْلًا وَلَا أَحْسَنُ أَدَبًا وَلَا أَصْبَرَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ. وَلَا أَكْتُمُ سِرَّهُ مِنْكَ وَلَا سِيًّا فِي

بِلَادِ غُرَبَةٍ وَمَمْلَكَةٍ غَيْرِ مَمْلَكَتِكَ وَعِنْدَ قَوْمٍ لَا تَعْرِفُ سُنَّتَهُمْ .
وَأِنْ عَقَلَ الرَّجُلُ لَيْسَ فِي ثَمَانِي خِصَالٍ الْأُولَى مِنْهَا الرِّفْقُ . وَالثَّانِيَةُ
أَنْ يَعْرِفَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ فَيَحْفَظَهَا . وَالثَّلَاثَةُ طَاعَةُ الْمُلُوكِ وَالتَّحَرِّيُ لِمَا
يُرْضِيهِمْ . وَالرَّابِعَةُ مَعْرِفَةُ الرَّجُلِ مَوْضِعَ سِرِّهِ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ
يُطْلَعَ عَلَيْهِ صَدِيقُهُ . وَالْخَامِسَةُ أَنْ يَكُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمُلُوكِ أَدِيًّا
مَلِيقَ اللِّسَانِ . وَالسَّادِسَةُ أَنْ يَكُونَ لِسِرِّهِ وَسِرِّ غَيْرِهِ حَافِظًا .
وَالسَّابِعَةُ أَنْ يَكُونَ عَلَى لِسَانِهِ قَادِرًا فَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يَأْمَنُ تَبِعَتَهُ .
وَالثَّامِنَةُ أَنْ يَكُونَ بِالْخِصْلِ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يُسْأَلُ عَنْهُ . فَمَنْ اجْتَمَعَتْ
فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ كَانَ هُوَ الدَّاعِيَ الْخَيْرِ إِلَى نَفْسِهِ وَهَذِهِ الْخِصَالُ
كُلُّهَا قَدْ اجْتَمَعَتْ فِيكَ وَبَانَ لِي مِنْكَ . فَاللَّهُ تَعَالَى يَحْفَظُكَ
وَيُعِينِكَ عَلَى مَا قَدِمْتَ لَهُ فَمُصَادَقَتُكَ إِيَّايَ لَتُسَلِّبَنِي كُزِّي وَفَخْرِي
وَعَلْيِي . فَإِنَّكَ أَهْلٌ لِأَنْ تُسَعَفَ بِحَاجَتِكَ وَتُسَفَعَ بِطَلَبِكَ وَتُعْطَى
سُؤْلُكَ

فَقَالَ لَهُ بَرَزَوِيهِ : إِنِّي قَدْ كُنْتُ هَيَاتُ كَلَامًا كَثِيرًا وَشَعَبْتُ لَهُ
شِعَابًا وَأَنْشَأْتُ لَهُ أَصُولًا وَطُرُقًا . فَلَمَّا أَنْتَهَيْتُ إِلَى مَا بَدَأْتَنِي بِهِ مِنْ
إِطْلَاعِكَ عَلَى أَمْرِي وَالَّذِي قَدِمْتُ لَهُ وَالْقِيَتَهُ عَلَيَّ مِنْ ذَاتِ نَفْسِكَ
وَرَغْبَتِكَ فِي مَا أَلْقَيْتَ مِنَ الْقَوْلِ أَكْتَفَيْتُ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْخُطَابِ
مَعَكَ وَعَرَفْتُ الْكَبِيرَ مِنْ أُمُورِي بِالصَّغِيرِ مِنَ الْكَلَامِ وَأَقْتَصَرْتُ
بِهِ مَعَكَ عَلَى الْإِيجَازِ وَرَأَيْتُ مِنْ إِسْعَافِكَ إِيَّايَ بِحَاجَتِي مَا دَلَّنِي

عَلَى كَرَمِكَ وَحُسْنِ وَقَائِكَ . فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا أُلْقِيَ إِلَى الْفَلَسُوفِ
 وَالسِّرِّ إِذَا اسْتُودِعَ الْأَلِيبَ الْحَافِظَ فَقَدْ حُصِّنَ وَبُلِّغَ بِهِ نِهَآيَةُ أَمَلٍ
 صَاحِبِهِ كَمَا يُحَصِّنُ الشَّيْءُ النَّفِيسُ فِي الْقَلَاعِ الْحَصِينَةِ : قَالَ الْهِنْدِيُّ :
 لَا شَيْءَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَوَدَّةِ وَمَنْ خَلَصَتْ مَوَدَّتُهُ كَانَ أَهْلًا أَنْ يَخْاطَبَهُ
 الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ وَلَا يَذْخَرُ عَنْهُ شَيْئًا وَلَا يَكْتُمُهُ سِرًّا . فَإِنْ حَفِظَ السِّرَّ
 رَأْسُ الْأَدَبِ فَإِذَا كَانَ السِّرُّ عِنْدَ الْأَوَّيْنِ الْكُتُومِ فَقَدْ اخْتَرَزَ مِنْ
 التَّضْيِيعِ مَعَ أَنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ بِهِ . وَلَا يُكْتَمُ سِرٌّ بَيْنَ اثْنَيْنِ
 قَدْ عَلِمَاهُ وَتَفَاوَضَا فِيهِ . فَإِذَا تَكَلَّمَ بِالسِّرِّ اثْنَانِ فَلَا بُدَّ مِنْ ثَلَاثٍ
 مِنْ جِهَةٍ أَحَدِهِمَا أَوْ مِنْ جِهَةٍ الْآخَرِ فَإِذَا صَارَ إِلَى الثَّلَاثَةِ دَهْدٌ
 شَاعَ وَذَاعَ حَتَّى لَا يَسْتَطِيعَ صَاحِبُهُ أَنْ يَجْعَدَهُ وَيُكَايِرَ فِيهِ كَالنِّمْرِ
 إِذَا كَانَ مُنْقَطِعًا فِي السَّمَاءِ . فَقَالَ قَابِلٌ غَيْمٌ مُنْقَطِعٌ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ
 عَلَى تَكْذِيبِهِ . وَأَنَا فَقَدْ يَدَاخِلُنِي مِنْ مَوَدَّتِكَ وَخَطَاتِكَ سُرُورٌ
 لَا يُعْدِلُهُ شَيْءٌ . وَهَذَا الْأَمْرُ الَّذِي تَطْلُبُهُ مِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ مِنَ الْأَسْرَارِ
 الَّتِي لَا تُكْتَمُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَفْشَوْ وَيُظْهَرَ حَتَّى يَتَخَدَّثَ بِهِ النَّاسُ . فَإِذَا
 فَشَا فَقَدْ سَعَيْتُ فِي هَلَاكِ هَلَاكًا لَا أَقْدِرُ عَلَى الْهَدَاءِ مِنْهُ بِالْمَلِ
 وَإِنْ كَثُرَ . لِأَنَّ مَلِكَنَا فَظٌ غَلِيظٌ يُعَاقِبُ عَلَى الذَّنْبِ الصَّغِيرِ
 أَشَدَّ الْعِقَابِ فَكَيْفَ يَمُثِّلُ هَذَا الذَّنْبَ الْعَظِيمَ . وَإِذَا هَمَّتْنِي الْمَوَدَّةُ
 الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَأَسْفَعْتُكَ بِمَاجَتِكَ لَمْ يَرُدَّ عِقَابُهُ عَنِّي شَيْءٌ
 قَالَ بَرْزَوِيهِ : إِنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ مَدَحَتِ الصِّدِّيقَ إِذَا كَتَمَ سِرَّ صَدِيقِهِ

وَأَعَانَهُ عَلَى الْقَوْرِ . وَهَذَا الْأَمْرُ الَّذِي قَدِمْتُ لَهُ لِمَلِكٍ ذَخَرْتُهُ
وَبِكَ أَرْجُو بُلُوغَهُ وَأَنَا وَاثِقٌ بِكَرَمِ طِبَاعِكَ وَوُفُورِ عَقْلِكَ وَأَعْلَمُ
أَنَّكَ لَا تَخْشَى مِنِّي وَلَا تَخَافُ أَنْ أَبْدِيَهُ بَلْ تَخْشَى أَهْلَ بَيْتِكَ
الطَّائِفِينَ بِكَ وَبِالْمَلِكِ أَنْ يَسْعَوْا بِكَ . وَأَنَا أَرْجُو أَنْ لَا يَشِيعَ شَيْءٌ
مِنْ هَذَا الْأَمْرِ لِأَنِّي أَنَا ظَالِمٌ وَأَنْتَ مُقِيمٌ وَمَا أَقَمْتُ فَلَا تَالِكَ
بَيْنَنَا . فَمَتَاهِدًا عَلَى هَذَا جَمِيعًا : فَأَجَابَهُ الْهِنْدِيُّ إِلَى ذَلِكَ الْكِتَابِ
وَالِى غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ فَأَكْبَّ عَلَى تَفْسِيرِهِ وَنَقْلِهِ مِنَ اللِّسَانِ
الْهِنْدِيِّ إِلَى اللِّسَانِ الْقَارِسِيِّ وَأَتَعَبَ نَفْسَهُ وَأَنْصَبَ بَدَنَهُ لَيْلًا
وَنَهَارًا وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ وَجِلٌ فَرَعَ مِنْ مَلِكِ الْهِنْدِ خَائِفٌ عَلَى نَفْسِهِ
مِنْ أَنْ يَذْكُرَ الْمَلِكُ الْكِتَابَ فِي وَقْتٍ وَلَا يُصَادِفَهُ فِي خِزَانَتِهِ

فَلَمَّا فَرَعَ مِنْ انْتِسَاخِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِ مِمَّا أَرَادَ مِنْ سَائِرِ الْكُتُبِ
كَتَبَ إِلَى أُنُوشِرْوَانَ يُعْلِمُهُ بِذَلِكَ . فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ الْكِتَابُ سُرَّ
بِذَلِكَ سُرُورًا شَدِيدًا . ثُمَّ تَخَوَّفَ مُعَاجَلَةَ الْمَقَادِيرِ أَنْ تُنْقِصَ عَلَيْهِ
فَرَحَهُ فَكَتَبَ إِلَى بَرَزَوِيهِ يَا مُرُّهُ بِتَحْيِيلِ الْقُدُومِ . فَسَارَ بَرَزَوِيهِ
مُتَوَجِّهًا نَحْوَ كِسْرَى . فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ مَا قَدْ مَسَّهُ مِنَ الشُّحُوبِ
وَالْتَعَبِ وَالْأَنْصَبِ قَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْعَبْدُ النَّاصِحُ الَّذِي يَأْكُلُ ثَمَرَةَ مَا
قَدْ غَرَسَ أَبْشِرْ وَقَرِّ عَيْنًا فَإِنِّي مُشْرِفُكَ بِأَلْفِ بَكٍ أَفْضَلُ دَرَجَةٍ :
وَأَمْرُهُ أَنْ يُرِيحَ بَدَنَهُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ .

فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ السَّابِعُ أَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يَجْتَمِعَ إِلَيْهِ الْأَمْرَاءُ

وَالْعُلَمَاءُ . فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَمَرَ بَرْزَوِيهِ بِالْحُضُورِ فَحَضَرَ وَمَعَهُ الْكُتُبُ
فَقَرَأَهَا وَقَرَأَهَا عَلَى مَنْ حَضَرَ مِنْ أَهْلِ الْمُلْكَةِ . فَلَمَّا سَمِعُوا مَا فِيهَا
مِنَ الْعِلْمِ قَرَحُوا قَرَحًا شَدِيدًا وَشَكَرُوا اللَّهَ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ وَمَدَحُوا
بَرْزَوِيهِ وَأَثْنُوا عَلَيْهِ وَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ تُفْتَحَ لِبَرْزَوِيهِ خَزَائِنُ الْأَوْلُوهِ
وَالزَّرَجِدِ وَالْيَاقُوتِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْخَزَائِنِ
مَا شَاءَ مِنْ مَالٍ وَكُسُوفٍ وَقَالَ : يَا بَرْزَوِيهِ إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ أَنْ تُجْلِسَ
عَلَى مِثْلِ سَرِيرِي هَذَا وَتَلْبَسَ تَلْبَاً وَتَتَرَأَّسَ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْرَافِ .
فَسَجَدَ بَرْزَوِيهِ لِلْمَلِكِ وَدَعَا لَهُ وَطَلَبَ مِنَ اللَّهِ وَقَالَ : أَكْرَمَ اللَّهُ
تَعَالَى الْمَلِكَ كَرَامَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَحْسَنَ عَنِّي ثَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ .
فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ مُسْتَعِينٌ عَنِ الْمَالِ بِمَا رَزَقَنِي اللَّهُ عَلَى يَدِ الْمَلِكِ السَّعِيدِ
الْجَدِّ الْعَظِيمِ الْمَلِكِ وَلَا حَاجَةَ لِي بِالْمَالِ . لَكِنِّ لَمَّا كَلَّفَنِي ذَلِكَ وَعَلِمْتُ
أَنَّهُ يَسْرُهُ أَنْ أَمْضِيَ إِلَى الْخَزَائِنِ فَأَنَا أَخْذُ مِنْهَا طَلَبًا لِرِضَايَةِ
وَأَهْتِيَ لِأَمْرِهِ : ثُمَّ قَصَدَ خَزَانَةَ الْيَتَابِ فَأَخَذَ مِنْهَا كُفَّاً مِنْ طَرَائِفِ
خُرَاسَانَ وَمِنْ مَلَابِسِ الْمُلُوكِ

فَلَمَّا قَبِضَ بَرْزَوِيهِ مَا اخْتَارَهُ وَرَضِيَهُ مِنَ الْيَتَابِ قَالَ : أَكْرَمَ
اللَّهُ الْمَلِكَ وَمَدَّنِي فِي عُمْرِهِ أَبَدَ الْأَبَدِ . إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَكْرَمَ وَجَبَ
عَلَيْهِ الشُّكْرُ وَإِنْ كَانَ قَدْ اسْتَوْجَبَهُ تَعَبًا وَمَشَقَّةً فَقَدْ كَانَ فِيهِمَا
إِرْضَاؤُ الْمَلِكِ . وَأَمَّا أَنَا فَمَا لَقِيْتُهُ مِنْ عَنَاءٍ وَتَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ لَمَّا أَعْلَمْتُ
أَنَّ لَكُمْ فِيهِ الشَّرَفَ يَا أَهْلَ هَذَا الْبَيْتِ فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ إِلَى هَذَا

الْيَوْمَ تَابِعَا رِضَاكُمْ أَرَى الْعَسِيرَ فِيهِ يَسِيرًا وَالشَّاقَّ هَيِّنًا وَالنَّصَبَ
وَالْأَذَى سُرُورًا وَلَذَّةً لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ رِضًى وَقُرْبَةً عِنْدَكُمْ .
وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ حَاجَةً تُسَمِّعُنِي بِهَا وَتُغْطِيَنِي فِيهَا سُؤْلِي
فَإِنَّ حَاجَتِي يَسِيرَةٌ وَفِي قَضَائِهَا فَايِدَةٌ كَثِيرَةٌ : قَالَ أَنْوِشِرَوَانُ :
فَكُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قَبْلَنَا مَقْضِيَةٌ فَإِنَّكَ عِنْدَنَا عَظِيمٌ وَلَوْ طَلَبْتَ مُشَارَكَتَنَا
فِي مُلْكِنَا لَفَعَلْنَا وَلَمْ نَزِدْ طَلَبَتَكَ فَكَيْفَ مَا سِوَى ذَلِكَ قَتْلٌ وَلَا
نَحْتَشِمُ فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا مَبْدُولَةٌ لَكَ

قَالَ بَرْزَوِيهِ : أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَنْظُرْ إِلَى عَنَائِي فِي رِضَاكَ وَأَنْتَ كَمَا شِئْتَ
فِي طَاعَتِكَ . فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُكَ يَلْزُمُنِي بِذَلِكَ مُغْتَحِي فِي رِضَاكَ وَلَوْ لَمْ
تُجْزِنِي لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عِنْدِي عَظِيمًا وَلَا وَاجِبًا عَلَى الْمَلِكِ . وَلَكِنْ
لِكَرَمِهِ وَشَرَفِ مَنْصِبِهِ عَمَدًا إِلَى مُجَازَاتِي وَخَصَنِي وَأَعْمَلَ بَيْتِي بِمُلُوكِ
الْمُرْتَبَةِ وَرَفَعَ الدَّرَجَةَ حَتَّى لَوْ قَدَّرَ أَنْ يَجْمَعَ لَنَا بَيْنَ شَرَفِ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ لَفَعَلَ فَجَزَاهُ اللَّهُ عَنَّا أَفْضَلَ الْجَزَاءِ . قَالَ أَنْوِشِرَوَانُ : أَذْكُرُ
حَاجَتَكَ فَعَلِيَّ مَا يَسُرُّكَ : فَقَالَ بَرْزَوِيهِ : حَاجَتِي أَنْ يَأْمُرَ الْمَلِكُ أَعْلَاهُ
اللَّهُ تَعَالَى وَزِيْرَهُ بَرْزَجَهْرَ بْنِ الْبُخْتِكَانِ وَيُسَمِّعَ عَلَيْهِ أَنْ يُعْمَلَ فِكْرُهُ
وَيَجْمَعَ رَأْيَهُ وَيَجْهَدَ طَاقَتَهُ وَيُفْرِغَ قَلْبَهُ فِي نَظْمِ تَأْلِيفِ كَلَامٍ مُتَقِنٍ
مُحْكَمٍ وَيَجْعَلَهُ أَبَا يَذْكُرُ فِيهِ أَمْرِي وَيُصِفُ حَالِي وَلَا يَدْعُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ
فِي ذَلِكَ أَقْصَى مَا يَهْدُرُ عَلَيْهِ وَيَأْمُرُهُ إِذَا اسْتَمْتُمْ أَنْ يَجْعَلَهُ أَوَّلَ
الْأَبْوَابِ الَّتِي تُقْرَأُ قَبْلَ بَابِ الْأَسَدِ وَالتَّوْرِ . فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا فَعَلَ

ذَلِكَ فَقَدْ بَلَغَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ الشَّرَفِ وَأَعْلَى الْمَرَاتِبِ وَأَبْقَى لَنَا
 مَا لَا يَزَالُ ذِكْرُهُ بَاقًا عَلَى الْأَبَدِ حَيْثُمَا قُرِئَ هَذَا الْكِتَابُ
 فَلَمَّا سَمِعَ كِسْرَى أَنْوِيرَوَانُ وَالْعُظَمَاءُ مَقَالَتَهُ وَمَا سَمِعَتْ إِلَيْهِ
 نَفْسُهُ مِنْ مَحَبَّةِ إِبْقَاءِ الذِّكْرِ وَاسْتَحْسَنُوا صِلَتَهُ وَأَخْتَارَهُ قَالَ كِسْرَى:
 حُبًّا وَكَرَامَةً لَكَ يَا بَرَزَوِيهَ إِنَّكَ لِأَهْلُ أَنْ تُسَعَّفَ بِمَحَاجَتِكَ فَمَا
 أَقَلَّ مَا قَنَعْتَ بِهِ وَأَيَسَرَهُ عِنْدَنَا وَإِنْ كَانَ خَطَرُهُ عِنْدَكَ عَظِيمًا:
 ثُمَّ أَقْبَلَ أَنْوِيرَوَانُ عَلَى وَزِيرِهِ بَرْزَجُمَهَرَ فَقَالَ لَهُ: قَدْ عَرَفْتَ مُنَاصَحَةَ
 بَرَزَوِيهِ لَنَا وَتَحَشُّسَهُ الْخَوَافِ وَالْمَهَالِكِ فِي مَا يُقَرِّبُهُ مِنَّا وَإِتْعَابَهُ
 بَدَنَهُ فِي مَا يَسْرُنَا وَمَا أَتَى بِهِ إِيَّاْنَا مِنَ الْمَعْرُوفِ وَمَا أَفَادَنَا اللَّهُ
 عَلَى يَدِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْأَدَبِ الْبَاقِي لَنَا فَخَرُّهُ وَمَا عَرَضْنَا عَلَيْهِ مِنْ
 خَزَائِنِنَا لِنَجْزِيَهُ بِذَلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ. فَلَمْ يَلْ نَفْسُهُ إِلَى شَيْءٍ
 مِنْ ذَلِكَ وَكَانَ بُغْيَتُهُ وَطَلِبَتُهُ مِنَّا أَمْرًا يَسِيرًا رَأَاهُ هُوَ الثَّوَابَ مِنَّا لَهُ
 وَالْكَرَامَةَ الْجَلِيلَةَ عِنْدَهُ. فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَتَّكِلَ فِي ذَلِكَ وَتُسَعِّفَهُ
 بِمَحَاجَتِهِ وَطَلِبَتِهِ. وَأَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَسْرُنِي وَلَا تَدْعُ شَيْئًا مِنْ
 الْإِجْتِهَادِ وَالْمُبَالَغَةِ إِلَّا بَلَقْتَهُ وَإِنْ تَأَلَّكَ فِيهِ مَشَقَّةٌ وَهُوَ أَنْ تُكْتُبَ بَابًا
 مُضَارِعًا لِيَلْتَكِ الْأَبْوَابُ الَّتِي فِي الْكِتَابِ وَتَذْكُرَ فِيهِ فَضْلَ بَرَزَوِيهِ
 وَكَيْفَ كَانَ أَتْبَدَاهُ أَمْرُهُ وَشَأْنُهُ وَتَنْسُبُهُ إِلَيْهِ وَإِلَى حَسَبِهِ وَصِنَاعَتِهِ
 وَتَذْكُرَ فِيهِ بَغْيَتَهُ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ فِي حَاجَتِنَا وَمَا أَفَدَنَا عَلَى يَدِهِ مِنْ
 هُنَاكَ وَشَرَفَنَا بِهِ وَفَضَّلَنَا عَلَى غَيْرِنَا وَكَيْفَ كَانَ حَالُ بَرَزَوِيهِ وَقَدُومُهُ

مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ . فَهَلْ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ التَّقْرِيطِ وَالْإِطَابِ فِي
مَذْهِهِ وَبَالِغٍ فِي ذَلِكَ أَفْضَلَ الْمُبَالَغَةِ وَاجْتِهَدَ فِي ذَلِكَ اجْتِهَادًا
يَسْرُ بَرْزَوِيهِ وَأَهْلَ الْمُلْكَةِ . فَإِنَّ بَرْزَوِيهِ أَهْلٌ لِذَلِكَ مِنِّي وَمِنْ
جَمِيعِ أَهْلِ الْمُلْكَةِ وَمِنْكَ أَيْضًا لِحَقِّكَ لِلْعُلُومِ . وَاجْتِهَدَ أَنْ يَكُونَ
غَرَضُ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَى بَرْزَوِيهِ أَفْضَلَ مِنْ أَغْرَاضِ
تِلْكَ الْأَبْوَابِ عِنْدَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ وَأَشَدُّ مُشَاكَلَةً لِحَالِ هَذَا الْكِتَابِ .
فَإِنَّكَ أَسْعَدُ النَّاسِ كُلِّهِمْ بِذَلِكَ لِاتِّفَادِكَ بِهِ وَاجْعَلْهُ أَوَّلَ
الْأَبْوَابِ . فَإِذَا أَنْتَ عَمِلْتَهُ وَوَضَعْتَهُ فِي مَوْضِعِهِ فَأَعْلِمْنِي لِاجْتِمَاعِ أَهْلِ
الْمُلْكَةِ وَتَقَرُّاهُ عَلَيْهِمْ فَيُظْهَرَ فَضْلُكَ وَاجْتِهَادُكَ فِي مُحَبَّتِنَا فَيَكُونَ
لَكَ بِذَلِكَ فَخْرٌ

فَلَمَّا سَمِعَ بَرْزَجَهُرُ مَقَالََةَ الْمَلِكِ خَرَّ لَهُ سَاجِدًا وَقَالَ : أَدَامَ اللَّهُ
لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْبَقَاءَ وَبَلَّغَكَ أَفْضَلَ مَنَازِلِ الصَّالِحِينَ فِي الْآخِرَةِ
وَالْأُولَى لَقَدْ شَرَّفْتَنِي بِذَلِكَ شَرَفًا بَاقِيًا إِلَى الْأَبَدِ . ثُمَّ خَرَجَ بَرْزَجَهُرُ
مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ فَوَصَفَ بَرْزَوِيهِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ دَفَعَهُ أَبَوَاهُ إِلَى
الْمُعَلِّمِ وَمَضِيهِ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ فِي طَلَبِ الْمَقَاقِيرِ وَالْأَذْوِيَةِ وَكَيْفَ
تَعَلَّمَ خُطُوطَهُمْ وَلُغَتَهُمْ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ أُنُوشِرَوَانُ إِلَى الْهِنْدِ فِي طَلَبِ
الْكِتَابِ وَلَمْ يَدَعْ مِنْ فَضَائِلِ بَرْزَوِيهِ وَحِكْمَتِهِ وَخَلَائِقِهِ وَمَذْهِبِهِ
أَنَرًا إِلَّا نَسَقَهُ وَأَتَى بِهِ بِأَجُودِ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّرْحِ . ثُمَّ أَعْلَمَ
الْمَلِكُ بِفِرَاقِهِ مِنْهُ . فَجَمَعَ أُنُوشِرَوَانُ أَشْرَافَ قَوْمِهِ وَأَهْلَ مَمْلَكَتِهِ

وَأَذْهَلَهُمْ إِلَيْهِ وَأَمَرَ يُزْجِمُهُ بِقِرَاءَةِ الْكِتَابِ وَرَزَوِيهِ فَأْتِمُ إِلَى
جَانِبِ يُزْجِمُهُ وَأَبْتَدَأُ بِوَصْفِ رَزَوِيهِ حَتَّى أَتْتَهُ إِلَى آخِرِهِ فَقَرِحَ
الْمَلِكُ بِمَا أَتَى بِهِ يُزْجِمُهُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ . ثُمَّ أَتْنِي الْمَلِكُ وَجَمِيعُ
مَنْ حَضَرَ عَلَى يُزْجِمُهُ وَشَكَرُوهُ وَمَدَحُوهُ وَأَمَرَ لَهُ الْمَلِكُ بِمَالِ حَزِيلِ
وَكُسُوفَةِ وَحُلِيِّ وَأَوَانٍ . فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا غَيْرَ كُسُوفَةٍ كَانَتْ
مِنْ ثِيَابِ الْمُلُوكِ . ثُمَّ شَكَرَ لَهُ ذَلِكَ رَزَوِيهِ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَيَدَهُ
وَأَقْبَلَ رَزَوِيهِ عَلَى الْمَلِكِ وَقَالَ : أَدَامَ اللَّهُ لَكَ الْمُلْكَ وَالسَّعَادَةَ فَقَدْ
بَلَّغْتَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ الشَّرَفِ بِمَا أَمَرْتَ بِهِ يُزْجِمُهُ مِنْ صَنْعَةٍ
الْكِتَابِ فِي أَمْرِي وَإِبْقَاءِ ذِكْرِي



نُحْبَةُ

مِنْ تَارِيخِ الْمُلُوكِ وَأَعْمَارِهِمْ

تَأْلِيفِ

أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدٍ بْنِ جَرِيرٍ بْنِ يَزِيدٍ الطَّبْرِيِّ

فِي انْتِصَاحِ السَّامِ

مَعْرَكَةُ الْوَأْقُوصَةِ

كُتِبَ إِلَى السَّرِيِّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُبَشَّرٍ وَسَهْلٍ وَأَبِي
عُثْمَانَ عَنْ خَالِدٍ وَعُبَادَةَ وَأَبِي حَارِثَةَ . قَالُوا : وَأَوْعَبَ الْقَوَادُ بِالنَّاسِ
بُنُوحَ الشَّامِ وَعِكْرِمَةَ رَدُّهُ لِلنَّاسِ وَبَلَغَ الرُّومَ ذَلِكَ فَكَتَبُوا إِلَى هِرَقْلَ
وَخَرَجَ هِرَقْلُ حَتَّى يَنْزِلَ بِحِمَصَ فَأَعَدَّ لَهُمُ الْجُنُودَ وَجَبَّى لَهُمُ الْعَسَاكِرَ
وَأَرَادَ اشْتِغَالَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ عَنْ بَعْضٍ لِكَثْرَةِ جُنْدِهِ وَفُضُولِ
رِجَالِهِ وَأَرْسَلَ إِلَى عَمْرِو أَخَاهُ تَذَارِقَ لِأَيِّهِ وَأُمِّهِ . فَخَرَجَ نَحْوَهُمْ
فِي تِسْعِينَ أَلْفًا وَبَعَثَ مَنْ يَسُوقُهُمْ حَتَّى زَلَّ صَاحِبُ السَّاقَةِ ثِنْتَهُ
حِلَقَ بِأَعْلَى فِلَسْطِينَ وَبَعَثَ جَرَجَةَ بْنَ نُودَرَا نَحْوَ يَزِيدَ بْنِ أَبِي
سَفِينٍ فَمَسْكَرَ بِأَزَارِهِ وَبَعَثَ الدَّرَاقِصَ فَاسْتَقْبَلَ شُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ
وَبَعَثَ الْقَيْقَارَ بْنَ نَسْطُوسَ فِي سِتِّينَ أَلْفًا نَحْوَ أَبِي عُبَيْدَةَ . فَهَابَهُمُ
الْمُسْلِمُونَ . وَجَمِيعُ فِرْقِ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدٌ وَعَشْرُونَ أَلْفًا سِوَى عِكْرِمَةَ
فِي سِتَّةِ آلَافٍ . فَقَرَعُوا جَمِيعًا بِالْكَتَبِ وَبِالرُّسُلِ إِلَى عَمْرِو أَنْ مَا

الرَّأْيُ . وَكَاتِبُهُمْ وَرَأْسَهُمْ أَنْ الرَّأْيُ الْأَجْتِمَاعُ وَذَلِكَ أَنْ مِثْلَنَا إِذَا
أَجْتَمَعْنَا لَمْ نُغَلِّبْ مِنْ قِلَّةٍ وَإِذَا نَحْنُ تَفَرَّقْنَا لَمْ يَبْقَ الرَّجُلُ مِنَّا فِي
عَدَدٍ يُفَرِّدُ فِيهِ لِأَحَدٍ مِمَّنْ اسْتَقْبَلَهُ . وَأَعَدَّ لَنَا لِكُلِّ طَائِفَةٍ مِنَّا جُنْدًا
فَاتَّعَدُوا أَلْيَرْمُوكَ لِيَجْتَمِعُوا بِهِ . وَقَدْ كُتِبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ يَمْنُلُ مَا
كَاتَبُوا بِهِ عُمَرَا فُطِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابُهُ يَمْنُلُ رَأْيَ عُمَرَا وَبَلَغَ ذَلِكَ
هَرَقْلَ فَكُتِبَ إِلَى بَطَارِقَتِهِ أَنْ أَجْتَمِعُوا لَهُمْ فَاتَّرَلُوا بِالرُّومِ مَنَزِلًا
وَاسِعَ الْعَطَنِ شَاسِعَ الْمَطَرِ ضَيْقَ الْمُهْرَبِ . وَعَلَى النَّاسِ التَّذَارِقُ
وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ جَرَجَةٌ وَعَلَى مُجَنَّبَتَيْهِ بَاهَانُ وَالْدَّرَاقِصُ وَعَلَى الْحَرْبِ
قَيْقَارٌ وَقَالَ أَبْشِرُوا فَإِنَّ بَاهَانَ فِي الْإِثْرِ مُبَدًّا لَكُمْ . فَفَعَلُوا فَتَزَلُّوا
الْوَأْقُوصَةَ وَهُوَ عَلَى ضَفَةِ أَلْيَرْمُوكَ وَصَارَ الْوَادِي خَنْدَقًا لَهُمْ وَهُوَ
لَهُمْ لَا يُدْرِكُ . وَإِنَّمَا أَرَادَ بَاهَانُ وَأَصْحَابُهُ أَنْ يَسْتَشْبِتَ الرُّومُ
وَيَأْتِسُوا بِالْمُسْلِمِينَ وَتَرْجِعَ إِلَيْهِمْ أَفْنَدَتُهُمْ عَنْ طَيْرَتِهَا . وَاتَّقَلَ
الْمُسْلِمُونَ عَنْ عَسْكَرِهِمُ الَّذِي أَجْتَمَعُوا فِيهِ فَتَزَلُّوا عَلَيْهِمْ بِحَذَائِهِمْ
عَلَى طَرِيقِهِمْ وَلَيْسَ لِلرُّومِ طَرِيقٌ إِلَّا عَلَيْهِمْ . فَقَالَ عُمَرَا: أَيُّهَا النَّاسُ
أَبْشِرُوا حُصِرَتِ الرُّومُ وَاللَّهُ وَقَلَّ جَاءَ مَحْصُورٌ بِخَيْرٍ . فَأَقَامُوا بِأَزَائِهِمْ
وَعَلَى طَرِيقِهِمْ وَخَرَجَهُمْ صَفَرًا مِنْ سَنَةِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَشَهْرِي رَجَبٍ
لَا يَقْدِرُونَ مِنَ الرُّومِ عَلَى شَيْءٍ وَلَا يَخْلُصُونَ إِلَيْهِمْ . وَاللَّهَبُ وَهُوَ
الْوَأْقُوصَةُ مِنْ وَرَائِهِمْ وَالْخَنْدَقُ مِنْ أَمَامِهِمْ . وَلَا يَخْرُجُونَ خُرْجَةً
إِلَّا أُدِيلَ مِنْهُمْ الْمُسْلِمُونَ . حَتَّى إِذَا سَلَّحُوا شَهْرَ رَجَبٍ الْأَوَّلَ وَقَدِ

أَسْتَمَدُوا أَبَا بَكْرٍ وَأَعْلَمُوهُ الشَّانَ فِي صَفَرٍ . فَكَتَبَ إِلَى خَالِدٍ لِيَلْحَقَ بِهِمْ وَأَمَرَهُ أَنْ يُخْلَفَ عَلَى الْعِرَاقِ الْمُشْتَى فَوَافَاهُمْ فِي رَبِيعِ الْآخِرِ كَتَبَ إِلَى السَّرِيِّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ وَعَمْرٍو وَالْمُهَلَّبِ قَالُوا : وَلَمَّا نَزَلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَرْمُوكَ وَأَسْتَمَدُوا أَبَا بَكْرٍ قَالَ خَالِدٌ أَقْوَى لَهَا . فَبَيْتَ إِلَيْهِ وَهُوَ بِالْعِرَاقِ وَعَزَمَ عَلَيْهِ وَأَسْتَحْتَمَهُ فِي السَّيْرِ فَتَفَذَّ خَالِدٌ لِذَلِكَ فَطَلَعَ عَلَيْهِمْ خَالِدٌ وَطَلَعَ بَاهَانُ عَلَى الرُّومِ وَقَدْ قَدَّمَ قُدَامَهُ الشَّمَامِسَةَ وَالرَّهْبَانَ وَالْقَيْسِيَّيْنَ يُغِيرُونَهُمْ وَيُحْضِضُونَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ . وَوَافَقَ قُدُومُ خَالِدٍ قُدُومُ بَاهَانَ فَخَرَجَ بِهِمْ بَاهَانُ كَأَلْفَتَدِيرٍ فَوَلَّى خَالِدٌ قِتَالَهُ وَقَاتَلَ الْأَمْرَاءَ مِنْ بَاهَانِهِمْ فَهَزِمَ بَاهَانُ وَتَتَابَعَ الرُّومُ عَلَى الْهَزِيمَةِ فَافْتَحُوا خَنْدَقَهُمْ . وَتَيَمَّنتِ الرُّومُ بِبَاهَانَ وَفَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِخَالِدٍ وَحَرَدَ الْمُسْلِمُونَ وَحَرَدَ الرُّومُ وَهُمْ أَرْبَعُونَ وَمِائَتًا أَلْفٍ مِنْهُمْ ثَمَانُونَ أَلْفَ مُقَيَّدٍ وَأَرْبَعُونَ أَلْفَ مُسَلَّسٍ لِلْمَوْتِ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا مَرْبُطُونَ بِالْعِمَالِمِ وَثَمَانُونَ أَلْفَ رَاجِلٍ وَالْمُسْلِمُونَ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا مِمَّنْ كَانَ مُقِيمًا . إِلَى أَنْ قَدِمَ عَلَيْهِمْ خَالِدٌ فِي تِسْعَةِ آلَافٍ فَصَارُوا سِتَّةً وَثَلَاثِينَ أَلْفًا . وَمَرَضَ أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي جُمَادَى الْأُولَى وَتُوفِيَ لِلنِّصْفِ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ قَبْلَ أَنْ تَفْتَحَ بَعَثَرِ لَيَالٍ

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ قَدْ سَمِيَ لِكُلِّ أَمِيرٍ مِنْ أَمْرَاءِ أَشْجَامِ كُورَةَ . فَسَمِيَ لِأَبِي عُيَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَرَّاحِ خِمَصَ .

وَلِيزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ دِمَشْقَ . وَلِشُرْحَيْلَ بْنِ حَسَنَةَ الْأَزْدُونَ .
وَلِعَمْرُو بْنِ الْعَاصِ وَلِعَلْقَمَةَ بْنِ مَخْصَنٍ فَلِسُطَيْنَ . فَلَمَّا فَرَّغَا مِنْهَا نَزَلَ
عَلْقَمَةُ وَسَارَ إِلَى مِصْرَ . فَلَمَّا شَارَفُوا الشَّامَ دَهَمَ كُلُّ أَمِيرٍ مِنْهُمْ
قَوْمٌ كَثِيرٌ فَاجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يَجْتَمِعُوا بِمَكَانٍ وَاحِدٍ وَأَنْ يَلْقُوا جَمَعَ
الرُّومِ بِجَمْعِ الْمُسْلِمِينَ

مُرُورُ خَالِدٍ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى الشَّامِ

كَتَبَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى خَالِدٍ وَهُوَ بِالْحِيرَةِ بِأَمْرِهِ أَنْ يَدَّ أَهْلَ الشَّامِ
بِمَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْقُوَّةِ وَيَخْرُجَ فِيهِمْ وَيَسْتَخْلِفَ عَلَى ضَعْفَةِ النَّاسِ
رَجُلًا مِنْهُمْ . فَلَمَّا أَتَى خَالِدًا كَتَبَ أَبِي بَكْرٍ بِذَلِكَ قَالَ خَالِدٌ : هَذَا
عَمَلُ الْأَعْيَسِ بْنِ أُمِّ ثَمَلَةَ يَعْنِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ حَسَدَنِي أَنْ يَكُونَ
فَتَحُ الْعِرَاقَ عَلَى يَدَيَّ . فَسَارَ خَالِدٌ بِأَهْلِ الْقُوَّةِ مِنَ النَّاسِ وَرَدَّ
الضُّعَفَاءَ وَالنِّسَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عُمَيْرَ بْنَ سَدِيدٍ الْأَنْصَارِيَّ
وَأَسْتَخْلَفَ خَالِدٌ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ بِالْعِرَاقِ مِنْ رَبِيعَةٍ وَغَيْرِهِمُ الْمُثَنَّى بْنُ
حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيَّ . ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلَ عَلَى عَيْنِ التَّمْرِ فَأَعَارَ عَلَى أَهْلِهَا
فَأَصَابَ مِنْهُمْ وَرَابِطَ حِصْنًا بِهَا فِيهِ مُقَاتِلَةٌ كَانَتْ كَسَرَى وَضَعَهُمْ فِيهِ
حَتَّى اسْتَنْزَلَهُمْ . فَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ وَسَبَى مِنْ عَيْنِ التَّمْرِ وَمِنْ أَبْنَاءِ
تِلْكَ الرِّابِطَةِ سَبَايَا كَثِيرَةً فَبَعَثَ بِهَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ . فَكَانَ مِنْ تِلْكَ
السَّبَايَا أَبُو عَمْرَةَ مَوْلَى شَبَّانَ وَهُوَ أَبُو عَبْدِ الْأَعْلَى ابْنُ أَبِي عَمْرَةَ
وَعُمَيْدَةُ مَوْلَى الْمُعَنَّى مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ بَنِي زُرَيْفٍ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ

مَوْلَى زَهْرَةَ وَخَيْرَ مَوْلَى أَبِي دَاوُدَ الْأَنْصَارِيِّ ثُمَّ أَحَدُ بَنِي مَازِنِ
 بْنِ النَّجَّارِ وَيَسَارُ وَهُوَ جَدُّ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ مَوْلَى قَيْسِ بْنِ مِجَزَةَ
 بْنِ الْمُطَّلَبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَأَفْلَحَ مَوْلَى أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ ثُمَّ
 أَحَدُ بَنِي مَلِكِ بْنِ النَّجَّارِ وَحَمْرَانُ بْنُ أَبَانَ مَوْلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ .
 وَقَتَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ هِلَالَ بْنَ عُقْبَةَ بْنِ بَشِيرِ النَّبَرِيِّ وَصَلَبَهُ بِعَيْنِ
 الْقَمَرِ . ثُمَّ أَرَادَ السَّيْرَ مُفَوِّزًا مِنْ قُرَاقِرَ وَهُوَ مَاءٌ لِكَابٍ إِلَى سُوَى
 وَهُوَ مَاءٌ لِبَهْرَاءَ بَيْنَهُمَا خَمْسُ لَيَالٍ . فَلَمْ يَهْتِدِ خَالِدُ الطَّرِيقَ فَالْتَمَسَ
 دَلِيلًا فَدَلَّ عَلَى رَافِعِ بْنِ عِمِيرَةَ الطَّائِي فَقَالَ لَهُ خَالِدُ : اُنْطَلِقْ بِالنَّاسِ :
 فَقَالَ لَهُ رَافِعُ : إِنَّكَ لَنْ تَطِيقَ ذَلِكَ بِالْخَيْلِ وَالْأَثْقَالِ وَاللَّهِ إِنْ
 الرَّاكِبَ الْفَرْدَ لَيَخَافُهَا عَلَى نَفْسِهِ وَمَا يَسْلُكُهَا إِلَّا مُغَرَّرًا . إِنَّهَا لَخَمْسُ
 لَيَالٍ جِيَادٍ لَا يُصَابُ فِيهَا مَاءٌ مَعَ مَضَلَّتِهَا . فَقَالَ لَهُ خَالِدُ : وَنَجَّكَ إِنَّهُ
 وَاللَّهِ إِنْ لِي بَدْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِنَّهُ قَدْ أَتَيْتَنِي مِنَ الْأَمِيرِ عَزْمَةٌ بِذَلِكَ
 فَرُبَّ أَمْرِكَ . قَالَ اسْتَكَثِرُوا مِنَ الْمَاءِ . مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَصِرَّ
 أُذُنَ نَافِثَةٍ عَلَى مَاءٍ فَلْيَفْعَلْ فَإِنَّهَا الْمَهَالِكُ إِلَّا مَا دَفَعَ اللَّهُ . وَأَقْبَنِي
 عَشْرِينَ جَزُورًا عِظَامًا سِمَانًا مَشَارِفَ . فَأَتَاهُ بِهِنَّ خَالِدٌ فَعَمَدَ إِلَيْهِنَّ
 رَافِعُ فَطَمَأَهُنَّ حَتَّى إِذَا أَجْهَدُهُنَّ عَطَشًا أَوْرَدَهُنَّ فَشَرِبْنَ حَتَّى إِذَا
 تَمَلَّاتْ عَمَدَ إِلَيْهِنَّ فَقَطَعَ مَشَاوِرَهُنَّ ثُمَّ كَعَمَهُنَّ لِيَلَّا يَجْتَرْنَ . ثُمَّ
 أَخْلَى أَدْبَارَهُنَّ . ثُمَّ قَالَ لِحَالِدِ بْنِ سِرٍّ فَسَارَ خَالِدٌ مَعَهُ مُغْدًا بِالْخَيْلِ
 وَالْأَثْقَالِ . فَكَلَّمَا نَزَلَ مَنْزِلًا أَقْطَأَ أَرْبَعًا مِنْ تِلْكَ الشَّوَارِفِ فَأَخَذَ

مَا فِي اَكْرَاسِهَا فَسَقَاهُ الْحَمْلُ . ثُمَّ شَرِبَ النَّاسُ مِمَّا حَمَلُوا مَعَهُمْ مِنْ
 الْمَاءِ . فَلَمَّا خَشِيَ خَالِدٌ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنَ الْمَقَاذَةِ قَالَ لِرَافِعِ
 بْنِ عِمْرَةَ وَهُوَ أَرْمَدُ : وَيَحْكُ يَا رَافِعُ مَا عِنْدَكَ : قَالَ أَذْرَكْتُ الرِّيَّ
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ . فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْعَلَمَيْنِ قَالَ لِلنَّاسِ : أَنْظَرُوا هَلْ تَرَوْنَ
 شَجِيرَةً مِنْ عَوْسَجٍ كَقَعْدَةِ الرَّجُلِ : فَقَالُوا مَا تَرَاهَا : فَقَالَ : إِنَّا لِلَّهِ
 وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . هَلَكْتُمْ وَاللَّهِ إِذَا وَهَلَكْتُ . أَنْظَرُوا . فَطَلَبُوهَا
 فَوَجَدُوهَا قُطِعَتْ وَبَقِيَ مِنْهَا بَقِيَّةٌ . فَلَمَّا رَأَاهَا الْمُسْلِمُونَ كَبَرُوا
 وَكَبَّرَ رَافِعُ بْنُ عِمْرَةَ ثُمَّ قَالَ : أَخْفَرُوا فِي أَصْلَاهَا : فَخَفَرُوا فَاسْتَخْرِجُوا
 عَيْنًا فَشَرَبُوا حَتَّى رَوِيَ النَّاسُ فَأَتَتْصَلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ لِحَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ
 الْمَنَازِلُ فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا وَرَدَتْ هَذَا الْمَاءُ قَطُّ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَرَدَّتْهُ
 مَعَ أَبِي وَأَنَا غُلَامٌ . فَقَالَ شَاعِرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

لِلَّهِ عَيْنَا رَافِعٌ أَنَّى أَهْتَدَى فَوَزَّ مِنْ قُرَاقِرٍ إِلَى سُوَى
 خِمْسًا إِذَا مَا سَارَهُ الْجَيْشُ بَكَّى مَا سَارَهَا قَبْلَكَ إِنْسِي يُرَى
 فَلَمَّا أَتَاهُ خَالِدٌ إِلَى سُوَى أَغَارَ عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ بِهِرَاءُ قَبْلَ
 الصُّبْحِ وَنَاسٌ مِنْهُمْ يَشْرَبُونَ خَمْرًا لَهُمْ فِي جَفَنَةٍ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَيْهَا
 وَمِنْهُمْ يَقُولُ

أَلَا عَلَّلَانِي قَبْلَ جَيْشِ أَبِي بَكْرٍ لَعَلَّ مَنَايَنَا قَرِيبٌ وَمَا نَذْرِي
 أَلَا عَلَّلَانِي بِإِزْجَاجٍ وَكَرَرَا عَلَيَّ كُنَيْتَ اللَّوْنِ صَافِيَةً تَجْرِي
 أَلَا عَلَّلَانِي مِنْ سُلَاقَةِ قَهْوَةٍ نَسَلَى هُمُومُ النَّفْسِ مِنْ جَيْدِ الْحَمْرِ

أَظُنُّ خِيُولَ الْمُسْلِمِينَ وَحَالِدًا سَتَطْرُقُكُمْ قَبْلَ الصَّبَاحِ مِنَ الْبَشَرِ
فَهَلْ لَكُمْ فِي السَّيْرِ قَبْلَ قِتَالِهِمْ وَقَبْلَ خُرُوجِ الْمُعْصِرَاتِ مِنَ الْحَذَرِ
قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ فَيَزْعُمُونَ أَنَّ مُغَنِيَهُمْ ذَلِكَ قُتِلَ تَحْتَ الْغَارَةِ
فَسَالَ دَمُهُ فِي تِلْكَ الْجَفْنَةِ . ثُمَّ سَارَ عَلَى وَجْهِهِ ذَلِكَ حَتَّى أَغَارَ
عَلَى غَسَّانَ بَمَنْزِلٍ رَاهِطٍ ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلَ عَلَى قِتَاةٍ بُصْرَى وَعَلَيْهَا
أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ وَشُرْحَيْلُ بْنُ حَسَنَةَ وَزَيْدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ
فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهَا فَرَابَطُوا حَتَّى صَالَحَتْ بُصْرَى عَلَى الْجُزْيَةِ وَفَتَحَهَا اللَّهُ
عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَكَانَتْ أَوَّلَ مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ الشَّامِ فَتَحَتْ فِي
خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ

مَعْرَكَةُ أَجْنَادِينَ

ثُمَّ سَارُوا جَمِيعًا إِلَى فِلَسْطِينَ مَدَدًا لِعَمْرُو بْنِ الْعَاصِ وَعَمَرُو
مُقِيمٌ بِالْمَعْرَبَاتِ مِنْ غَوَرِ فِلَسْطِينَ وَتَمَيَّتِ الرُّومُ بِهِمْ فَأَنْكَشَفُوا عَنْ
حُلُقٍ إِلَى أَجْنَادِينَ وَعَلَيْهِمْ تَذَارِقُ أَخُو هِرْقَلٍ لِأَيِّهِ وَأُمِّهِ . وَأَجْنَادِينَ
بَلَدٌ بَيْنَ الرَّمْلَةِ وَبَيْتِ حَبْرِينَ مِنْ أَرْضِ فِلَسْطِينَ . وَسَارَ عَمْرُو بْنُ
الْعَاصِ حِينَ سَمِعَ بِأَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجُرَّاحِ وَشُرْحَيْلَ بْنِ حَسَنَةَ
وَزَيْدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ حَتَّى لَقِيَهُمْ فَاجْتَمَعُوا بِأَجْنَادِينَ حَتَّى عَسَكُرُوا
عَلَيْهِمْ

حَدَّثَنَا أَبُو حُمَيْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا سَلَمَةُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ
مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرٍ يَعْنِي ابْنَ الزُّبَيْرِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّهُ قَالَ :

كَانَ عَلَى الرُّومِ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ الْقَنْقَلَارُ كَانَ هِرَقْلُ اسْتَحْلَفَهُمْ
وَأَسْتَحْلَفَهُ عَلَى أَمْرِ الشَّامِ حِينَ سَارَ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَإِلَيْهِ أَنْصَرَفَ
تَذَارِقُ بَيْنَ مَعَهُ مِنَ الرُّومِ . فَأَمَّا عُلَمَاءُ الشَّامِ فَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ كَانَ
عَلَى الرُّومِ تَذَارِقُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . حَدَّثَنَا أَبُو حَمْدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا سَلَمَةُ
عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عُرْوَةَ قَالَ : لَمَّا
تَدَانَى الْعَسْكَرَانِ بَعَثَ الْقَنْقَلَارُ رَجُلًا غَرِيبًا فَقَالَ فُحِّدْتُ أَنْ ذَلِكَ
الرَّجُلُ رَجُلٌ مِنْ قُضَاعَةَ مِنْ بَنِي حَيْدَانَ يُقَالُ لَهُ أَبُو هَزَارِقَ
فَقَالَ : أَذْخُلُ فِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ وَأَقِمُ فِيهِمْ يَوْمًا وَلَيْلَةً ثُمَّ أَتَيْتَنِي
بِخَبَرِهِمْ . قَالَ فَدَخَلَ فِي النَّاسِ رَجُلٌ عَرَبِيٌّ لَا يُنْكِرُ وَأَقَامَ فِيهِمْ
يَوْمًا وَلَيْلَةً ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ : مَا وَرَاءَكَ . قَالَ : بِاللَّيْلِ رُهْبَانٌ وَبِالنَّهَارِ
فُرْسَانٌ وَلَوْ سَرَقَ أَبُو مَلِكِهِمْ قَطَعْتَ يَدَهُ وَلَوْ زَنَى رُجِمَ لِإِقَامَةِ
الْحَقِّ فِيهِمْ . قَالَ الْقَنْقَلَارُ : لَئِنْ كُنْتُ صَدَقْتَنِي لَبَطَنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ
مِنْ لِقَاءِ هَؤُلَاءِ عَلَى ظُهُورِهَا وَلَوَدِدْتُ أَنَّ حَظِّي مِنَ اللَّهِ أَنْ
يُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَلَا يَنْصُرَنِي عَلَيْهِمْ وَلَا يَنْصُرَهُمْ عَلَيَّ . قَالَ : ثُمَّ
تَرَاخَفَ النَّاسُ فَاقْتَتَلُوا . فَلَمَّا رَأَى الْقَنْقَلَارُ مَا رَأَى مِنْ قِتَالِ
الْمُسْلِمِينَ قَالَ لِلرُّومِ لُفُّوا رَأْسِي بِثَوْبٍ . قَالُوا لَهُ لِمَ . قَالَ يَوْمَ الْبُوسِ
لَا أَحِبُّ أَنْ أَرَاهُ مَا رَأَيْتُ فِي الدُّنْيَا أَشَدَّ مِنْ هَذَا الْيَوْمِ . قَالَ :
فَاحْتَرَّ الْمُسْلِمُونَ رَأْسَهُ وَإِنَّهُ لَمُكْفً . وَكَانَتْ وَقْعَةُ أَجْنَادِنِي فِي
سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةِ اللَّيْلَتَيْنِ بَقِيَّتَا مِنْ جُمَادَى الْأُولَى وَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ مِنْ

الْمُسْلِمِينَ جَمَاعَةً مِنْهُمْ سَلَمَةُ بْنُ هِشَامٍ بْنِ الْمَغِيرَةِ وَهَبَارُ بْنُ الْأَسْوَدِ
 بْنِ عَبْدِ الْأَسَدِ وَنُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّحَامُ وَهِشَامُ بْنُ الْعَاصِ بْنِ
 وَائِلٍ وَجَمَاعَةٌ أُخَرُ مِنْ قُرَيْشٍ . قَالَ : وَلَمْ يُسَمَّ النَّاسُ مِنَ الْأَنْصَارِ
 أَحَدًا أُصِيبَ بِهَا . وَفِيهَا تَوْفِي أَبُو بَكْرٍ لِثَمَانَ لَيْالٍ بِقَيْنَ أَوْ سَبْعَ
 بِقَيْنَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ

فِي افْتِتَاحِ دِمَشْقَ

رَجَعَ الْحَدِيثُ إِلَى حَدِيثِ سَيْفٍ عَنْ أَبِي عُمَرَ عَنْ خَالِدٍ وَأَبِي
 عُبَادَةَ قَالَا : وَلَمَّا جَاءَ عُمَرُ الْكِتَابُ عَنْ أَبِي عُيَيْدَةَ بِالَّذِي يَنْبَغِي أَنْ
 يَبْدَأَ بِهِ كَتَبَ إِلَيْهِ . أَمَّا بَعْدُ فَأَبْدَوْا بِدِمَشْقَ وَأَنهَدُوا فَإِنَّهَا حِصْنُ
 الشَّامِ وَبَيْتُ مَمْلَكَتِهِمْ وَأَشْغَلُوا عَنْكُمْ أَهْلَ فُحْلٍ بِخَيْلٍ تَكُونُ
 بِأَزَانِهِمْ فِي نُحُورِهِمْ . وَأَهْلَ فِلَسْطِينَ وَأَهْلَ حِمَصَ . فَإِنْ فَتَحَهَا اللَّهُ
 قَبْلَ دِمَشْقَ فَذَلِكَ الَّذِي يَجِبُ وَإِنْ تَأَخَّرَ فَتَحَهَا حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ
 دِمَشْقَ فَلْيَنْزِلْ بِدِمَشْقَ مِنْ يَمِينِكَ بِهَا وَدَعُوهَا وَأَنْطَلِقِ أَنْتَ وَسَائِرُ
 الْأُمَرَاءِ حَتَّى تَبْغُوا عَلَى فُحْلٍ . فَإِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَنْصَرِفْ أَنْتَ وَخَالِدٌ
 إِلَى حِمَصَ وَدَعِ شُرَحْبِيلَ وَعُمَرَ وَخَالِهُمَا بِالْأَزْدِ وَفِلَسْطِينَ . وَأَمِيرُ
 كُلِّ بَلَدٍ وَجُنْدٍ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يُخْرِجَ مِنْ إِمَارَتِهِمْ . فَسَرَحَ أَبُو عُيَيْدَةَ
 إِلَى فُحْلٍ أَحَدَ عَشَرَ قَوَادًا أَبَا الْأَعْوَرِ السَّلْمِيَّ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ
 عَامِرٍ الْحَرْشِيَّ وَعَامِرَ بْنَ حِثْمَةَ وَعُمَرَو بْنَ كَلْبٍ مِنْ يَحْضَبَ وَعُمَارَةَ بْنَ
 الصَّعِقِ بْنِ كَعْبٍ وَصَيْفِيَّ بْنَ عَلِيَّةَ بْنِ شَامِلٍ . وَعُمَرَو بْنَ فُلَانٍ

وَالْحَبِيبَ بْنَ عَمْرِو وَوَلِيدَةَ بْنَ عَامِرِ بْنِ خُثَيْمَةَ وَبِشَرَ بْنَ عِصْمَةَ وَعُمَادَةَ
 بْنَ عَتِيشٍ قَائِدَ النَّاسِ . وَمَعَ كُلِّ رَجُلٍ قُوَادٌ وَكَانَتْ الرُّؤَسَاءُ
 تَكُونُ مِنَ الصَّحَابَةِ حَتَّى لَا يَجِدُوا مَنْ يَحْتَمِلُ ذَلِكَ . فَسَارُوا مِنَ
 الصَّفَرِ حَتَّى زَلُّوا قَرِيبًا مِنْ فُحْلٍ . فَلَمَّا رَأَتْ الرُّومُ أَنَّ الْجُنُودَ
 تُرِيدُهُمْ بَشُّوا الْمِيَاهَ حَوْلَ فُحْلٍ فَأَرَدَتِ الْأَرْضُ ثُمَّ وَجِأتْ وَأَغْتَمَّ
 الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذَلِكَ فَحَبَسُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِهَا ثَلَاثِينَ أَلْفَ فَارِسٍ
 وَكَانَ أَوَّلُ مَخْصُورٍ بِالشَّامِ أَهْلُ فُحْلٍ ثُمَّ أَهْلُ دِمَشْقَ

وَبِشُّوا الْأَمْرَاءَ وَبَثَّ أَبُو عُيَيْدَةَ ذَا الْكَلَاعِ حَتَّى كَانَ بَيْنَ
 دِمَشْقَ وَخِمَصَ رِذَاءً . وَبَثَّ عَلْقَمَةُ بْنُ حَكِيمٍ وَمَسْرُوقًا وَكَانَا بَيْنَ
 دِمَشْقَ وَفِلَسْطِينَ وَالْأَمِيرَ يَزِيدَ فَفَصَلَ وَفَصَلَ بِأَبِي عُيَيْدَةَ مِنَ
 الْمَرْجِ وَقَدِمَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَعَلَى مُجَنَّبِيهِ عَمْرُو وَأَبُو عُيَيْدَةَ . وَعَلَى
 الْحَيْلِ عِيَاضُ وَعَلَى الرَّجُلِ شَرْحِيلُ . فَقَدِمُوا عَلَى دِمَشْقَ وَعَلَيْهِمْ
 نَسْطَاسُ بْنُ نِسْطُوسَ فَحَصَرُوا أَهْلَ دِمَشْقَ وَزَلُّوا حَوْلَئِهَا . فَكَانَ
 أَبُو عُيَيْدَةَ عَلَى نَاحِيَةِ وَعَمْرُو عَلَى نَاحِيَةِ وَيَزِيدُ عَلَى نَاحِيَةِ وَهَرَقْلُ
 يَوْمَئِذٍ يَحْمِصُ وَمَدِينَةُ خِمَصَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ . فَحَاصَرُوا أَهْلَ دِمَشْقَ
 نَحْوًا مِنْ سَبْعِينَ لَيْلَةً حِصَارًا شَدِيدًا بِالزُّحُوفِ وَالْثَرَايِ وَالْجَانِيقِ
 وَهُمْ مُقْتَصِمُونَ بِالْمَدِينَةِ يَرْجُونَ الْفَيْثَ وَهَرَقْلُ مِنْهُمْ قَرِيبٌ . وَقَدْ
 اسْتَمَدُّهُ وَذُو الْكَلَاعِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ خِمَصَ عَلَى رَأْسِ لَيْلَةٍ
 مِنْ دِمَشْقَ كَأَنَّهُ يُرِيدُ خِمَصَ وَجَاءَتْ خِيُولُ هَرَقْلَ مُغِيثَةً لِأَهْلِ

دِمَشْقَ فَأُشْجِبَهَا الْخِيُولُ الَّتِي مَعَ ذِي الْكُلَاعِ وَشَفَلَتْهَا عَنِ النَّاسِ .
فَارْزَوْا وَزَلُّوا بِإِزَارِيهِ وَأَهْلُ دِمَشْقَ إِلَى حَالِهِمْ . فَلَمَّا أَتَيْنَ أَهْلُ
دِمَشْقَ أَنَّ الْإِمْدَادَ لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا وَمَهَّنُوا وَأَبْلَسُوا وَأَزْدَادَ
الْمُسْلِمُونَ فِيهِمْ طَمَعًا . وَقَدْ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا كَالْفَارِزِيَّاتِ قَبْلَ ذَلِكَ
إِذَا هَجَمَ الْبَرْدُ قَهَلَ النَّاسُ فَسَقَطَ النُّجْمُ وَأَقْوَمَ مُقِيمُونَ

فَعِنْدَ ذَلِكَ انْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ وَنَدِمُوا عَلَى دُخُولِ دِمَشْقَ وَوَلَدَ
لِلْبَطْرِيقِ الَّذِي عَلَى أَهْلِ دِمَشْقَ مَوْلُودٌ فَصَنَعَ عَلَيْهِ فَأَكَلَ الْقَوْمُ
وَشَرِبُوا وَعَدَلُوا عَنْ مَوَاقِفِهِمْ وَلَا يَشْعُرُ بِذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خَالِدٍ فَإِنَّهُ كَانَ لَا يَنَامُ وَلَا يُنِيمُ وَلَا يَحْتَقِي عَلَيْهِ
مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ . عِيُونُهُ ذَاكِيَةٌ وَهُوَ مُعْنَى بِمَا يَلِيهِ . قَدْ اخْتَذَ
حِبَالًا كَهَيْئَةِ السَّلَالِيمِ وَأَوْهَاقًا . فَلَمَّا أَمْسَى مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ نَهَضَ
وَمِنْ مَعَهُ مِنْ جُنْدِهِ الَّذِينَ قَدِمَ بِهِمْ عَلَيْهِمْ وَتَقَدَّمَهُمْ هُوَ وَالْقَعْقَاعُ
بْنُ عَمْرِو وَمَذْعُورُ بْنُ عَدِيٍّ وَأَمْثَالُهُ مِنْ أَصْحَابِهِ فِي أَوَّلِ يَوْمِهِ
وَقَالُوا : إِذَا سَمِعْتُمْ تَكْبِيرَنَا عَلَى السُّورِ فَارْقُوا إِلَيْنَا وَأَنْهَدُوا إِلَى الْبَابِ :
فَلَمَّا أَنْتَهَى إِلَى الْبَابِ الَّذِي يَلِيهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ الْمُتَقَدِّمُونَ رَمَوْا
بِالْحِجَالِ الشَّرَفَ وَعَلَى ظُهُورِهِمُ الْقِرْبُ الَّتِي قَطَعُوا بِهَا خَنَدَقَهُمْ .
فَلَمَّا ثَبَتَ لَهُمْ وَهَقَّانِ تَسَلَّقَ فِيهِمَا الْقَعْقَاعُ وَمَذْعُورُ . ثُمَّ لَمْ يَدْعَا
أَحْبُولَةً إِلَّا بَنَاتَهَا وَالْأَوْهَاقَ بِالشَّرَفِ . وَكَانَ الْمَكَانُ الَّذِي أَقْتَحَمُوا
مِنْهُ أَحْصَنَ مَكَانٍ يُحِيطُ بِدِمَشْقَ أَكْثَرَهُ مَاءً وَأَشَدَّهُ مَدْخَلًا وَتَوَاقَفُوا

لِذَلِكَ فَلَمْ يَبْقَ يَمْنُ دَخَلَ مَعَهُ إِلَّا رَقِيَّ أَوْ دَنَا مِنَ الْبَابِ حَتَّى إِذَا اسْتَوَوْا عَلَى السُّورِ حَدَرَ عَامَّةُ أَصْحَابِهِ وَأُنْحَدَرَ مَعَهُمْ وَخَلَفَ مَنْ يَخْبِي ذَلِكَ الْمَكَانَ لِمَنْ يَرْتَفِي . وَأَمَرَهُمْ بِالْتَّكْبِيرِ فَكَبَّرَ الَّذِينَ عَلَى رَأْسِ السُّورِ . فَهَذَا الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْبَابِ وَمَالَ إِلَى الْحَبَالِ بَشَرٌ كَثِيرٌ قَوَّثُوا فِيهَا وَأَنْتَهَى خَالِدٌ إِلَى مَنْ يَلِيهِ فَأَنَامَهُمْ وَأُنْحَدَرَ إِلَى الْبَابِ فَتَقَلَّبُوا الْبَوَابِينَ وَنَارَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَفَزَعَ سَائِرَ النَّاسِ . فَأَخَذُوا مَوَاقِفَهُمْ وَلَا يَذَرُونَ مَا الشَّأْنُ وَتَشَاغَلَ أَهْلُ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِمَا بَيْنَهُمْ . وَقَطَعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَمَنْ مَعَهُ أَغْلَاقَ الْبَابِ بِالسُّيُوفِ وَفَتَحُوا لِلْمُسْلِمِينَ وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ دَاخِلِهِ حَتَّى مَا بَقِيَ مِمَّا يَلِي بَابَ خَالِدٍ مُقَاتِلٌ إِلَّا أَنْيَمَ

وَلَمَّا شَدَّ خَالِدٌ عَلَى مَنْ يَلِيهِ وَبَلَغَ مِنْهُمْ الَّذِي أَرَادَ عَنُودَ وَارَرَ مَنْ أَفَاتَ إِلَى الْأَبْوَابِ الَّتِي تَلِي غَيْرَهُ . وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ دَعَوْهُمْ إِلَى الْمُنَازَرَةِ فَأَبَوْا وَأَتَمَدُّوا فَلَمْ تَفْجَأْهُمْ إِلَّا وَهُمْ يَبُوحُونَ لَهُمْ بِالصُّلْحِ . فَأَجَابُوهُمْ وَقِيلُوا مِنْهُمْ وَفَتَحُوا لَهُمُ الْأَبْوَابَ وَقَالُوا : ادْخُلُوا فَأَمْنُونَا مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَابِ : وَدَخَلَ أَهْلُ كُلِّ بَابٍ بِصُلْحٍ مِنْ يَلِيهِمْ وَدَخَلَ خَالِدٌ مِمَّا يَلِيهِ عَنُودَ . فَالتَقَى خَالِدٌ وَالْقَوَادِ فِي وَسْطِهَا هَذَا اسْتِعْرَاضًا وَاتِّهَابًا وَهَذَا صُلْحًا وَتَسْكِينًا فَأَجْرُوا نَاحِيَةَ خَالِدٍ مَجْرَى الصُّلْحِ . فَصَارَ صُلْحٌ وَكَانَ صُلْحٌ دِمَشْقَ عَلَى مُقَاتِمَةِ الدِّيَارِ وَالْأَعْمَارِ وَدِيَارٍ عَلَى كُلِّ رَأْسٍ . فَأَقْسَمُوا الْأَسْلَابَ فَكَانَ أَصْحَابُ

خَالِدٍ فِيهَا كَأَصْحَابِ سَائِرِ الْقَوَادِ وَجَرَى عَلَى الدِّيَارِ مَنْ بَقِيَ فِي
الْصَّلْحِ جَرِيبٌ مِنْ كُلِّ جَرِيبٍ أَرْضٍ وَوَقَفَ مَا كَانَ لِلْمُلُوكِ وَمَنْ
صَوَّبَ مَعَهُمْ فَيَتَا وَتَقَسَمُوا لِذِي الْكَلَّاعِ وَمَنْ مَعَهُ وَلَا يَبِي الْأَعْوَرِ
وَمَنْ مَعَهُ وَلِبَشِيرٍ وَمَنْ مَعَهُ وَبَعَثُوا بِالْبَشَارَةِ إِلَى عُمَرَ

فِي افْتِتَاحِ بِلَادِ فَارِسَ

وَقَعَةُ الْقَرْقِسِ

وَقَعَةُ الْقَرْقِسِ وَيُقَالُ لَهَا الْفَسُّ قِسُّ النَّاطِقِ وَيُقَالُ لَهَا الْجِسْرُ
وَيُقَالُ لَهَا الْمَرْوَحَةُ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ. كَتَبَ إِلَيَّ
السَّرِيِّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ وَزِيَادَ بِإِسْنَادِهِمْ
قَالُوا: وَلَمَّا رَجَعَ الْجَالِئُوسُ إِلَى رُسْتَمَ وَمَنْ أَفَلَتْ مِنْ جُنُودِهِ قَالَ
رُسْتَمُ: أَيُّ الْعَجَمِ أَشَدُّ عَلَى الْعَرَبِ فِيمَا تَرُونَ: قَالُوا: بِهِمْ جَاذُوِيهِ.
فَوَجَّهَهُ وَمَعَهُ فِيهِ وَرَدَّ الْجَالِئُوسَ مَعَهُ: فَقَالَ لَهُ: قَدِمَ الْجَالِئُوسَ
فَإِنْ عَادَ إِلَيْهَا فَأَضْرِبْ عُنُقَهُ. فَأَقْبَلَ بِهِمْ جَاذُوِيهِ وَمَعَهُ دِرْفَسُ
كَابِيَانٍ رَأَيْهِ كَسَرَى وَكَانَتْ مِنْ جُلُودِ الثَّمَرِ عَرْضَ ثَمَانِي أَذْرَعٍ
فِي طُولِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ ذِرَاعًا. فَأَقْبَلَ أَبُو عُبَيْدٍ حَتَّى نَزَلَ الْمَرْوَحَةَ
مَعَ الْبُرُوجِ وَالْمَقُولِ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِهِمْ جَاذُوِيهِ. إِمَّا أَنْ تَغِيرُوا
إِلَيْنَا وَتَدْعَكُمْ وَالْعُبُورَ. وَإِمَّا أَنْ تَدْعُونَا نَغِيرَ إِلَيْكُمْ: فَقَالَ النَّاسُ:
لَا تَغِيرُوا أَبَا عُبَيْدٍ إِنَّا نَنْهَاكَ عَنِ الْعُبُورِ. قَالُوا لَهُ: قُلْ لَهُمْ فَلْيَغِيرُوا
وَكَانَ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ سَلِيطٌ. فَلَمَّ أَبُو عُبَيْدٍ وَتَرَكَ الْأَيَّ

وَقَالَ: لَا يَكُونُوا أَجْرًا عَلَى الْمَوْتِ مِنَّا بَلْ نَعْبُرُ إِلَيْهِمْ . فَمَعَبَرُوا إِلَيْهِمْ
فِي مَنْزِلِ صَيْقِ الْمَطَرِ وَالْمَذْهَبِ فَأَقْتَلُوا يَوْمًا وَأَبُو عُبَيْدٍ فِيمَا بَيْنَ
الْبَيْتَةِ وَالْمَشْرِقَةِ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنَ آخِرِ النَّهَارِ وَاسْتَبْطَأَ رَجُلٌ مِنْ
ثَقِيفٍ الْفَتْحَ وَأَلْفَ بَيْنِ النَّاسِ فَتَصَافَحُوا بِالسُّيُوفِ

فَمَعَبَرُوا إِلَيْهِمْ وَعَصَلَتِ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا وَأَحْمَ النَّاسُ الْحَرْبَ .
فَلَمَّا نَظَرَتْ أُحْيُولُ إِلَى الْفِيلَةِ عَلَيْهَا التَّجَلُّوْا وَالتَّحِيلُ عَلَيْهَا اتَّجَافِفُ
وَالْفَرَسَانِ عَلَيْهِمُ الشَّعْرُ رَأَتْ شَيْئًا مُنْكَرًا لَمْ تَكُنْ تَرَى مِثْلَهُ . فَجَعَلَ
الْمُسْلِمُونَ إِذَا حَمَلُوا عَلَيْهِمْ لَمْ تُقَدِّمْ خِيُولَهُمْ . فَإِذَا حَمَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ
بِالْفِيلَةِ وَالْجَلَّاجِلِ فَرَقَتْ بَيْنَ كَرَادِيْسِهِمْ لَا تَقُومُ لَهَا التَّحِيلُ إِلَّا
عَلَى نِفَارٍ وَخَرَقَهُمُ الْفَرَسُ بِالنَّشَابِ وَعَضَّ الْمُسْلِمِينَ الْأَلْمُ وَجَعَلُوا
لَا يَصِلُونَ إِلَيْهِمْ . فَتَرَجَّلَ أَبُو عُبَيْدٍ وَتَرَجَّلَ النَّاسُ . ثُمَّ مَشَوْا إِلَيْهِمْ
فَصَافَحُوهُمْ بِالسُّيُوفِ . فَجَعَلَتِ الْفِيلَةُ لَا تَحِيلُ عَلَى جَمَاعَةٍ إِلَّا دَفَعَتْهُمْ .
فَنَادَى أَبُو عُبَيْدٍ : احْتَرِسُوا الْفِيلَةَ وَقَطِّعُوا بَطْنَهَا وَأَقْلِبُوا عَنْهَا
أَهْلَهَا : وَوَاتٍ هُوَ الْفِيلُ الْأَبْيَضُ . فَتَعَلَّقَ بِبَطْنِهِ فَقَطَّعَهُ وَقَطَّعَ
الَّذِينَ عَلَيْهِ وَفَعَلَ الْقَوْمُ مِثْلَ ذَلِكَ فَمَا تَرَكَوْا فِيلًا إِلَّا حَطُّوا أَهْلَهُ
وَقَتَلُوا أَصْحَابَهُ فَأَهْوَى الْفِيلُ لِأَبِي عُبَيْدٍ فَفَنَعَ مِشْفَرَهُ بِالسَّيْفِ فَأَتَقَاهُ
الْفِيلُ بِيَدِهِ فَوَقَعَ فَخَبَطَهُ الْفِيلُ وَقَامَ عَلَيْهِ . فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ النَّاسُ
تَحْتَ الْفِيلِ خَشَعَتِ أَنْفُسُهُمْ وَأَخَذَ اللِّوَاءُ الَّذِي كَانَ أَمْرُهُ بَعْدَهُ
فَقَاتَلَ الْفِيلَ حَتَّى تَنَحَّى عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ فَأَجْتَرَهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ فَاحْرَزُوا

وَسَلَّوْهُ وَتَجَرَّ ثُمَّ الْفِيلُ بِيَدِهِ ذَاتَ أَبِي عُيَيْدٍ وَخَبَطَهُ الْفِيلُ وَقَامَ عَلَيْهِ وَتَتَابَعَ سَبْعَةٌ مِنْ ثَقِيفٍ كُلُّهُمْ يَأْخُذُ اللَّوَاءَ وَيَقَاتِلُ حَتَّى يَمُوتَ .
ثُمَّ أَخَذَ اللَّوَاءَ الْمُشْتَى وَهَرَبَ النَّاسُ

فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَرْثَدٍ الثَّقَفِيَّ مَا لَقِيَ أَبُو عُيَيْدٍ وَخَلَقَاوَهُ
وَمَا يَصْنَعُ النَّاسُ بِأَدْرَهُمُ الْجِسْرَ فَقَطَعَهُ وَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ مُوتُوا
عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ أَمْرَاؤُكُمْ أَوْ تَذَفُّرُوا وَأَجَارَ الْمُشْرِكُونَ الْمُسْلِمِينَ
إِلَى الْجِسْرِ وَجَمَعَ نَاسٌ قَتَلُوا فِي الْفَرَاتِ فَفَرَّقَ مَنْ لَمْ يَضُرْ
وَأَسْرَعُوا فِيمَنْ صَبَرَ وَحَمَى الْمُشْتَى وَفُرْسَانُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ النَّاسَ
وَنَادَى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا دُونَكُمْ فَأَعْبِرُوا عَلَى هَيْبَتِكُمْ وَلَا تَدْهَشُوا خِفَانَا
لَنْ يُزَايِلَ حَتَّى تَرَكَكُمْ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ وَلَا تُعْرِفُوا أَنْفُسَكُمْ :
فَوَجَدُوا الْجِسْرَ وَعَبَدُ اللَّهِ بْنُ مَرْثَدٍ قَائِمٌ عَلَيْهِ يَمْنَعُ النَّاسَ مِنَ الْعُبُورِ
فَأَتَوْا بِهِ الْمُشْتَى فَضْرَبَهُ وَقَالَ مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ : قَالَ
لِيَقَاتِلُوا . وَنَادَى مَنْ عَبَرَ . فَجَاوُوا بِمُلُوجٍ فَضَمُّوا إِلَى السَّفِينَةِ الَّتِي
قَطَعُوا سَفَانَهَا وَعَبَرَ النَّاسُ . وَكَانَ آخِرُ مَنْ قُتِلَ عِنْدَ الْجِسْرِ سَلِيطُ
بَنِي قَيْسٍ . وَعَبَرَ الْمُشْتَى وَحَمَى جَانِبَهُ فَأَضْطَرَبَ عَسْكَرُهُ وَرَأَاهُمْ ذُو
الْجَانِبِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِمْ . فَلَمَّا عَبَرَ الْمُشْتَى وَحَمَى جَانِبَهُ أَرْفَضَ عَنْهُ
أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَبَقِيَ الْمُشْتَى فِي قَائِهِ . كَتَبَ إِلَيَّ السَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ
عَنْ سَيْفٍ عَنْ رَجُلٍ عَنْ أَبِي عَثْمَانَ التَّهْدِيَّ قَالَ : هَالِكٌ يَوْمَئِذٍ
أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَهَرَبَ أَلْفَانِ وَبَقِيَ ثَلَاثَةُ آلَافٍ .

وَقَعَةُ الْبُؤَيْبِ

كَتَبَ إِلَى السُّرِّيِّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَظَلْحَةَ
وَزِيَادَ بِإِسْنَادِهِمْ قَالُوا: وَبُعِثَ الْمُنْتَنَى بَعْدَ الْحِسْرِ فِيمَنْ يَلِيهِ مِنْ
الْمَدِينِ فَتَوَافُوا إِلَيْهِ فِي جَمْعٍ عَظِيمٍ وَبَلَغَ رُسْتَمُ وَالْفَيْرُزَانُ ذَلِكَ
وَأَتَتْهُمْ الْعُيُونُ بِهِ وَيَمَا يَنْتَظِرُونَ مِنَ الْإِمْدَادِ وَاجْتَمَعَا عَلَى أَنْ
يَبْعَثَا مِهْرَانَ الْأَمْدَانِيَّ حَتَّى يَرِيَا مِنْ رَأْيِهِمَا . فَخَرَجَ مِهْرَانُ فِي الْخَيُْولِ
وَأَمْرَاؤُهُ بِالْحِيرَةِ وَبَلَغَ أُنْتَى الْخَبَرِ وَهُوَ مُعْسَكِرٌ بِمَرْجِ السِّبَاخِ بَيْنَ
الْقَادِيسِيَّةِ وَخَفَانَ فِي الَّذِينَ أَمَدَوْهُ مِنَ الْعَرَبِ عَنْ خَبَرِ بَشِيرٍ وَكِثَانَةَ
وَبَشِيرٍ يَوْمَئِذٍ بِالْحِيرَةِ . فَاسْتَبْطَنَ فَرَاتٌ بَادِقَلِيَّ وَأَرْسَلَ إِلَى جَرِيرٍ
وَمَنْ مَعَهُ إِنَّا جَاءَنَا أَمْرٌ لَمْ نَسْتَطِعْ مَعَهُ الْفَيْامَ حَتَّى تَقْدُمُوا عَلَيْنَا
فَعَجَلُوا الْحَاقَ بِنَا وَمَوْعِدُكُمْ الْبُؤَيْبُ وَكَانَ جَرِيرٌ مُدْمِلًا لَهُ . وَكَتَبَ إِلَى
عِصْمَةَ وَمَنْ مَعَهُ وَكَانَ مُدْمِلًا لَهُ يَبْتُلُ ذَلِكَ وَإِلَى كُلِّ قَائِدٍ أَضْلَهُ يَبْتُلُ
ذَلِكَ وَخَذُوا عَلَى الْجُوفِ . فَسَلَكُوا عَلَى الْقَادِيسِيَّةِ وَالْجُوفِ وَمَنْ
سَلَكَ مَعَهُ طَرِيقَهُ فَأَنْتَهَوْا إِلَى الْمُنْتَنَى وَهُوَ عَلَى الْبُؤَيْبِ يَمَّا يَلِي مَوْضِعَ
الْكُوفَةِ الْيَوْمَ وَعَلَيْهِمُ الْمُنْتَنَى وَهُوَ بِإِزَاءِ مِهْرَانَ وَعَسْكَرُهُ . فَقَالَ الْمُنْتَنَى
لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ . مَا يُقَالُ لِلرَّقْعَةِ الَّتِي فِيهَا مِهْرَانُ وَعَسْكَرُهُ :
قَالَ بُسْطِيَا . فَقَالَ الْكُنْدِيُّ مِهْرَانُ وَهَلَكَ عَسْكَرُهُ زَلَّ مَسْنَرًا هُوَ
السُّوسُ . وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ حَتَّى كَاتَبَهُ مِهْرَانُ إِذَا أَنْ تَمَبُّرُوا إِلَيْنَا وَإِنَّا

أَنْ نَعْبُرَ إِلَيْكُمْ . فَقَالَ الْمُتَنَّى : أَعْبُرُوا فَعَبَرَ مِهْرَانُ فَتَنَزَلَ عَلَى شَاطِئِ
 الْفُرَاتِ مَعَهُمْ فِي الْمِلْطَاطِ . فَقَالَ الْمُتَنَّى : كَذَلِكَ لِلرَّجُلِ . مَا يُقَالُ لَهُذِهِ
 أَرْقَعَةُ آلِي زُلْهَا مِهْرَانُ وَأَصْحَابُهُ وَعَسْكَرُهُ قَالَ شُومِيَا . وَذَلِكَ فِي
 رَمَضَانَ . فَتَنَادَى فِي النَّاسِ أَنْهَدُوا لِعَدُوِّكُمْ . فَتَنَاهَدُوا وَقَدْ كَانَ
 الْمُتَنَّى عَبِي الْجَيْشِ . فَجَعَلَ عَلَى مُحَبَّتَيْهِ مَذْعُورًا وَالنُّسِيرَ وَعَلَى الْعُجْرَدَةِ
 عَاصِمًا وَعَلَى الطَّلَاحِ عَصْمَةً وَأَصْطَفَى الْقَرِيقَانَ وَقَامَ الْمُتَنَّى فِيهِمْ خَطِيبًا
 فَقَالَ : إِنَّكُمْ صَوَامٌ وَالصَّوْمُ مَرْقَةٌ وَمَضْعَفَةٌ وَإِنِّي أَرَى مِنَ الرَّأْيِ أَنْ
 تُفْطِرُوا . ثُمَّ تَقْوُوا بِالطَّعَامِ عَلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ : قَالُوا نَعَمْ : فَأَفْطَرُوا
 فَأَبْصَرَ رَجُلًا يَسْتَوْفِزُ وَيَسْتَنْتِلُ مِنَ الصَّفِّ فَقَالَ : مَا بَالُ هَذَا :
 فَقَالُوا يَمْنُ فَرٌّ مِنَ الزَّخْفِ يَوْمَ الْجِسْرِ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَنْتِلَ فَرَقَرَعَهُ
 بِالرَّمْحِ . وَقَالَ : لَا أَبَا لَكَ الزَّمْ مَوْقِفَكَ فَإِذَا أَتَاكَ قِرْنُكَ فَأَغْنِهِ عَنْ
 صَاحِبِكَ وَلَا تَسْتَنْتِلُ . قَالَ : إِنِّي بِذَلِكَ لَجْدِيرٌ فَلَسْتُ قَرْنُكَ وَلَزِمَ الصَّفَّ .
 كَتَبَ إِلَى السُّرِّيِّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الشَّيْبَانِيِّ مِثْلَهُ

كَتَبَ إِلَى السُّرِّيِّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحِصَنٍ عَنْ
 أَبِيهِ أَنْ أَنْجَمَ لَمَّا أُذِنَ لَهُمْ فِي الْعُبُورِ زُلُّوا شُومِيَا مَوْضِعَ دَارِ الرِّزْقِ .
 فَتَعَبُوا لَمَّا جَاؤُوا هُنَالِكَ . فَأَقْبَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي صُفُوفٍ ثَلَاثَةٍ مَعَ
 كُلِّ صَفٍّ فِيلٌ وَرَجُلُهُمْ أَمَامَ فِيلِهِمْ وَجَاؤُوا لَهُمْ زُجَلٌ . فَقَالَ الْمُتَنَّى
 لِلْمُسْلِمِينَ : الَّذِي تَسْمَعُونَ فَشَرٌّ فَالْزُمُوا الصَّمْتَ وَانْتَبِهُوا بَيْنَكُمْ
 هَمْسًا . فَدَنُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَجَاؤُوهُمْ مِنْ قُبُلِ نَهْرِ بَنِي سُلَيْمٍ نَحْوَ

مَوْضِعَ نَهْرِ بَنِي سُلَيْمِ الْيَوْمَ. فَلَمَّا دَنَوْا زَحَفُوا وَصَفُّ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا
 بَيْنَ نَهْرِ بَنِي سُلَيْمِ الْيَوْمَ وَمَا وَرَاءَهُ .
 • كَتَبَ إِلَيَّ السَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ مَسِيْفٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ
 قَالَا: وَكَانَ عَلَى مُحَبِّتِي الْمُثَنَّى بَشِيرٌ وَيُشْرُ بْنُ أَبِي وَهْمٍ وَعَلَى مُجَرَّدَتِهِ
 الْمُثَنَّى وَعَلَى الرَّجُلِ مَسْمُودٌ وَعَلَى الطَّلَانِ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْاُسَيْرُ
 وَعَلَى الرَّدِّ مَذْعُورٌ وَكَانَ عَلَى مُحَبِّتِي مِهْرَانُ ابْنُ الْأَرَاذِبَةِ مَرْزُبَانُ
 الْحِيرَةِ وَمَرْدَنشَاهُ. وَأَمَّا خَرَجَ الْمُثَنَّى طَافَ فِي صُفُوفِهِ يَهْدِي إِلَيْهِمْ
 عَهْدَهُ وَهُوَ عَلَى قَرَسِهِ الشَّمْسُ وَكَانَ يُدْعَى الشَّمْسُوسُ مِنْ لَيْلٍ عَرِيكَتِهِ
 وَلِمَهَارَتِهِ . فَكَانَ إِذَا رَكِبَهُ قَاتِلٌ وَكَانَ لَا يَرْكَبُهُ إِلَّا لِقِتَالٍ يُودَعُهُ مَا
 لَمْ يَكُنْ قِتَالٌ . فَوَقَفَ عَلَى الرِّيَاطِ رَايَةً رَايَةً يُخَضِّضُهُمْ وَيَأْمُرُهُمْ
 بِأَمْرِهِ وَيَنْهَاهُمْ بِمَا فِيهِمْ تَخْضِيعُضَالَهُمْ وَلِكَلِمَةٍ يَقُولُ: إِنِّي لَا زُجُو أَنْ لَا
 تَوْتِيَ الْعَرَبُ مِنْ قَبْلِكُمْ الْيَوْمَ. وَاللَّهُ مَا يَسُرُّنِي الْيَوْمَ أَنْفُسِي شَيْءٌ
 إِلَّا وَهُوَ يَسُرُّنِي لِعَامَتِكُمْ . فَيُجِيبُونَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ. وَأَنْصَحُهُمُ الْمُثَنَّى
 فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَخَلَطَ النَّاسُ فِي الْمَكْرُوهِ وَالْمَحْبُوبِ . فَلَمْ يَسْتَطِعْ
 أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَعْيبَ لَهُ قَوْلًا وَلَا عَمَلًا . ثُمَّ قَالَ: إِنِّي مُكَبِّرٌ ثَلَاثًا فَتَهَيَّؤُوا
 ثُمَّ أَهْمَلُوا مَعَ الرَّابِعَةِ: فَلَمَّا كَبَّرَ أَوَّلَ تَكْبِيرِهِ رَكَدَتْ خِيَلُهُمْ وَحَرَبُهُمْ
 مَلِيًّا . فَلَمَّا رَأَى الْمُثَنَّى خَلَلًا فِي بَعْضِ صُفُوفِهِ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَجُلًا
 وَقَالَ: إِنَّ الْأَمِيرَ يَقْرَأُ عَلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَقُولُ: لَا تَفْضَحُوا الْمُسْلِمِينَ
 الْيَوْمَ: فَقَالُوا نَعَمْ: وَاعْتَدَلُوا وَجَمَلُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَدْرُونَهُ وَهُوَ يَدُّ حِلْيَتَهُ

لَا يَرَى مِنْهُمْ فَاعْتَبُوا بِأَمْرِ لَمْ يَحْجِ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ
فَرَمَوْهُ فَرَأَوْهُ يَضْحَكُ فَرَحًا وَالْقَوْمُ بَيْنَ عَجَلٍ وَمَا وَرَاءَهَا
فَلَمَّا طَالَ الْقِتَالُ وَاشْتَدَّ عَمَدُ الْمُتَى إِلَى أَنَسِ بْنِ هِلَالٍ فَقَالَ:
يَا أَنَسُ إِنَّكَ أَمْرُوهُ عَرَبِيٌّ وَإِنْ لَمْ تَكُ عَلَى دِينِنَا . فَإِذَا رَأَيْتَنِي قَدْ
حَمَلْتُ عَلَى مِهْرَانَ فَأَجِزْ مَعِي . وَقَالَ لَأَبْنَ ذِي السَّهْمَيْنِ مِثْلَ ذَلِكَ
فَأَجَابَهُ . فَحَمَلَ الْمُتَى عَلَى مِهْرَانَ فَأَزَالَهُ حَتَّى دَخَلَ فِي مِصْنَتِهِ ثُمَّ
خَالَطُوهُمْ فَاجْتَمَعَ الْقَلْبَانِ وَارْتَفَعَ الْغَبَارُ وَالْمُجَنَّبَاتُ تُقْتَلُ لَا
يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفِرُّوا لِلنَّصْرِ أَمِيرِهِمْ لَا الْمُشْرِكُونَ وَلَا الْمُسْلِمُونَ .
وَارْتَثَ مَسْعُودٌ يَوْمَئِذٍ وَقَوَادٌ مِنْ قَوَادِ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ كَانَ قَالَهُمْ:
إِذَا رَأَيْتُمُونَا أُصْبِنَا فَلَا تَدْعُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ فَإِنَّ أَحَدَ الْجَيْشَيْنِ يَنْكَشِفُ
ثُمَّ يَنْصَرِفُ وَأَعْنُوا غَنَاءَ مَنْ يَلِكُكُمْ : وَأَوْجَعَ قَلْبُ الْمُسْلِمِينَ فِي
قَلْبِ الْمُشْرِكِينَ وَقَتْلُ غُلَامٍ مِنَ الثَّغَلِيِّينَ نَصْرَانِيٍّ مِهْرَانَ فَلَسْتَوَى
عَلَى فَرَسِهِ . فَحَمَلَ الْمُتَى سَلْبَهُ لِصَاحِبِ خَيْلِهِ . وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ
الْمُشْرِكُ فِي خَيْلٍ رَجُلٍ فَقَتَلَ وَسَلَبَ فَهُوَ الْبُذِي هُوَ أَمِيرٌ عَلَى مَنْ
قَتَلَهُ وَكَانَ لَهُمْ قَائِدَانِ أَحَدُهُمَا جَرِيرٌ وَالْآخَرُ ابْنُ الْهُوَيْرِ فَأَقْتَسَمَا
كَتَبَ إِلَى السَّرِيِّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ
حَقَرِ بْنِ ثَعْلَبَةَ قَالَ : جَلَبَ فِتْيَةٌ مِنْ بَنِي تَغْلِبَ أَفْرَاسًا . فَلَمَّا اتَّقَى
الزُّحْفَانِ يَوْمَ الْبُؤَيْبِ قَالُوا : لَا تُقَاتِلُ الْعَرَبَ مَعَ الْجَحْمِ فَأَصَابَ
أَحَدُهُمْ مِهْرَانَ يَوْمَئِذٍ وَهَدَّ عَلَى فَرَسٍ لَهُ وَرَدَّ مُحْفَفٍ بِتَجَفَافٍ أَصْفَرَ

بَيْنَ عَيْنَيْهِ هَالِدٌ وَعَلَى ذَنْبِهِ أَهْلَةٌ فَاسْتَوَى عَلَى فَرَسِهِ ثُمَّ اتَّمَى
 فَقَالَ: أَنَا الْعُلَامُ التَّلْبِيُّ أَنَا قُتِلْتُ الْمَرْزُبَانُ : فَأَتَاهُ جَرِيْدٌ وَابْنُ الْهَوَيْرِ
 فِي قَوْمِهِمَا فَأَخَذَا بِرِجْلَيْهِ فَأَتَزَلَّاهُ . كَتَبَ إِلَى السُّرِّيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ
 سَيْفٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمَرْزُبَانِ أَنَّ جَرِيْدًا وَالْمُنْدِرَ اشْتَرَكَافِيهِ فَأَخْتَصَمَا
 فِي سِلَاحِهِ فَتَقَاضِيَا إِلَى الْمُنَى . فُجِعِلَ سِلَاحُهُ بَيْنَهُمَا وَالْمُنْطَقَةُ وَالسَّوَادَيْنِ
 بَيْنَهُمَا وَأَفْنَوْا قَابَ الْمُشْرِكِينَ . كَتَبَ إِلَى السُّرِّيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ
 سَيْفٍ عَنْ أَبِي رَوْقٍ قَالَ : وَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لِنَأْتِي الْبُؤَيْبَ قَدَرِي فِيمَا
 بَيْنَ مَوْضِعِ السُّكُونِ وَبَنِي سُلَيْمٍ عِظَامًا يَبْضًا تَلُوحُ مِنْ هَامِهِمْ
 وَأَوْصَالِهِمْ يَتَبَرُّ بِهَا . قَالَ وَحَدَّثَنِي بَعْضُ مَنْ شَهِدَهَا أَنَّهُمْ كَانُوا
 يَحْزَرُونَهَا بِمِائَةِ أَلْفِ قَتِيلٍ مِنَ الْحَجَمِ وَمَا غُفِيَ عَلَيْهَا حَتَّى دَفَنَهَا
 أَذْفَانُ الْيُوتِ

كَتَبَ إِلَى السُّرِّيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ عَطِيَّةَ بْنِ الْحَرْثِ
 قَالَ : لَمَّا أَهْلَكَ اللَّهُ مِهْرَانَ اسْتَمَكَّنَ الْمَسَامُونَ مِنَ الْغَارَةِ عَلَى السَّوَادِ
 فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ دِجْلَةَ فَخَرُّوْهَا لَا يَخَافُونَ كَيْدًا وَلَا يَلْقَوْنَ فِيهِ مَا نِعْمًا .
 وَاتَّمَقَّضَتْ مَسَاجِحُ الْحَجَمِ فَرَجَعَتْ إِلَيْهِمْ وَاعْتَصَمُوا بِسَابَاطٍ وَسَرَّهُمْ
 أَنْ يَتْرُكُوا مَا وَرَاءَ دِجْلَةَ . فَكَانَتْ وَقْعَةُ الْبُؤَيْبِ فِي رَمَضَانَ
 سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةِ قَتَلَ اللَّهُ مِهْرَانَ وَجَيْشَهُ وَأَفْعَمُوا جَنْبَتِي الْبُؤَيْبِ
 عِظَامًا حَتَّى اسْتَوَى وَمَا غَفَى عَلَيْهَا التُّرَابُ أَرْمَانَ الْفَتَنَةِ وَمَا يُثَارُ
 هَذَاكَ شَيْءٌ إِلَّا وَقَعُوا مِنْهَا عَلَى شَيْءٍ . وَهُوَ مَا بَيْنَ السُّكُونِ

وَمَرْهَبَةٌ وَبَنِي سُلَيْمٍ وَكَانَ مَغِيضًا لِلْفُرَاتِ أَرْمَانَ الْأَكَاْسِرَةِ
يَصُبُّ فِي الْجُوفِ. وَقَالَ الْأَعْوَرُ الْعَبْدِيُّ الشَّيْءُ
هَاجَتْ لِأَعْوَرَ دَارُ الْحَيِّ إِخْنَانًا وَأَسْتَبَدَّتْ بَعْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ خَفَانًا
وَقَدْ أَرَانَا بِهَا وَالشَّئْلُ مُجْتَمِعٌ إِذْ بِالنَّجِيلَةِ قَتْلُ جُنْدٍ مِهْرَانًا
أَرْمَانَ سَارَ الْمُشْنَى بِالْخَيُْولِ لَهُمْ فَقَتَلَ الزَّحْفَ مِنْ فُرْسٍ وَجِيالَانَا
سَمَا لِمِهْرَانَ وَالْجَيْشِ الَّذِي مَعَهُ حَتَّى أَبَادَهُمْ مَشْنَى وَوَحْدَانَا



مِنْ كِتَابِ الْفَخْرِيِّ فِي الْأَذَابِ السُّلْطَانِيَّةِ
وَالدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ

ذِكْرُ خِلَافَةِ هَارُونَ الرَّشِيدِ (١)

بُويعَ بِالْخِلَافَةِ فِي سَنَةِ سَبْعِينَ وَمِئَةٍ . كَانَ الرَّشِيدُ مِنْ أَفْضَلِ
الْخُلَفَاءِ وَفَضْلَائِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ وَكُرَمَائِهِمْ كَانَ يُحْجُّ سَنَةً وَيَفْزُو سَنَةً .
كَذَلِكَ مُدَّةُ خِلَافَتِهِ إِلَّا سِنِينَ قَلِيلَةً . قَالُوا : وَكَانَ يُصَلِّي فِي كُلِّ
يَوْمٍ مِئَةَ رَكْعَةٍ . وَحَجَّ مَاشِيًا . وَلَمْ يُحْجَّ خَلِيفَةً مَاشِيًا غَيْرَهُ . وَكَانَ إِذَا
حَجَّ حَجَّ مَعَهُ مِئَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَأَبْنَائِهِمْ . وَإِذَا لَمْ يُحْجَّ أَحْجَّ ثَلَاثِينَ
رَجُلًا بِالنَّفَقَةِ السَّابِغَةِ . وَالْكُسُوفَةِ الظَّاهِرَةِ . وَكَانَ يَتَشَبَّهُ فِي أَفْعَالِهِ
بِالْمَنْصُورِ إِلَّا فِي بَذْلِ الْمَالِ . فَإِنَّهُ لَمْ يَرِ خَلِيفَةً أَسْمَعَ مِنْهُ بِالْمَالِ .
وَكَانَ لَا يَضِيعُ عِنْدَهُ إِحْسَانٌ مُحْسِنٍ وَلَا يُؤْخَرُ . وَكَانَ يُحِبُّ الشِّعْرَ

(١) اما هارون الرشيد احد الخلفاء العباسيين فقد ولد في سنة ٧٦٥ في ري من
ميديا وتوفي في سنة ٨٠٩ في طوس . وقد اشتهر هذا الخليفة بحاربته جيوش الملكة
ايرينا في اسبا الصغرى لما قام مقام اخيه موسى الهادي على السدة الملوكية في سنة ٧٨٦ .
فشق على موسى فلاح اخيه هارون فقصده قتل . فلما رأت والدتها ان لا بد من قتل
احد ولدكما اختارت موت موسى على هارون الذي رفع شان دولة العباسيين الى اعلى
ذرى العظمة والمجد . ففتح الفتوحات الشهيرة في اسبا وحارب مراراً ايرينا ونيكفور
الى ان اجبرهما على اداء الخزية واتسعت انصالياته حتى المغرب . وتحاب مع كارلوس
الكبير ملك فرنسا . ومما امتاز به هذا الخليفة حسن التفاته الى العلوم والصنائع فازهرت
في ايام دولته . فحط العلماء والادباء عصا الترحال عند بلاطه . غير انه كثيراً ما ابدى
من القساوة المنكرة لاسيما ضد البرامكة الذين كانوا قد حازوا ملأ ايامه

وَالشُّعْرَاءُ وَيَمِيلُ إِلَى لَهْلِ الْأَدَبِ وَالنِّقْمَةِ . وَيَكْرَهُ الْمِرَاءَ فِي الدِّينِ .
وَكَانَ يُحِبُّ الْمَدِيحَ لَا سِيَّامًا مِنْ شَاعِرٍ فَصِيحٍ . وَتُجْزِلُ الْعَطَاءَ عَلَيْهِ
قَالَ الْأَصْبَغِيُّ : صَنَعَ الرَّشِيدُ طَعَامًا وَزَخْرَفَ مَحَالِسَهُ وَلَحْظَرَ
أَبَا الْعَتَاهِيَةِ وَقَالَ لَهُ : صِفْ لَنَا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ نَعِيمٍ هَذِهِ الدُّنْيَا :
فَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ :

عِشْ مَا بَدَأَ لَكَ سَالِمًا فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ الْقُصُورِ
فَقَالَ الرَّشِيدُ : أَحْسَنْتَ ثُمَّ مَاذَا : فَقَالَ :

يُسْنَى عَلَيْكَ بِمَا أَشْتَهَيْتَ لَدَى الرُّوَاحِ أَوْ الْبُكُورِ
فَقَالَ : حَسَنٌ ثُمَّ مَاذَا : فَقَالَ :

فَإِذَا الْفُورُ تَقَعَّقَتْ فِي ظِلِّ حَشْرَجَةِ الصُّدُورِ
فَهَذَاكَ تَعْلَمُ مُوقِنًا مَا كُنْتَ إِلَّا فِي غُرُورِ
فَبَكَى الرَّشِيدُ . فَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى : بَعَثَ إِلَيْكَ أَمِيرُ
الْمُؤْمِنِينَ لِتُسَرَّهُ فَحَزَنَتْهُ : فَقَالَ الرَّشِيدُ : دَعُهُ فَإِنَّهُ رَأَى فِي عَمِّي
فَكْرَهُ أَنْ يَزِيدَنَا مِنْهُ .

وَكَانَ الرَّشِيدُ يَتَوَاضَعُ لِلْعُلَمَاءِ . قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الضَّرِيرُ :
وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ النَّاسِ . أَكَلْتُ مَعَ الرَّشِيدِ يَوْمًا . فَصَبَّ عَلَى يَدَيِ
الْمَاءِ رَجُلٌ فَقَالَ لِي : يَا أَبَا مُعَاوِيَةَ . أَتَدْرِي مَنْ صَبَّ الْمَاءَ عَلَى يَدِكَ :
فَقُلْتُ لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ أَنَا . فَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ
تَفْعَلُ هَذَا إِجْلَالًا لِلْعِلْمِ . قَالَ نَعَمْ .

فِي أَيَّامِهِ خَرَجَ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ حَسَنِ بْنِ
عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ . شَرَحَ كَيْفِيَّةَ الْحَالِ فِي ذَلِكَ

• كَانَ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَدْ خَافَ مِمَّا جَرَى عَلَى أَخَوَيْهِ النَّفْسِ
الرَّزْكَيَّةِ وَإِبْرَاهِيمَ قَتِيلَ بَاخْرِي . قُمَضَى إِلَى الدَّيْلَمِ . فَأَعْتَقُوا فِيهِ
اُسْتَحْقَاقَ الْإِمَامَةِ وَبَايَعُوهُ وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنَ الْأَمْصَارِ وَقَوِيَتْ
شَوْكَتُهُ . فَأَعْتَمَّ الرَّشِيدُ لِذَلِكَ . وَنَدَبَ إِلَيْهِ الْفَضْلَ بْنَ يَحْيَى فِي
خَمْسِينَ أَلْفًا وَوَلَّاهُ جُرْجَانَ وَعَلْبَرِسْتَانَ وَالرِّيَّ وَغَيْرَ ذَلِكَ . فَتَوَجَّهَ
الْفَضْلُ بِالْجُنُودِ . فَلَطَفَ بِيَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَحَذَرَهُ وَخَوَّفَهُ وَرَغَّبَهُ .
قَالَ يَحْيَى إِلَى الصُّلَحِ وَطَلَبَ أَمَانًا بِحِطِّ الرَّشِيدِ وَأَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ فِيهِ
الْقَضَاءُ وَالْفَقْهَاءُ وَجَلَّةُ بَنِي هَاشِمٍ . فَأَجَابَهُ الرَّشِيدُ إِلَى ذَلِكَ وَسُرَّ بِهِ
وَكَتَبَ لَهُ أَمَانًا بَلِيغًا بِحِطِّهِ . وَشَهِدَ عَلَيْهِ فِيهِ الْقَضَاءُ وَالْفَقْهَاءُ وَمَشَاجِئُ
بَنِي هَاشِمٍ وَسَيَّرَ الْأَمَانَ مَعَ هَدَايَا وَتَخَفٍ . فَقَدِمَ يَحْيَى مَعَ الْفَضْلِ .
فَأَقْبَهُ الرَّشِيدُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ بِكُلِّ مَا أَحَبَّ . ثُمَّ حَبَسَهُ عِنْدَهُ وَأَسْتَيْتَى
الْفَقْهَاءُ فِي نَقْضِ الْأَمَانِ . فَمِنْهُمْ مَنْ أَفْتَى بِصِحَّتِهِ فَحَاجَّهُ . وَمِنْهُمْ
مَنْ أَفْتَى بِبُطْلَانِهِ فَأَبْطَلَهُ . ثُمَّ قَتَلَهُ بَعْدَ ظَهْوَرِ آيَةٍ لَهُ عَظِيمَةٍ .

شَرَحَ الْآيَةَ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي قَضِيَّةِ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ
حَضَرَ رَجُلٌ مِنَ آلِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ عِنْدَ الرَّشِيدِ وَسَمِعَ
بِيَحْيَى وَقَالَ : إِنَّهُ بَدَأَ الْأَمَانَ فَعَلَّ وَصَنَعَ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى نَفْسِهِ .
فَاحْضَرَهُ الرَّشِيدُ مِنْ مَحَبَسِهِ وَجَمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الزُّبَيْرِيِّ . وَسَأَلَهُ عَنْ

ذَلِكَ فَأَنْكَرَ . فَوَافَقَهُ الزُّبَيْرِيُّ فَقَالَ لَهُ يُحْيَى : إِنْ كُنْتَ صَادِقًا
فَأُحْلِفُ : فَقَالَ الزُّبَيْرِيُّ : وَاللَّهِ الطَّلَابُ الْغَالِبُ وَأَرَادَ أَنْ يُتِمَّمَ
الْيَمِينَ : فَقَالَ لَهُ يُحْيَى : دَعْ هَذِهِ الْيَمِينَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا مَجَّدَهُ الْعَبْدُ
لَمْ يَجْعَلْ عُقُوبَتَهُ . وَلَكِنْ أُحْلِفُ لِي بِبَيِّنِ الْبَرَاءَةِ . وَهِيَ يَمِينُ عُظْمَى
صُورَتِهَا أَنْ يَقُولَ عَنْ نَفْسِهِ : بَرِئْتُ مِنْ حَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ . وَدَخَلَ فِي
حَوْلِ نَفْسِهِ وَقُوَّتِهَا إِنْ كَانَ كَذَاً وَكَذَا : فَلَمَّا سَمِعَ الزُّبَيْرِيُّ هَذِهِ
الْيَمِينَ ارْتَاعَ لَهَا وَقَالَ : مَا هَذِهِ الْيَمِينَ الْغَرِيبَةُ وَأَمْتَنَ مِنَ الْحَلْفِ
بِهَا : فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : مَا مَعْنَى أَمْتِنَاكَ . إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا تَقُولُ
فَمَا خَوْفُكَ مِنْ هَذِهِ الْيَمِينَ : فَخَافَ بِهَا . فَمَا خَرَجَ مِنَ الْمَجْلِسِ حَتَّى
ضَرَبَ بِرِجْلِهِ وَمَاتَ . وَقِيلَ مَا أَنْقَضَى النَّهَارُ حَتَّى مَاتَ . فَحَمَلُوهُ إِلَى
الْقَبْرِ وَحَطُّوهُ فِيهِ وَأَرَادُوا أَنْ يَطْمُؤُوا الْقَبْرَ بِالثَّرَابِ . فَكَانُوا كَأَمَّا
جَمَلُوا الثَّرَابَ فِيهِ ذَهَبَ الثَّرَابُ وَلَا يَنْظُمُ الْقَبْرُ فَعَلِمُوا أَنَّهَا آيَةٌ
سَمَاوِيَّةٌ . فَسَقُّوا الْقَبْرَ وَرَاحُوا . وَإِلَى ذَلِكَ أَشَارَ أَبُو فِرَاسٍ بْنُ
حَمْدَانَ فِي مِيمَتِهِ بِقَوْلِهِ :

يَا جَاهِدًا فِي مَسَاوِيهِمْ يُكْتَبُهَا

غَدْرُ الرَّشِيدِ بِيُحْيَى كَيْفَ يَنْكَبُ

ذَاقَ الزُّبَيْرِيُّ غِبَّ الْحِنْثِ وَأَنْكَشَفَتْ

عَنْ ابْنِ فَاطِمَةَ الْأَقْوَالُ وَالْأَتَمُ

وَمَعَ ظُهُورٍ مِثْلَ هَذِهِ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ قَتَلَ يُحْيَى فِي الْحَبْسِ شَرَّ قِتْلَةٍ

وَكَانَتْ دَوْلَةُ الرَّشِيدِ مِنْ أَحْسَنِ الدُّوَلِ وَأَكْثَرَهَا وَقَارًا وَرَوْنًا
وَحَيْرًا وَأَوْسَعَهَا رُقْعَةً مَمْلَكَةً . جَبَى الرَّشِيدُ مُعْظَمَ الدُّنْيَا . وَكَانَ أَحَدُ
عُمَلَاهُ صَاحِبَ مِصْرَ . وَلَمْ يَجْتَمِعْ عَلَى بَابِ خَلِيفَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالشُّعْرَاءِ
وَالْفُقَهَاءِ وَالْأَهْرَاءِ وَالْفُضَاةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّدْمَاءِ وَالْمَغْنَمِ مَا اجْتَمَعَ عَلَى
بَابِ الرَّشِيدِ . وَكَانَ يَصِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْجَلَ صَلَوةٍ وَيَرْفَعُهُ إِلَى
أَعْلَى دَرَجَةٍ . وَكَانَ فَاضِلًا شَاعِرًا رَاوِيَةً لِلْأَخْبَارِ وَالْأَثَارِ وَالْأَشْعَارِ .
صَحِيحَ الذُّوقِ وَالتَّمْيِيزِ مَهِيبًا عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ . قَبِضَ عَلَى مُوسَى
بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ . وَأَحْضَرَهُ فِي قُبَّةٍ إِلَى بَغْدَادَ . فَحَبَسَهُ بِدَارِ
السِّنْدِيِّ بْنِ شَاهَكَ . ثُمَّ قُتِلَ وَأُظْهِرَ أَنَّهُ مَاتَ حَتَفَ أَنْفِهِ

شَرَحَ كَيْفِيَّةَ الْحَالِ فِي ذَلِكَ . كَانَ بَعْضُ حُسَّادِهِ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ
مِنْ أَقَارِبِهِ قَدْ وَشَى بِهِ إِلَى الرَّشِيدِ وَقَالَ لَهُ : إِنَّ النَّاسَ يَنْجُمُونَ إِلَى
مُوسَى خَمْسَ أَمْوَالِهِمْ وَيَتَّقِدُونَ إِمَامَتَهُ وَإِنَّهُ عَلَى عِزِّهِ الْخُرُوجِ عَلَيْكَ .
وَأَكْثَرَ فِي الْقَوْلِ فَوَقَعَ ذَلِكَ عِنْدَ الرَّشِيدِ بِمَوْقِعِ أَهْمِهِ وَأَقْلَقَهُ . ثُمَّ أُعْطِيَ
الْوَأَشِي مَا أَحَالَهُ بِهِ عَلَى الْبِلَادِ . فَلَمْ يَسْتَمْتِعْ بِهِ وَمَا وَصَلَ أُمُالُ
مِنَ الْبِلَادِ إِلَّا وَقَدْ مَرَضَ مَرَضَةً شَدِيدَةً وَمَاتَ فِيهَا . وَأَمَّا الرَّشِيدُ
فَإِنَّهُ حَجَّ فِي تِلْكَ السَّنَةِ . فَلَمَّا وَرَدَ الْمَدِينَةَ قَبِضَ عَلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ
وَحَمَلَهُ فِي قُبَّةٍ إِلَى بَغْدَادَ . فَحَبَسَهُ عِنْدَ السِّنْدِيِّ بْنِ شَاهَكَ وَكَانَ
الرَّشِيدُ بِالرُّقَّةِ . فَأَمَرَ بَقْلَهُ فَقُتِلَ قَتْلًا خَفِيًّا . ثُمَّ أَدْخَلُوا عَلَيْهِ جَمَاعَةً مِنَ
الْعُدُولِ بِالْكَرْخِ لِشَاهِدُوهُ إِظْهَارَ أَنَّهُ مَاتَ حَتَفَ أَنْفِهِ . صَلَوَاتُ

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَمَاتَ الرَّشِيدُ بِطُوسَ . وَكَانَ خَرَجَ إِلَى خُرَاسَانَ
لِخَارِجَةِ رَافِعِ بْنِ الْأَيْثِ بْنِ نَضْرِ بْنِ سَيَّارٍ . وَكَانَ هَذَا رَافِعٌ قَدْ خَرَجَ
وَحَلَّخَ الطَّاعَةَ وَتَلَبَّ عَلَى سَمَقَنْدٍ وَقَتْلَ عَامِلِهَا وَمَلَكَهَا وَقَوَّيْتُ شَوْكَتَهُ
فَخَرَجَ الرَّشِيدُ بِنَفْسِهِ إِلَيْهِ . فَمَاتَ بِطُوسَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ وَمِئَةٍ
شَرَحُ حَالِ الْوِزَارَةِ فِي أَيَّامِهِ

لَمَّا بُويعَ بِالْخِلَافَةِ اسْتَوَزَرَ كَاتِبَهُ قَبْلَ الْخِلَافَةِ يَحْيَى بْنَ خَالِدِ بْنِ
بَرْمَكٍ وَظَهَرَتْ دَوْلَةُ بَنِي بَرْمَكٍ مَذْهَبًا

شَرَحُ أَحْوَالِ الدَّوْلَةِ الْبَرْمَكِيَّةِ وَذِكْرُ مَبْدِئِهَا وَمَآلِهَا . كَانُوا
قَدِيمًا عَلَى دِينِ الْمُجُوسِ . ثُمَّ أَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ وَحَسَنَ إِسْلَامُهُمْ .
وَهَذِهِ الدَّوْلَةُ الْبَرْمَكِيَّةُ كَانَتْ غُرَّةً فِي جِبَّةِ الدَّهْرِ وَتَلَجًا عَلَى مَفْرِقِ
الْعَصْرِ . ضُرِبَتْ بِمَكَارِمِهَا الْأَمْثَالُ . وَشُدَّتْ إِلَيْهَا الرِّحَالُ . وَنَيْطَتْ
بِهَا الْأَمْالُ . وَبَذَلَتْ لَهَا الدُّنْيَا أَفْلَاحَ انْجِبَادِهَا . وَمَخْتَهَا أَوْفَرَ إِسْعَادِهَا .
فَكَانَ يَحْيَى وَبَنُوهُ كَالنُّجُومِ زَاهِرَةً . وَالنُّجُورِ زَاخِرَةً . وَالسُّيُولِ دَافِعَةً .
وَالنُّيُوتِ مَاطِرَةً . أَسْوَاقُ الْأَدْبَابِ عِنْدَهُمْ نَافِقَةٌ . وَمَرَاتِبُ ذَوِي
الْحُرْمَاتِ عِنْدَهُمْ عَالِيَةٌ . وَالدُّنْيَا فِي أَيَّامِهِمْ عَامِرَةٌ . وَأَبْهَةٌ الْمَمْلَكَةِ
ظَاهِرَةٌ . وَهُمْ مَلْجَأُ اللَّيْفِ وَمُعْتَصِمُ الطَّرِيدِ . وَلَهُمْ يَهْلُ أَبُو نُوَّاسٍ :
سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا قُدِّمْتُ بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَاحِيْنٍ وَغَادٍ
ذِكْرُ وَزَارَةِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ لِلرَّشِيدِ . لَمَّا جَلَسَ الرَّشِيدُ عَلَى
سَرِيرِ الْمَمْلَكَةِ اسْتَوَزَرَ يَحْيَى بْنَ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ . وَكَانَ كَاتِبَهُ وَنَائِبَهُ

وَوَزِيرَهُ قَبْلَ الْخِلَافَةِ . فَهَضَّ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ بِأَعْبَاءِ الدَّوْلَةِ أُنْثَمَ نُهُوضٍ .
 وَسَدَّ الثُّغُورَ . وَتَدَارَكَ الْخُلَلَ . وَجَبَى الْأَمْوَالَ . وَعَمَرَ الْأَطْرَافَ .
 وَأَظْهَرَ رَوْنَقَ الْخِلَافَةِ . وَتَصَدَّى لِمَهْمَاتِ الْمَمْلَكَةِ . وَكَانَ كَاتِبًا
 بَلِيغًا لَبِيبًا أَدِيبًا شَدِيدًا صَابِرًا الْآرَاءَ حَسَنَ التَّدْيِيرِ . ضَابِطًا يَمَّا
 تَحْتَ يَدِهِ . قَوِيًّا عَلَى الْأُمُورِ . جَوَادًا يُبَارِي الرِّيمَ كَرَمًا وَجُودًا .
 مُدِّحًا بِكُلِّ لِسَانٍ . حَلِيمًا غَفِيظًا وَقُورًا مَهِيْبًا وَلَهُ يَقُولُ الْقَائِلُ :

لَا تَرَانِي مُصَافِحًا كَفَّ يَحْيَى إِنِّي إِنْ فَعَلْتُ ضَيِّعْتُ مَالِي
 لَوْ يَمَسُّ الْخَيْلُ رَاحَةً يَحْيَى لَسَخَتْ نَفْسُهُ بِبَذْلِ النُّوَالِ

وَمِنْ آرَاءِ يَحْيَى السَّدِيدَةِ مَا قَالَهُ لِلْهَادِي . وَقَدْ عَزَمَ عَلَى أَنْ
 يَخْلَعَ أَخَاهُ هُرُونَ مِنَ الْخِلَافَةِ وَيُبَاعِجَ لِابْنِهِ جَعْفَرَ بْنِ الْهَادِي .
 وَكَانَ يَحْيَى كَاتِبَ الرَّشِيدِ وَهُوَ يَتَرَجَّى أَنْ يَتَوَلَّى هُرُونَ الْخِلَافَةَ
 فَيَصِيرَ هُوَ وَزِيرَ الدَّوْلَةِ . فَخَلَا الْهَادِي بِيَحْيَى وَوَهَبَ لَهُ عِشْرِينَ أَلْفَ
 دِينَارٍ . وَحَادَثَهُ فِي خَلْعِ هُرُونَ أَخِيهِ وَالْمُبَايَعَةِ لَجَعْفَرِ ابْنِهِ . فَقَالَ
 لَهُ يَحْيَى : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : إِنْ فَعَلْتَ حَمَلْتَ النَّاسَ عَلَى نَكْثِ
 الْإِيمَانِ وَنَقْصِ الْعُهُودِ . وَتَجَرَّأَ النَّاسُ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ . وَلَوْ تَرَكْتَ
 أَخَاكَ هُرُونَ عَلَى وِلَايَةِ الْهَدْيِ ثُمَّ بَايَعْتَ لَجَعْفَرٍ بَعْدَهُ كَانَ ذَلِكَ
 أَوْكَدَ فِي يَمِينِهِ : فَتَرَكَ الْهَادِي ذَلِكَ مُدَّةً . ثُمَّ غَلَبَ عَلَيْهِ حُبُّ
 الْوَلَدِ . فَأَحْضَرَ يَحْيَى مَرَّةً ثَانِيَةً وَفَاوَضَهُ فِي ذَلِكَ . فَقَالَ لَهُ يَحْيَى :
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . لَوْ حَدَّثَ بِكَ حَادِثُ الْمَوْتِ وَقَدْ خَلَعْتَ أَخَاكَ

وَبَايَعْتَ لِأَبْنِكَ جَعْفَرٍ وَهُوَ صَغِيرٌ دُونَ الْبُلُوغِ . أَفَتَرَى كَانَتْ
خِلَافَتُهُ نَصَحًا . وَكَانَ مَسَالِيحُ بَنِي هَاشِمٍ يَرْضَوْنَ ذَلِكَ وَيُسَلِّمُونَ
الْخِلَافَةَ إِلَيْهِ : قَالَ لَا . قَالَ يَحْيَى : قَدَعَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَأْتِيَهُ عَفْوًا .
وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْهَمْدِيُّ بَايَعَ لَهْرُونَ لَوَجَبَ أَنْ تُبَايَعَ أَنْتَ لَهُ إِمْلًا
تَخْرُجَ الْخِلَافَةُ مِنْ بَنِي أَبِيكَ : فَصَوَّبَ الْهَادِي رَأْيَهُ . وَكَانَ الرَّشِيدُ
بَعْدَ ذَلِكَ يَرَى هَذِهِ مِنْ أَعْظَمِ أَيَادِي يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ عِنْدَهُ
وَمِنْ مَكَارِمِهِ . قِيلَ إِنَّ الرَّشِيدَ لَمَّا نَكَبَ الْبَرَامِكَةَ وَاسْتَأْصَلَ
شَافَتِهِمْ . حَرَّمَ عَلَى الشُّعْرَاءِ أَنْ يَرْتَوْهُمْ وَأَمَرَ بِالْمُؤْخَذَةِ عَلَى ذَلِكَ .
فَاجْتَازَ بَعْضُ الْحَرَسِ بَعْضَ الْخُرْبَاتِ . فَرَأَى إِنْسَانًا وَقِفًا وَفِي
يَدِهِ رُقْعَةٌ فِيهَا شَعْرٌ يَتَضَمَّنُ رِثَاءَ الْبَرَامِكَةِ وَهُوَ يُنْشِدُهُ وَيَبْكِي .
فَأَخَذَهُ الْحَرَسُ وَأَتَى بِهِ إِلَى الرَّشِيدِ وَقَصَّ عَلَيْهِ الصُّورَةَ . فَاسْتَعْظَرَهُ
الرَّشِيدُ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ . فَأَعْتَرَفَ بِهِ . فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : أَمَا سَمِعْتَ
تَحْرِيمِي لِرِثَائِهِمْ . لَا فَعَلَانَّ بِكَ وَلَا ضَنْعَنَ . فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
إِنْ أَذِنْتَ لِي فِي حِكَايَةِ حَالِي حَكِيئَتِهَا ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْتَ وَرَأْيُكَ .
قَالَ قُل . قَالَ : إِنِّي كُنْتُ مِنْ أَصْغَرِ كُتَّابِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ وَأَرْقَاهُمْ
حَالًا . فَقَالَ لِي يَوْمًا : أُرِيدُ أَنْ تُضِيفَنِي فِي دَارِكَ يَوْمًا فَقُلْتُ : يَا مَوْلَانَا
أَنَا دُونَ ذَلِكَ وَدَارِي لَا تُصْلِحُ لِهَذَا . قَالَ : لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ . قُلْتُ :
فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَأَمَهْنِي مُدَّةً حَتَّى أَصْلِحَ شَأْنِي وَمَنْزِلِي . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ
أَنْتَ وَرَأْيُكَ . قَالَ : كَمْ أَهْلُكَ . قُلْتُ سَنَةً . قَالَ كَثِيرٌ . قُلْتُ قُشُورًا .

قَالِ نَعَمْ . فَضَيِّتُ وَشَرَعْتُ فِي إِصْلَاحِ الْمَنْزِلِ وَتَهَيَّيْتُ أَسْبَابَ الدَّعْوَةِ .
 فَلَمَّا تَهَيَّأَتِ الْأَسْبَابُ أَعْلَمْتُ الْوَزِيرَ بِذَلِكَ فَقَالَ : نَحْنُ غَدَا عِنْدَكَ .
 فَضَيِّتُ وَتَهَيَّأْتُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ . فَحَضَرَ الْوَزِيرُ
 فِي غَدٍ وَمَعَهُ ابْنَاهُ جَعْفَرُ وَالْفَضْلُ وَعِدَّةٌ يَسِيرَةٌ مِنْ خَوَاصِرِ أَتْبَاعِهِ .
 فَزَلَّ عَنْ دَابَّتِهِ وَثَرَلَ وَلَدَاهُ جَعْفَرُ وَالْفَضْلُ وَمَنْ مَعَهُ وَقَالَ : يَا فُلَانُ
 أَنَا جَائِعٌ فَجْعَلْ لِي بِشْيَاءً . فَقَالَ لِي الْفَضْلُ ابْنُهُ : الْوَزِيرُ يُحِبُّ
 الْفَرَارِيحَ الْأَمْشَوِيَّةَ . فَجَعَلَ مِنْهَا مَا حَضَرَ . فَدَخَلَتْ وَأَحْضَرَتْ شَيْئًا .
 فَأَكَلَ الْوَزِيرُ ثُمَّ قَامَ يَتَمَشَّى فِي الدَّارِ وَقَالَ : يَا فُلَانُ فَرَجْنَا فِي
 دَارِكَ . فَقُلْتُ : يَا مَوْلَانَا هَذِهِ هِيَ دَارِي لَيْسَ لِي غَيْرُهَا . قَالَ بَلَى
 لَكَ غَيْرُهَا . قُلْتُ وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ سِوَاهَا . فَقَالَ : هَاتُوا بَنَاءً . فَلَمَّا
 حَضَرَ قَالَ لَهُ : أَفْتَحْ فِي هَذَا الْحَائِطِ بَابًا . فَمَضَى لِيَفْتَحَ . فَقُلْتُ : يَا مَوْلَانَا
 كَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُفْتَحَ بَابٌ إِلَى بُيُوتِ الْخَيْرَانِ وَاللَّهُ أَوْصَى بِحِفْظِ
 الْحِجَابِ . قَالَ : لَا بَأْسَ فِي ذَلِكَ ثُمَّ فَتَحَ الْبَابَ . فَقَامَ الْوَزِيرُ وَأَبْنَاؤُهُ
 فَدَخَلُوا فِيهِ وَأَنَا مَعَهُمْ فَخَرَجَ مِنْهُ إِلَى بُسْتَانٍ حَسَنٍ كَثِيرِ الْأَشْجَارِ
 وَالْمَاءِ يَتَدَقَّقُ فِيهِ وَيَبِي مِنْ الْمَقَاصِيرِ وَالْمَسَاكِينِ مَا يَرُوقُ كُلُّ نَاطِرٍ
 وَفِيهِ مِنَ الْأَلَاتِ وَالْفُرُشِ وَالْخُدَمِ وَالْجَوَارِي كُلُّ جَمِيلٍ بَدِيعٍ
 فَقَالَ : هَذَا الْمَنْزِلُ وَجَمِيعُ مَا فِيهِ لَكَ . فَقَبَّاتُ يَدَهُ وَدَعَوْتُ لَهُ وَتَحَقَّقْتُ
 الْقِصَّةَ . فَإِذَا هُوَ مِنْ يَوْمٍ حَادَثَنِي فِي مَعْنَى الدَّعْوَةِ . قَدْ أَرْسَلَ وَاشْتَرَى
 الْأَمْلاكَ النُّجَاوِرَةَ لِي . وَعَمَّرَهَا دَارًا حَسَنَةً وَنَقَلَ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ

شَيْءٌ وَأَنَا لَا أَعْلَمُ وَكُنْتُ أَرَى الْعِمَارَةَ وَأَحْسَبُهَا لِبَعْضِ الْجَبَرَانِ .
 فَقَالَ لِأَبْنِهِ جَعْفَرٍ : يَا بُنَيَّ هَذَا مَنْزِلُ وَعِيَالٍ . وَالْمَادَّةُ مِنْ أَيْنَ تَكُونُ
 لَهُ . قَالَ جَعْفَرٌ : قَدْ أَعْطَيْتُهُ الضَّيْعَةَ الْهَلَانِيَّةَ بِمَا فِيهَا وَسَأَكْتُبُ لَهُ
 بِذَلِكَ كِتَابًا . فَالْتَفَتَ إِلَى أَبِيهِ الْفَضْلِ وَقَالَ لَهُ : يَا بُنَيَّ . فَمِنْ أَلَانَ
 إِلَيَّ أَنْ يَدْخُلَ دَخْلُ هَذِهِ الضَّيْعَةِ مَا الَّذِي يُنْفِقُ . فَقَالَ الْفَضْلُ : عَلَى
 عَشْرَةِ آلَافٍ دِينَارٍ أَجْمَلَهَا إِلَيْهِ . فَقَالَ : فَفَعَلًا لَهُ مَا فُلْتُمَا . فَكَتَبَ لِي
 جَعْفَرٌ بِالضَّيْعَةِ وَحَمَلَ الْفَضْلُ إِلَيَّ أَمْثَالُ فَأَثَرَيْتُ وَارْتَفَعَتْ حَالِي
 وَكَسَبْتُ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَهُ مَا لَا طَائِلَ لَنَا أَنْ أَتَقَلَّبُ فِيهِ إِلَى الْيَوْمِ . فَوَاللَّهِ
 يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَجِدُ فُرْصَةً أَتِمَّكُنْ فِيهَا مِنْ الشُّنَاءِ عَلَيْهِمْ وَالِدَعَاءِ
 لَهُمْ إِلَّا أَنْتَهَزْتُهَا مُكَافَأَةً لَهُمْ عَلَى إِحْسَانِهِمْ وَلَنْ أَقْدِرَ عَلَى مَكَاافَاتِهِ .
 فَإِنْ كُنْتُ قَاتِلِي عَلَى ذَلِكَ . فَأَفْعَلْ مَا بَدَأَ لَكَ . فَرَقَّ الرَّشِيدُ
 لِذَلِكَ وَأَطْلَقَهُ وَأَذِنَ لِجَمِيعِ النَّاسِ فِي رِثَائِهِمْ

قِيلَ إِنَّ هُرُونَ الرَّشِيدَ حَجَّ . وَمَعَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ .
 وَمَعَهُ وَلَدَاهُ الْفَضْلُ وَجَعْفَرٌ . فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى الْمَدِينَةِ جَلَسَ الرَّشِيدُ
 وَمَعَهُ يَحْيَى . فَأَعْطَا النَّاسَ . وَجَلَسَ الْأَمِينُ وَمَعَهُ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى
 فَأَعْطَا النَّاسَ . وَجَلَسَ الْمُأْمُونُ وَمَعَهُ جَعْفَرٌ فَأَعْطَا النَّاسَ . فَأَعْطَوْا
 فِي تِلْكَ السَّنَةِ ثَلَاثَ أَعْطِيَّاتٍ ضُرِبَتْ بِكَثْرَتِهَا الْأَمْثَالُ . وَكَانُوا
 يُسَمُّونَهُ عَامَ الْأَعْطِيَّاتِ الثَّلَاثِ وَأَثَرَى النَّاسُ بِسَبَبِ ذَلِكَ . وَفِي
 ذَلِكَ يَقُولُ الشَّاعِرُ

أَنَا نَبُو الْأَمَلِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ فَيَا طَيْبَ أَخْبَارٍ وَيَا حُسْنَ مَنَظَرٍ
 لَهُمْ رَحْلَةٌ فِي كُلِّ عَامٍ إِلَى الْعِدَى وَأُخْرَى إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ الْمُسْتَرِّ
 إِذَا نَزَلُوا بِطُحَاءِ مَكَّةَ أَشْرَقَتْ بِحُجِيِّ وَبِالْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى وَجَعْفَرٍ
 فَتُظْلَمُ بِنْدَادُ وَتَجْلُو لَنَا الدُّجَى بِمَكَّةَ مَا تَعْمُو ثَلَاثَةُ أَفْرٍ
 فَمَا حُلِقَتْ إِلَّا لِجُودِ أَكْفُهُمْ وَأَقْدَامُهُمْ إِلَّا لِأَعْوَادٍ مِنْبَرٍ
 إِذَا رَأَى يَحْيَى الْأَمْرَ ذَلَّتْ صِعَابُهُ وَنَاهِيكَ مِنْ رَاعٍ لَهُ وَمُدَبِّرٍ
 كَانَ يَحْيَى يَقُولُ: مَا حَاطَبَنِي أَحَدٌ إِلَّا هَيْبَتُهُ. حَتَّى يَكَلِّمَ. فَإِذَا
 تَكَلَّمَ كَانَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ. إِمَّا أَنْ تَرِيدَ هَيْبَتَهُ أَوْ تَضَعِلَ. وَكَانَ
 يَقُولُ: الْمَوَاعِيدُ شِبَاكُ الْكِرَامِ يَصِيدُونَ بِهَا مُحَامِدَ الْأَحْرَارِ. كَانَ يَحْيَى
 إِذَا رَكِبَ يُعِدُّ صُرَّارًا فِي كُلِّ صُرَّةٍ مِثْلًا دِرْهَمٍ. يَدْفَعُهَا إِلَى
 الْمُتَعَرِّضِينَ لَهُ

سِيرَةُ وَلَدِهِ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى

كَانَ الْفَضْلُ مِنْ كِرَامِ الدُّنْيَا وَأَجْوَادِ أَهْلِ عَصْرِهِ. وَكَانَ
 قَدْ أَرْضَعَتْهُ أُمُّ هُرُونِ الرَّشِيدِ. وَأَرْضَعَتْ أُمُّهُ الرَّشِيدَ. وَفِي ذَلِكَ
 يَقُولُ مَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَنْصَةَ
 كَفَى لَكَ فَخْرًا أَنْ أَكْرَمَ حُرَّةً خَذَنَكَ بِذِيِ وَالْحَلِيفَةِ وَاحِدٍ
 لَقَدْ زِنْتَ يَحْيَى فِي الْأَشَاهِدِ كُلِّهَا كَمَا زَانَ يَحْيَى خَالِدًا فِي الْأَشَاهِدِ
 وَلَاهُ الرَّشِيدُ خُرَّاسَانَ. فَخَرَجَ إِلَيْهِ أَبُو الْهَوَلِ الشَّاعِرُ مَادِحًا
 مُعْتَذِرًا مِنْ شِعْرِ كَانَ هَجَاهُ بِهِ فَأَنشَدَهُ

سَرَى نَحْوَهُ مِنْ غَضَبِهِ الْفَضْلُ عَارِضٌ
 لَهُ لُجَّةٌ فِيهَا الْبَوَارِقُ وَالرَّعْدُ
 وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلُ مُلْقٍ فِرَاشَهُ
 عَلَى مَدْرَجٍ يَتَسَادُهُ الْأَسَدُ الْوَرْدُ
 وَمَا لِي إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ
 مِنْ الْجُرْمِ مَا يَخْشَى عَلَى مِثْلِهِ الْحَقْدُ
 فَجَذَّ بِالرِّضَى لَا أَبْتِغِي مِنْكَ غَيْرَهُ
 وَرَأَيْكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ
 فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ: لَا أَحْتَدِلُ تَفْرِيقَكَ بَيْنَ رِضَايَ وَإِحْسَانِي.
 وَهِيَ مَقْرُونَانِ فَإِنْ أَرَدْتَهُمَا مَعًا وَإِلَّا فَدَعُهُمَا مَعًا . ثُمَّ وَصَلَهُ
 وَرَضِيَ عَنْهُ

حَدَّثَ إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْمَوْصِلِيُّ قَالَ: كُنْتُ قَدْ رَبَّيْتُ جَارِيَةً
 وَتَقَفْتُهَا وَعَلَّمْتُهَا حَتَّى بَرَعَتْ . ثُمَّ أَهْدَيْتُهَا إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى .
 فَقَالَ لِي يَا إِسْحَقُ . إِنَّ رَسُولَ صَاحِبِ مِصْرَ قَدْ وَرَدَ إِلَيَّ يَسْأَلُنِي
 حَاجَةً أَقْرَحُهَا عَلَيْهِ . فَدَعِ هَذِهِ الْجَارِيَةَ عِنْدَكَ فَإِنِّي سَأَطْلُبُهَا
 وَأُعْلِمُهُ أَنِّي أُرِيدُهَا . فَإِنَّهُ سَوْفَ يَخْضُرُ إِلَيْكَ وَيَسْأَوُكُمْ فِيهَا . فَلَا
 تَأْخُذْ فِيهَا أَقْلًا مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ . قَالَ إِسْحَقُ قَضَيْتُ بِالْجَارِيَةِ
 إِلَى مَنْزِلِي . فَجَاءَ إِلَيَّ رَسُولُ صَاحِبِ مِصْرَ وَسَأَلَنِي عَنِ الْجَارِيَةِ
 فَأَخْرَجْتُهَا إِلَيْهِ . فَبَدَلَ فِيهَا عَشْرَةَ آلَافِ دِينَارٍ فَأَمْتَمْتُ . فَصَمِدَ

إِلَى عَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ فَأَمْتَنَتْ . فَصَعِدَ إِلَى ثَلَاثِينَ أَلْفًا فَمَا مَلَكَتْ
نَفْسِي حَتَّى قُلْتُ لَهُ بِعْتُكَ . وَسَلَّمْتُ الْجَارِيَةَ إِلَيْهِ وَقَبَضْتُ مِنْهُ أَلْفًا .
ثُمَّ إِنِّي أَتَيْتُ مِنَ الْعَدِ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى فَقَالَ : يَا إِسْحَقُ بِكُمْ
بِعْتُ الْجَارِيَةَ . قُلْتُ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا
تَأْخُذْ مِنْهُ أَقَلَّ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفًا . قُلْتُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي وَاللَّهِ مَا
مَلَكَتْ نَفْسِي مُنْذُ سَمِعْتُ لَفْظَةَ ثَلَاثِينَ . فَقَبَسَمَ ثُمَّ قَالَ : إِنَّ رَسُولَ
صَاحِبِ الرُّومِ قَدْ سَأَلَنِي أَيْضًا حَاجَةً وَسَأَقْرَحُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْجَارِيَةَ
وَأَدُلُّهُ عَلَيْكَ فَخُذْ جَارِيَتَكَ وَانْصَرِفْ إِلَى مَنْزِلِكَ . فَإِذَا سَاوَمَكَ
فِيهَا فَلَا تَأْخُذْ مِنْهُ أَقَلَّ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ

فَأَخَذْتُ الْجَارِيَةَ وَانْصَرَفْتُ إِلَى مَنْزِلِي . فَأَتَانِي رَسُولُ صَاحِبِ
الرُّومِ وَسَاوَمَنِي فِي الْجَارِيَةِ . فَطَلَبْتُ خَمْسِينَ أَلْفًا فَقَالَ : هَذَا كَثِيرٌ
وَلَكِنْ تَأْخُذْ مِنِّي ثَلَاثِينَ أَلْفًا : فَوَاللَّهِ مَا مَلَكَتْ نَفْسِي مُنْذُ سَمِعْتُ
لَفْظَةَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا حَتَّى قُلْتُ لَهُ . قَدْ بَعْتُكَ . ثُمَّ قَبَضْتُ أَلْفًا مِنْهُ وَسَلَّمْتُ
الْجَارِيَةَ إِلَيْهِ . وَمَضَيْتُ مِنَ الْعَدِ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى فَقَالَ : مَا
صَنَعْتَ وَبِكُمْ بِعْتُ الْجَارِيَةَ يَا إِسْحَقُ . قُلْتُ بِثَلَاثِينَ أَلْفًا . قَالَ
سُبْحَانَ اللَّهِ مَا أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْخُذَ فِيهَا أَقَلَّ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفًا .
قُلْتُ : جُعِلَتْ فِدَاكَ وَاللَّهِ إِنِّي لَمَّا سَمِعْتُ قَوْلَهُ ثَلَاثِينَ أَلْفًا اسْتَرْخَتْ
جَمِيعُ أَعْضَائِي . فَصَمَيْتُ وَقَالَ : خُذْ جَارِيَتَكَ وَاذْهَبْ إِلَى مَنْزِلِكَ .
فَبَقِيَ عَدِي يَحْيَى إِلَيْكَ رَسُولُ صَاحِبِ خُرَّاسَانَ . فَقَوَّ نَفْسَكَ وَلَا

تَأْخُذُ مِنْهُ أَقْلٌ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفًا . قَالَ إِسْحَقُ : فَأَخَذْتُ الْجَارِيَةَ وَمَضَيْتُ
إِلَى مَنْزِلِي . فَجَاءَنِي رَسُولُ صَاحِبِ خُرَّاسَانَ وَسَاوَمَنِي فِيهَا . فَطَلَبْتُ
خَمْسِينَ أَلْفًا فَقَالَ لِي : هَذَا كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَأْخُذُ ثَلَاثِينَ أَلْفًا . فَقَوَّيْتُ
نَفْسِي وَامْتَنَعْتُ . فَصَعِدَ مَعِيَ إِلَى أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ . فَكَادَ عَقْلِي
يَذْهَبُ مِنَ الْقَرَحِ . وَلَمْ أَتَمَّاكَ أَنْ قُلْتُ لَهُ بِعْتُكَ : فَأَحْضَرَ الْمَالَ
وَأَقْبَضْنِيهِ وَسَلَّمْتُ الْجَارِيَةَ إِلَيْهِ . وَمَضَيْتُ مِنَ الْغَدِ إِلَى الْفَضْلِ فَقَالَ
لِي : بِكُمْ بَعْتُ الْجَارِيَةَ : قُلْتُ : بَارِعِينَ أَلْفًا . وَوَاللَّهِ لَمَا سَمِعْتُهَا مِنْهُ كَادَ
عَقْلِي يَذْهَبُ . وَقَدْ حَصَلَ عِنْدِي جُمِلْتُ فِدَاكَ مِثْلُ أَلْفِ دِينَارٍ . وَلَمْ
يَبْقَ لِي أَمَلٌ . فَأَحْسَنَ اللَّهُ جَزَاءَكَ . فَأَمَرَ بِالْجَارِيَةِ فَأُخْرِجَتْ إِلَيَّ
وَقَالَ يَا إِسْحَقُ خُذْ جَارِيَتَكَ وَأَنْصَرِفْ . قَالَ إِسْحَقُ : فَقُلْتُ هَذِهِ
الْجَارِيَةُ وَاللَّهِ أَعْظَمُ النَّاسِ بَرَكَهً فَأَعْتَقْتُهَا وَتَزَوَّجْتُهَا فَوَلَدَتْ لِي
أَوْلَادِي

قِيلَ إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الْإِمَامَ ابْنَ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ
ابْنِ الْعَبَّاسِ حَضَرَ يَوْمًا عِنْدَ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى وَمَعَهُ سَفْطٌ فِيهِ جَوْهَرٌ
وَقَالَ لَهُ : إِنَّ حَاصِلِي قَدْ قَصُرَ عَمَّا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ . وَقَدْ عَلَانِي دَيْنٌ
مِثْلُهُ أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ . وَإِنِّي أَسْتَعِي أَنْ أَعْلِمَ أَحَدًا بِذَلِكَ وَأَنْفُ
أَنْ أَسْأَلَ أَحَدًا مِنَ التُّجَّارِ أَنْ يُقْرِضَنِي ذَلِكَ . وَإِنْ كَانَ مَعِيَ
رَهْنٌ يَنْفِي بِالْقِيمَةِ . وَأَنْتَ أَتَقَالُكَ اللَّهُ لَكَ تِجَارَةٌ يُعَامِلُونَكَ . وَأَنَا
أَسْأَلُكَ أَنْ تُقْرِضَ لِي مِنْ أَحَدِهِمْ هَذَا الْمَبْلَغَ وَتُعْطِيَهُ هَذَا الرَّهْنَ :

فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَلَكِنْ نَجْعَ هَذِهِ الْحَاجَةِ أَنْ تُقِيمَ
عِنْدِي هَذَا الْيَوْمَ. فَأَقَامَ عِنْدَهُ. ثُمَّ إِنَّ الْفَضْلَ أَخَذَ السَّفَطَ مِنْهُ وَهُوَ
مَخْتُومٌ بِخَتْمِهِ. وَأَرْسَلَ مَعَهُ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ. وَنَفَذَ الدَّرَاهِمَ
وَالسَّفَطَ إِلَى مَنْزِلِهِ وَأَخَذَ خَطًّا وَكَلِّهَ بِقَبْضِهِ. فَأَقَامَ مُحَمَّدٌ فِي دَارِ
الْفَضْلِ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ. ثُمَّ أَنْصَرَفَ إِلَى دَارِهِ فَوَجَدَ السَّفَطَ وَمَعَهُ
أَلْفُ أَلْفٍ دِرْهَمٍ. فَسَرَّ بِذَلِكَ سُرُورًا عَظِيمًا. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ بَكَرَ
إِلَى الْفَضْلِ لِيَشْكُرَهُ عَلَى ذَلِكَ. فَوَجَدَهُ قَدْ بَكَرَ إِلَى دَارِ الرَّشِيدِ.
فَمَضَى مُحَمَّدٌ إِلَى دَارِ الرَّشِيدِ. فَلَمَّا عَلِمَ الْفَضْلُ بِهِ خَرَجَ مِنْ بَابِ آخَرٍ
وَمَضَى إِلَى دَارِ أَبِيهِ. فَمَضَى مُحَمَّدٌ إِلَيْهِ. فَحِينَ عَلِمَ بِهِ خَرَجَ بِبَابِ آخَرٍ
وَمَضَى إِلَى مَنْزِلِهِ. فَمَضَى مُحَمَّدٌ إِلَيْهِ وَاجْتَمَعَ بِهِ وَشَكَرَهُ عَلَى فِعْلِهِ
وَقَالَ: إِنِّي بَكَرْتُ إِلَيْكَ لِأَشْكُرَكَ عَلَى إِحْسَانِكَ: فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ:
إِنِّي فَكَّرْتُ فِي أَمْرِكَ فَرَأَيْتُ أَنَّ هَذِهِ الْأَلْفَ أَلْفَ الَّتِي حَمَلْتُهَا أَمْسَ
إِلَيْكَ تَقْضِي بِهَا دِينَكَ. ثُمَّ تَحْتَاجُ فَتَقْتَرِضُ. فَبَعْدَ قَلِيلٍ يَفْلُوكُ
مِثْلَهَا. فَبَكَرْتُ الْيَوْمَ إِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَالَكَ وَأَخَذْتُ
لَكَ مِنْهُ أَلْفَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ أُخْرَى. فَلَمَّا حَضَرَتْ إِلَى بَابِ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ خَرَجَتْ أَنَا بِبَابِ آخَرٍ وَكَذَلِكَ فَعَلْتُ لَمَّا حَضَرَتْ إِلَى
بَابِ أَبِي لِأَنِّي مَا كُنْتُ أَوْثَرُ أَنَّ أَلْفَاكَ حَتَّى يُحْمَلَ أَمَالُ إِلَى مَنْزِلِكَ
وَقَدْ جُمِلَ: فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ: بَأَيِّ شَيْءٍ أَجَارِيكَ عَلَى هَذَا الْإِحْسَانِ
مَا عِنْدِي شَيْءٌ أَجَارِيكَ بِهِ إِلَّا أَنِّي أَلْتَرِمُ بِالْإِيمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ

وَبِالطَّلَاقِ وَالْعَتَاقِ وَالْحَجِّ أَتَى مَا أَقِفُ عَلَى بَابِ غَيْرِكَ وَلَا أَسْأَلُ
 سِوَاكَ : قَالُوا . وَحَلَفَ مُحَمَّدٌ أَيْمَانًا مُؤَكَّدَةً وَكُتِبَ بِهَا خَطُّهُ وَأُشْهِدَ
 بِهَا عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا يَقِفُ بِبَابِ غَيْرِ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى . فَلَمَّا ذَهَبَتْ
 دَوْلَةُ الْبَرَامِكَةِ وَتَوَلَّى الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ الْوِزَارَةَ بَدَهُمْ أُخْتِاجَ
 مُحَمَّدٌ فَقَالُوا لَهُ : لَوْ رَكَبْتَ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ فَلَمْ يَفْعَلْ وَالْتَزَمَ
 بِالْيَمِينِ فَلَمْ يَرْكَبْ إِلَى أَحَدٍ وَلَمْ يَقِفْ عَلَى بَابِ أَحَدٍ حَتَّى مَاتَ

سيرة جعفر بن يحيى البرمكي

كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى فَصِيحًا لَبِيبًا ذَكِيًّا فَطِنًا كَرِيمًا حَلِيمًا . وَكَانَ
 الرَّشِيدُ يَأْتِسُّ بِهِ أَكْثَرَ مِنْ أَنَسِهِ بِأَخِيهِ الْفَضْلِ . لِسُؤْلِهِ أَخْلَاقَ
 جَعْفَرٍ وَشَرَّاسَةِ أَخْلَاقِ الْفَضْلِ . قَالَ الرَّشِيدُ يَوْمًا لِيَحْيَى : يَا أَبِي مَا
 بَالُ النَّاسِ يُسَمُّونَ اللَّهَ ذَلِ الْوَزِيرَ الصَّغِيرَ وَلَا يُسَمُّونَ جَعْفَرًا
 بِذَلِكَ : فَقَالَ يَحْيَى : لِأَنَّ الْفَضْلَ يَخْلُفُنِي . قَالَ : فَذُمَّ إِلَى جَعْفَرٍ
 أَعْمَالًا كَأَعْمَالِ الْفَضْلِ . فَقَالَ يَحْيَى : إِنْ خِدَمْتَكَ وَمَنَاوَشْتَكَ تُشْغَلَانِي
 عَنْ ذَلِكَ . فَعَمِلَ إِلَيْهِ أَمْرَ دَارِ الرَّشِيدِ . وَسُمِّيَ بِالْوَزِيرِ الصَّغِيرِ أَيْضًا
 قَالَ الرَّشِيدُ يَوْمًا لِيَحْيَى : قَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَتَقُولَ دِيْوَانَ الْخَاتَمِ
 مِنْ الْفَضْلِ إِلَى جَعْفَرٍ . وَقَدْ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ مَكَاتِبِهِ فِي هَذَا الْمَعْنَى
 فَأَكْتُبُ أَنْتَ إِلَيْهِ . فَكُتِبَ يَحْيَى إِلَى الْفَضْلِ : قَدْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
 أَعْلَى - اللَّهُ أَمْرُهُ أَنْ تُحَوِّلَ الْخَاتَمَ مِنْ يَمِينِكَ إِلَى شِمَالِكَ . فَأَجَابَهُ

الْفَضْلُ: قَدْ سَمِعْتُ لِمَا أَمَرَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَخِي وَمَا أَنْتَقَلْتُ عَنِّي نِعْمَةً صَارَتْ إِلَيْهِ وَلَا غَرَبَتْ عَنِّي رُبَّةٌ طَلَعَتْ عَلَيْهِ. فَقَالَ جَعْفَرٌ: لِلَّهِ دَرُّ أَخِي مَا اكْتَسَبَ نَفْسُهُ وَأَظْهَرَ دَلَائِلَ الْفَضْلِ عَلَيْهِ وَأَقْوَى مِنَّةَ الْعَمَلِ عِنْدَهُ وَأَوْسَعَ فِي الْبَلَاغَةِ ذَرْعَهُ

قِيلَ إِنَّ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى الْبَرْمَكِيَّ جَلَسَ يَوْمًا لِلشَّرْبِ وَأَحَبَّ الْخُلُوءَ. فَأَحْضَرَ نُدَمَاءَهُ الَّذِينَ يَأْتِسُ بِهِمْ. وَجَلَسَ مَعَهُمْ وَقَدْ هِيَ الْجُلُوسُ وَلَبَسُوا الثِّيَابَ الْمُصَبَّغَةَ وَكَانُوا إِذَا جَلَسُوا فِي مَجَالِسِ الشَّرَابِ وَاللَّهْوِ لَبَسُوا الثِّيَابَ الْحُمْرَ وَالْأَصْفَرَ وَالْأَخْضَرَ. ثُمَّ إِنَّ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى تَقَدَّمَ إِلَى الْحَاجِبِ أَنْ لَا يَأْذَنَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى سِوَى رَجُلٍ مِنَ النُّدَمَاءِ كَانَ قَدْ تَأَخَّرَ عَنْهُمْ اسْمُهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ. ثُمَّ جَلَسُوا يَشْرَبُونَ. وَدَارَتِ الْكُكَّاسَاتُ. وَخَفَقَتِ الْعِيدَانُ. وَكَانَ رَجُلٌ مِنْ أَقَارِبِ الْخَلِيفَةِ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ صَالِحِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ. وَكَانَ شَدِيدَ الْوَقَارِ وَالْدِّينِ وَالْحِشْمَةِ. وَكَانَ الرَّشِيدُ قَدْ اتَّخَذَ مِنْهُ أَنْ يُنَادِمَهُ وَيَشْرَبَ مَعَهُ وَبَذَلَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ أَمْوَالًا جَلِيلَةً فَلَمْ يَفْعَلْ. فَأَتَّفَقَ أَنَّ هَذَا عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ صَالِحٍ حَضَرَ إِلَى بَابِ جَعْفَرَ بْنِ يَحْيَى لِيُخَاطَبَهُ فِي حَوَائِجِ لَهُ. فَظَنَّ الْحَاجِبُ أَنَّهُ هُوَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ صَالِحٍ الَّذِي تَقَدَّمَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى بِالْإِذْنِ لَهُ وَأَنْ لَا يُدْخَلَ غَيْرَهُ. فَأَذِنَ الْحَاجِبُ لَهُ. فَدَخَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ الْعَبَّاسِيُّ عَلَى جَعْفَرَ بْنِ يَحْيَى. فَلَمَّا رَأَاهُ جَعْفَرُ

كَادَ عَقْلُهُ يَذْهَبُ مِنْ الْحَيَاءِ وَقَطَنَ أَنَّ الْقَضِيَّةَ قَدْ أُشْبِهَتْ عَلَى
 الْحَاجِبِ بِطَرِيقِ اشْتِبَاهِ الْأَسْمِ . وَقَطَنَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ أَيْضًا
 لِنَمِصَّةٍ وَظَهَرَ لَهُ أَنَّ الْجَلَّ فِي وَجْهِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى . فَأَنْبَسَطَ عَبْدُ الْمَلِكِ
 وَقَالَ : لَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ أَنْخَضُوا لَنَا مِنْ هَذِهِ الثِّيَابِ الْمَصْبَغَةِ شَيْئًا .
 فَأَخْضَرَ لَهُ قَيْصُ مَصْبُوعٌ فَلَبَسَهُ وَجَلَسَ يُبَاسِطُ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى
 وَيَمَازِحُهُ وَقَالَ : أَسْقُونَا مِنْ شَرَابِكُمْ فَسَقَوْهُ رِطْلًا وَقَالَ : ارْزُقُوا بَنِي
 فَلَيْسَ لَنَا عَادَةٌ بِهَذَا . ثُمَّ بَاسَطَهُمْ وَمَازَحَهُمْ وَمَا زَالَ حَتَّى أَنْبَسَطَ
 جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى وَزَالَ أَنْفِبَاضُهُ وَحَيَاؤُهُ . فَقَرَحَ جَعْفَرُ بِذَلِكَ فَرَحًا
 شَدِيدًا وَقَالَ لَهُ : مَا حَاجَتُكَ . قَالَ جِئْتُ أَصْلَحَكَ اللَّهُ فِي ثَلَاثِ
 حَوَائِجَ . أُرِيدُ أَنْ تُخَاطِبَ الْخَلِيفَةَ فِيهَا . أَوَّلَهَا أَنْ عَلَيَّ دَيْنًا مَبْلُغُهُ
 أَلْفُ أَلْفٍ دِرْهَمٍ . أُرِيدُ قَضَاءَهُ . ثَانِيهَا أُرِيدُ وَلَايَةَ لِابْنِي يُشْرِفُ
 بِهَا قَدْرَهُ . وَثَالِثُهَا أُرِيدُ أَنْ تُرَوِّجَ وَلَدِي بِابْنَةِ الْخَلِيفَةِ فَإِنَّهَا بِنْتُ
 عَمِّهِ وَهُوَ كُفُوٌ لَهَا . فَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى : قَدْ قَضَى اللَّهُ هَذِهِ الْحَوَائِجَ
 الثَّلَاثَ . أَمَّا الْمَالُ فَفِي هَذِهِ السَّاعَةِ يُجْعَلُ إِلَى مَنْزِلِكَ . وَأَمَّا الْوَلَايَةُ
 فَقَدْ وَلَّيْتُ ابْنَكَ مِصْرَ . وَأَمَّا الزَّوْجُ فَقَدْ زَوَّجْتُهُ فَلَانَةَ ابْنَةِ مَوْلَانَا
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِدَاقٍ مَبْلُغُهُ كَذَا وَكَذَا . فَأَنْصَرَفَ فِي أَمَانٍ
 اللَّهُ . فَرَأَى عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى مَنْزِلِهِ . فَرَأَى الْمَالَ قَدْ سَبَقَهُ . وَلَمَّا كَانَ
 مِنَ الْعَدِ حَضَرَ جَعْفَرٌ عِنْدَ الرَّشِيدِ وَعَرَفَهُ مَا جَرَى . وَأَنَّهُ قَدْ وَلَّاهُ
 مِصْرَ وَزَوَّجَهُ ابْنَتَهُ . فَعَجِبَ الرَّشِيدُ مِنْ ذَلِكَ وَأَمْضَى الْعَقْدَ وَالْوَلَايَةَ .

فَمَا خَرَجَ جَعْفَرُ بْنُ دَارِ الرَّشِيدِ حَتَّى كَتَبَ لَهُ التَّقْلِيدَ بِمِصْرَ وَأَخْضَرَ
الْفُضَاةَ وَالشُّهُودَ وَعَقَدَ الْعَقْدَ

وَقِيلَ إِنَّ جَعْفَرَ بْنَ يَمْحَى كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَاحِبِ مِصْرَ
عَدَاوَةٌ وَوَحْشَةٌ وَكَانَ كُلُّ مِنْهُمَا مُجَانِبًا لِلْآخَرِ . فَزَوَّرَ بَعْضُ النَّاسِ
كِتَابًا عَنْ لِسَانِ جَعْفَرِ بْنِ يَمْحَى إِلَى صَاحِبِ مِصْرَ مَضْمُونُهُ . أَنَّ
حَامِلَ هَذَا الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِ أَصْحَابِنَا . وَقَدْ آثَرَ الْفُرُجَ فِي الدِّيَارِ
الْمِصْرِيَّةِ فَأَرِيدُ أَنْ تُحْسِنَ الْإِلْتِمَاتَ إِلَيْهِ وَبَالَغَ فِي الْوَصِيَّةِ . ثُمَّ
أَخَذَ الْكِتَابَ وَمَضَى إِلَى مِصْرَ وَعَرَضَهُ عَلَى صَاحِبِهَا . فَلَمَّا وَقَفَ
عَلَيْهِ تَعَجَّبَ مِنْهُ وَفَرِحَ بِهِ . إِلَّا أَنَّهُ حَصَلَ عِنْدَهُ ارْتِيَابٌ وَشَكٌّ فِي
الْكِتَابِ . فَاتَّكَمَ الرَّجُلُ وَأَنْزَلَهُ فِي دَارٍ حَسَنَةٍ وَأَقَامَ لَهُ مَا يَحْتَاجُ
إِلَيْهِ وَأَخَذَ الْكِتَابَ مِنْهُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى وَكِيلِهِ بِبَغْدَادَ وَقَالَ لَهُ : قَدْ وَصَلَ
شَخْصٌ مِنْ أَهْلِ أَصْحَابِ الْوَزِيرِ بِهَذَا الْكِتَابِ وَقَدْ ارْتَبْتُ بِهِ . فَأَرِيدُ
أَنْ تَتَحَقَّقَ لِي عَنْ حَقِيقَةِ الْحَالِ فِي ذَلِكَ . وَعَمَلْ هَذَا خَطُّ الْوَزِيرِ
أَمْ لَا . وَأَرْسَلَ كِتَابَ الْوَزِيرِ صُحْبَةً مَكْتُوبَةً إِلَيْهِ وَكِيلِهِ . فَجَاءَ الْوَكِيلُ
إِلَى وَكِيلِ الْوَزِيرِ وَحَدَّثَهُ بِالْقِصَّةِ وَأَرَاهُ الْكِتَابَ . فَأَخَذَهُ وَكِيلُ
الْوَزِيرِ وَدَخَلَ إِلَى الْوَزِيرِ وَعَرَفَهُ الْحَالُ . فَلَمَّا وَقَفَ جَعْفَرُ بْنُ يَمْحَى
عَلَى الْكِتَابِ عَلِمَ أَنَّهُ مُزَوَّرٌ عَلَيْهِ . وَكَانَ عِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ نُدَمَائِهِ
وَنُوَابِهِ . فَرَمَى الْكِتَابَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ لَهُمْ : أَهَذَا خَطِّي . فَتَأَمَّلُوهُ
وَأَنْكَرُوهُ كُلُّهُمْ وَقَالُوا : هَذَا مُزَوَّرٌ عَلَى الْوَزِيرِ . فَعَرَفَهُمْ صُورَةَ الْحَالِ

وَأَنَّ الَّذِي زَوَّرَ هَذَا الْكِتَابَ مُوجُودٌ بِمِصْرَ عِنْدَ صَاحِبِهَا وَأَنَّهُ يَنْتَظِرُ
عَوْدَ الْجَوَابِ بِتَحْقِيقِ حَالِهِ وَقَالَ لَهُمْ : مَا تَرَوْنَ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ نَفْعَلَ
فِي هَذَا . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَلَ هَذَا الرَّجُلُ حَتَّى تَنْتَحِمَ
هَذِهِ الْمَادَّةُ وَلَا يَرْجِعَ أَحَدٌ يَتَجَرَّأُ عَلَى مِثْلِ هَذَا الْفِعْلِ . وَقَالَ آخَرُ :
يَنْبَغِي أَنْ تُقَطَعَ يَمِينُهُ الَّتِي زَوَّرَ بِهَا هَذَا الْخَطَّ . وَقَالَ آخَرُ : يَنْبَغِي أَنْ
يُوجَعَ ضَرْبًا وَيُطَاقَ حَالُ سَبِيلِهِ . وَكَانَ أَحْسَنُهُمْ مُخَضَّرًا مَنْ دَالَ :
يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَقُوبَتُهُ عَلَى هَذَا الْفِعْلِ حِرْمَانُهُ وَأَنْ يُعْرِفَ صَاحِبُ
مِصْرَ بِحَالِهِ لِيَحْرِمَهُ فَيَكْفِيهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ أَنَّهُ قَدْ قَطَعَ هَذِهِ الْمَسَافَةَ
الْبَعِيدَةَ مِنْ بَغْدَادَ إِلَى مِصْرَ ثُمَّ يَرْجِعُ خَائِبًا . فَلَمَّا فَرَّغُوا مِنْ حَدِيثِهِمْ .
قَالَ جَعْفَرُ : سُبْحَانَ اللَّهِ أَلَيْسَ فَيْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ . قَدْ عَلِمْتُمْ مَا كَانَ
بِيَدِي وَبَيْنَ صَاحِبِ مِصْرَ مِنَ الْعِدَاوَةِ وَالْعِجَابَةِ وَأَنْ كُلَّ وَاحِدٍ
مِنَّا كَانَتْ تَمَنُّهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أَنْ يَفْتَحَ بَابَ الصَّلَاحِ . فَقَدْ قَيَّضَ اللَّهُ
لَنَا رَجُلًا فَفَعَلَ بَيْنَنَا بَابَ الْمَصَالِحَةِ وَالْمُكَاتَبَةِ وَأَزَالَ بَيْنَنَا تِلْكَ
الْعِدَاوَةَ . فَكَيْفَ يَكُونُ جَزَاؤُهُ مَا ذَكَرْتُمْ مِنَ الْإِسَاءَةِ : ثُمَّ أَخَذَ الْقَلَمَ
وَكَتَبَ عَلَى ظَاهِرِ الْكِتَابِ إِلَى صَاحِبِ مِصْرَ : سُبْحَانَ اللَّهِ كَيْفَ
حَصَلَ لَكَ الشَّكُّ فِي خَطِّي . هَذَا خَطُّ يَدِي وَالرَّجُلُ مِنْ أَعَزِّ
أَصْحَابِي وَأُرِيدُ أَنْ تُحْسِنَ إِلَيْهِ وَتُعِيدَهُ إِلَيَّ سَرِيعًا فَإِنِّي مُشْتَاقٌ
إِلَيْهِ مُتَحَيِّجٌ إِلَى حُضُورِهِ : فَلَمَّا وَصَلَ الْكِتَابُ وَفِي ظَاهِرِهِ خَطُّ
الْوَزِيرِ إِلَى صَاحِبِ مِصْرَ كَادَ يَطِيرُ مِنَ الْفَرَحِ وَأَحْسَنَ إِلَى الرَّجُلِ .

غَايَةِ الْإِحْسَانِ وَوَاصَلَهُ بِأَلِ كَثِيرٍ وَتُخَفِّ جَمِيلَةً . ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ رَجَعَ إِلَى بَغْدَادَ وَهُوَ أَحْسَنُ النَّاسِ حَالًا . فَنَحَضَرَ إِلَى مَجْلِسِ جَعْفَرٍ وَوَقَعَ يُقِيلُ الْأَرْضَ وَيَبْكِي . فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ : مَنْ أَنْتَ أَخِي قَالَ : يَا مَوْلَانَا أَنَا عَبْدُكَ وَصَنِيعَتُكَ الْمُرُورُ الْكَذَّابُ الْمُتَجَرِّئُ . فَدَرَفَهُ جَعْفَرٌ وَبَشَّ بِهِ وَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ وَقَالَ لَهُ : كَمْ وَصَلَ إِلَيْكَ مِنْهُ . فَقَالَ : مِئَةٌ أَلْفٍ دِينَارٍ . فَاسْتَقَامَهَا جَعْفَرٌ وَقَالَ : لَا زِمْنَا حَتَّى نُضَاعِفَهَا لَكَ . فَلَا زِمَهُ مُدَّةً فَكَسَبَ مَعَهُ مِثْلَهَا

وَمَا زَالَتْ دَوْلَةُ الْبَرَامِكَةِ فِي عُلُوٍّ وَارْتِفَاعٍ وَرَأْيِدٍ حَتَّى انْحَرَفَتْ عَنْهُمْ الدُّنْيَا . أَمَارَةٌ تَدُلُّ عَلَى انْحِرَافِ دَوْلَتِهِمْ حَدَّثَ بَجْنِيشُوعُ الطَّيِّبُ قَالَ : دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى الرَّشِيدِ وَهُوَ جَالِسٌ فِي قَصْرِ الْخَلْدِ مِنْ مَدِينَةِ السَّلَامِ . وَكَانَ الْبَرَامِكَةُ يَسْكُنُونَ بِجَذَائِهِ مِنْ الْجَانِبِ الْآخِرِ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ عَرْضُ دِجْلَةٍ . قَالَ : فَظَنَرَ الرَّشِيدُ فَرَأَى انْعِثْرَاكَ الْخُيُولِ وَازْدِحَامَ النَّاسِ عَلَى بَابِ يَمْحَى بْنِ خَالِدٍ فَقَالَ : حَزَى اللَّهُ يَمْحَى خَيْرًا تَصَدَّى لِلْأُمُورِ وَأَرَاخِنِي مِنَ الْكَذِّ وَوَقَرْتُ أَوْقَاتِي عَلَى اللَّذَّةِ . ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَيْهِ بَعْدَ أَوْقَاتٍ . وَقَدْ شَرَعَ يَتَغَيَّرُ عَلَيْهِمْ . فَظَنَرَ فَرَأَى الْخُيُولَ كَمَا رَأَاهَا تِلْكَ الْمَرَّةَ . فَقَالَ اسْتَبَدَّ يَمْحَى بِالْأُمُورِ دُونِي . فَالْخِلَافَةُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَهُ وَلَيْسَ لِي مِنْهَا إِلَّا اسْمُهَا . قَالَ : فَعَلِمْتُ أَنَّهُ سَيَنْكَبُهُمْ ثُمَّ نَكَبَهُمْ عَقِيبَ ذَلِكَ .

شرح السَّبَبِ فِي نَكْبَةِ الْبَرَامِكَةِ وَكَيْفَةِ الْحَالِ فِي ذَلِكَ

اِخْتَلَفَ أَصْحَابُ السِّيَرِ وَالتَّوَارِيخِ فِي ذَلِكَ . فَقِيلَ كَانَ سَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الرَّشِيدَ كَلَّفَ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى قَتْلَ رَجُلٍ مِنْ آلِ أَبِي طَالِبٍ . فَتَخَرَّجَ جَعْفَرُ مِنْ ذَلِكَ . وَأَطْلَقَ الطَّالِبِيُّ وَسُيِّئَ إِلَى الرَّشِيدِ بِجَعْفَرٍ فَقَالَ لَهُ : مَا فَعَلَ الطَّالِبِيُّ قَالَ : هُوَ فِي الْحَبْسِ : قَالَ الرَّشِيدُ : بِحَيَاتِي . فَقَطَّنَ جَعْفَرَ قَالَ : لَا وَحَيَاتِكَ وَلَكِنْ أَعْلَقْتَهُ لِأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ مَكْرُوهٌ . فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : نَعَمْ مَا فَعَلْتَ . فَلَمَّا قَامَ جَعْفَرُ قَالَ الرَّشِيدُ : قَتَلَنِي اللَّهُ إِنْ لَمْ أَقْتُلْكَ ثُمَّ نَكَبَهُمْ

وَقِيلَ إِنَّ أَعْدَاءَ الْبَرَامِكَةِ مِثْلَ الْفَضْلِ بْنِ الرَّيِّعِ . مَا زَالُوا يَسْعَوْنَ بِهِمْ إِلَى الرَّشِيدِ وَيَذْكُرُونَ لَهُ أَسْتَبْدَادَهُمْ بِالْمُلْكِ وَاجْتِنَانَهُمْ لِلْأَمْوَالِ حَتَّى أَوْغَرُوا صَدْرَهُ فَأَوْقَعَ بِهِمْ

وَقِيلَ إِنَّ جَعْفَرَ وَالْفَضْلَ ابْنَيْ يَحْيَى ظَهَرَ مِنْهُمَا مِنَ الْإِذْلَالِ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ نَفْسُ الْمُلُوكِ . فَنَكَبَهُمْ لِذَلِكَ

وَقِيلَ إِنَّ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ رُئِيَ وَهُوَ بِمَكَّةَ يَطُوفُ حَوْلَ الْكَبَةِ وَيَقُولُ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ رِضَاكَ فِي أَنْ تَسْلُبَنِي أَهْلِي وَمَالِي وَوَلَدِي . فَأَسْلُبْنِي إِلَّا الْفَضْلَ وَلَدِي . ثُمَّ وَثَى فَلَمَّا مَشَى قَلِيلًا عَادَ وَقَالَ : يَا رَبِّ إِنَّهُ سَمِعْتُ عِثْلِي أَنْ يَسْتَنِي عَلَيْكَ اللَّهُمَّ وَالْفَضْلَ . فَنَكَبَهُمُ الرَّشِيدُ بَعْدَ قَلِيلٍ وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ

شرح مقتل جعفر بن يحيى
والقبض على أهله

كَانَ الرَّشِيدُ قَدْ حَجَّ . فَلَمَّا عَادَ مِنَ الْحَجِّ سَارَ مِنَ الْحِيرَةِ إِلَى
الْأَنْبَارِ فِي السُّفْنِ وَجَعَلَ يَشْرَبُ وَرَكِبَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى إِلَى الصَّيْدِ
وَجَعَلَ يَشْرَبُ تَارَةً وَيَهُوْ أُخْرَى وَتَحَفُّ الرَّشِيدُ وَهَدَايَاهُ تَأْتِيهِ
وَعِنْدَهُ يُخْتِشِوْعُ الطَّيِّبُ وَأَبُو زَكَارِي الْأَعْمَى يُغْنِيهِ فَلَمَّا أَظْلَمَ الْأَسَاءُ
دَعَا الرَّشِيدُ مَسْرُورًا الْخَادِمَ . وَكَانَ مُبْغِضًا لَجَعْفَرٍ وَقَالَ : أَذْهَبَ فَجِئَنِي
بِرَأْسِ جَعْفَرٍ وَلَا تَزَاجِفْنِي . فَوَافَاهُ مَسْرُورٌ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَهَجَمَ عَلَيْهِ
وَأَبُو زَكَارِي يُغْنِيهِ

فَلَا تَبْعُدُ فَكُلُّ فِتْنَى سَيَأْتِي عَلَيْهِ أَلَوْتُ يَطْرُقُ أَوْ يُعَادِي
فَلَمَّا دَخَلَ مَسْرُورٌ قَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى : لَقَدْ سَرَرْتَنِي
بِعَمَلِكَ وَسُؤْتِي بِدُخُولِكَ عَلَيَّ بِغَيْرِ إِذْنٍ . فَقَالَ الَّذِي جِئْتُ بِهِ
أَعْظَمُ أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا يُرِيدُ بِكَ . فَوَقَعَ عَلَى رِجْلَيْهِ
فَقَبَّلَهُمَا وَقَالَ لَهُ : عَاوِذُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ الشَّرَابَ قَدْ حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ
وَقَالَ : دَعْنِي أَدْخُلُ دَارِي فَأَوْصِي . فَقَالَ : الدُّخُولُ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ .
وَأَمَّا الْوَصِيَّةُ فَأَوْصِ بِمَا بَدَأَ لَكَ فَأَوْصَى . ثُمَّ حَمَلَهُ إِلَى مَنْزِلِ الرَّشِيدِ
وَعَدَلَ بِهِ إِلَى قُبَّةٍ وَضَرَبَ عُنُقَهُ وَأَتَى بِرَأْسِهِ عَلَى تَرْسٍ إِلَى الرَّشِيدِ
وَبَدَنِهِ فِي نَظْمٍ وَوَجَّهَ الرَّشِيدُ فَقَبَضَ عَلَى أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ وَأَهْلِهِ
وَأَصْحَابِهِ وَجَسَّهْمُ بِالرَّقَّةِ وَاسْتَأْصَلَ شَافِقَتَهُمْ . وَمِنْ ظَرْفِهِ مَا وَقَعَ

فِي ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْعِمْرَانِيُّ الْمَوْرِخُ قَالَ: حَدَّثَ فُلَانٌ قَالَ: دَخَلْتُ
 الدِّيَّوَانَ فَتَطَرْتُ فِي بَعْضِ تَذَاكُرِ الثُّوَابِ فَرَأَيْتُ فِيهَا أَرْبَعَ مِائَةِ أَلْفِ
 دِينَارٍ مِمَّنْ خَلَعَهُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى الْوَزِيرُ. ثُمَّ دَخَلْتُ بَعْدَ أَيَّامٍ فَرَأَيْتُ
 تَحْتَ ذَلِكَ عَشْرَةَ قَرَارِيضَ مِمَّنْ نَفِطَ وَبَوَارِي لِإِحْرَاقِ جُثَّةِ جَعْفَرِ
 بْنِ يَحْيَى فَحَبِطَ مِنْ ذَلِكَ. ثُمَّ اسْتَوَزَرَ الرَّشِيدُ بَعْدَ الْبَرَامِكَةِ
 الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ وَكَانَ حَاجِبُهُ

وِزَارَةُ أَبِي الْعَبَّاسِ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ.

فَكَانَ حَاجِبًا لِلْمَنْصُورِ وَالْمُهْدِيِّ وَالْهَادِي وَالرَّشِيدِ. فَلَمَّا نَكَبَ
 الرَّشِيدُ الْبَرَامِكَةَ اسْتَوَزَرَهُ بَعْدَهُمْ. كَانَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ شَهْمًا
 خَبِيرًا بِأَحْوَالِ الْمُلُوكِ وَأَذَاهِمِ. وَلَمَّا وَلِيَ الْوِزَارَةَ تَهَوَّسَ بِالْأَدَبِ
 وَجَمَعَ إِلَيْهِ أَهْلَ الْعِلْمِ فَحَصَلَ مِنْهُ مَا أَرَادَ فِي مُدَّةٍ يَسِيرَةٍ. وَكَانَ
 أَبُو نُوَّاسٍ مِنْ شُعْرَائِهِ الْمُتَقَطِّعِينَ إِلَيْهِ فَمِنْ شِعْرِهِ فِي آلِ الرَّبِيعِ
 عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إِذَا اضْطَرَمَّ الْوَعْيُ

وَالْفَضْلُ فَضْلٌ وَالرَّبِيعُ رَبِيعٌ

وَمَا زَالَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ عَلَى وِزَارَتِهِ إِلَى أَنْ مَاتَ الرَّشِيدُ

بَطُوسَ. فَجَمَعَ الْفَضْلُ الْعَسْكَرَ وَمَا فِيهِ وَرَجَعَ إِلَى بَغْدَادَ. أَنْتَهَى
 ذِكْرُ خِلَافَةِ هُرُونِ الرَّشِيدِ

ذِكْرُ خِلَافَةِ أَبِي أَحْمَدَ عَبْدِ اللَّهِ

الْمُسْتَعَصِمِ بِاللَّهِ

بُويجَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ فِي سَنَةِ أَرْبَعِينَ وَسِتِّينَ هُوَ آخِرُ الْخُلَفَاءِ (١).
كَانَ الْمُسْتَعَصِمُ رَجُلًا خَيْرًا مُتَدَيِّنًا لَيْنَ الْجَانِبِ سَهْلَ الْعَرِيكََةِ غَفِيفَ
الْأَسَانِ طَاهِرَ الذَّلِيلِ حَمَلَ الْكِتَابَ وَكَتَبَ خَطًّا مَيِّمًا وَكَانَ سَهْلَ
الْأَخْلَاقِ وَكَانَ خَفِيفَ الْوُطْأَةِ. إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مُسْتَضْعَفَ الرَّأْيِ
ضَعِيفَ الْبَطْشِ قَلِيلَ الْخَبَرَةِ بِأُمُورِ الْمَمْلَكَةِ. مَطْمُوعًا فِيهِ غَيْرَ مَهِيْبٍ
فِي النُّفُوسِ وَلَا مُطَّلِعَ عَلَى حَقَائِقِ الْأُمُورِ. وَكَانَ زَمَانُهُ يَنْبَغِي
أَكْثَرُهُ بِسَمَاعِ الْأَغَانِيِ وَالْتَمَرُجِ عَلَى الْمَسَاخِرَةِ. وَفِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ

(١) الخلفاء هم الذين خلفوا محمد بن عبد الله بني الاسلام وتولوا الامر من بعده
بين العرب وكان في يدهم امر السياسة والدين معاً. وهم اولاً خلفاء المشرق وكانت
دار خلافتهم مكة الى وفاة الامام علي بن ابي طالب. ثم الشام في دولة بني امية. ثم بغداد
في دولة بني العباس. وكانت مدتهم جميعاً ٦٣٢ سنة وذلك من سنة ٦٣٦ للميلاد الى
سنة ١٢٥٨

ثانياً خلفاء الاتدلس راول من ولي الخلافة هنالك عبد الرحمن الاموي من ملوك
الشام وذلك سنة ٦٥٧ وكانت مدتهم ٣٧٤ سنة اي من التاريخ المذكور الى سنة ١٠٣١
ثالثاً خلفاء مصر وهم الفاطميون واول من ولي الخلافة منهم عُبيد الله من سلالة
فاطمة بنت محمد وذلك سنة ٩٠٩ واستمرت خلافتهم ٢٦٢ سنة حتى اضطحلّت سنة
١١٧١ على يد الملك صلاح الدين الايوبي

وكان تقليد الخلافة في صدر الاسلام بالمبايعة الى ان جاء معاوية بن ابي سفيان
الاموي في آخر القرن الاول فمسخ المبايعة وقرّر الخلافة في صلبه واستمر الحال على ذلك
الى سنة ٩٣٥ حيث خلعهم امير الامراء عن امر السياسة. وبقيت الخلافة متداركة
بين العرب الى ظهور السلطان سليم العثماني فاستلم الخلافة من المتوكل آخر خلفاء بني العباس
وذلك سنة ١٥١٦ فكانت مدة جميعهم ٨٨٠ سنة (بولي)

يَجْلِسُ بِخِزَانَةِ الْكُتُبِ جُلُوسًا لَيْسَ فِيهِ كَبِيرٌ فَإِنْدَةً . وَكَانَ أَصْحَابُهُ
مُسْتَوِينَ عَلَيْهِ وَكُلُّهُمْ جُهَالٌ مِنْ أَرْدَالِ الْعَوَامِّ إِلَّا وَزِيرَهُ مُؤَيَّدُ
الَّذِينَ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلْقَمِيِّ . فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَعْيَانِ النَّاسِ وَعُقْلَاءِ الرِّجَالِ .
وَكَانَ مَكْفُوفَ الْيَدِ مَرْدُودَ الْقَوْلِ يَتَرَقَّبُ الْعَزَلَ وَالْقَبْضَ صَبَاحَ
مَسَاءً . وَكَانَتْ عَادَةُ الْخُلَفَاءِ أَكْثَرِهِمْ أَنْ يَخْبِسُوا أَوْلَادَهُمْ وَأَقَارِبَهُمْ
وَبِذَلِكَ جَرَتْ سُنَّتُهُمْ إِلَى آخِرِ أَيَّامِ الْمُسْتَنْصِرِ . فَلَمَّا وَلِيَ الْمُسْتَعْصِمُ
أَطْلَقَ أَوْلَادَهُ الثَّلَاثَةَ وَلَمْ يَخْبِسْهُمْ وَهُمْ الْأَمِيرُ الْكَبِيرُ أَبُو الْعَبَّاسِ
أَحْمَدُ وَالْعَامَّةُ تُسَمِّيهِ أَبَا بَكْرٍ لَيْسَ بِصَحِيحٍ وَإِنَّمَا سَمَّوْهُ بِذَلِكَ
لَأَنَّهُ لَمَّا نَهَبَ الْكَرْخَ لُصْبَ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ إِلَيْهِ . وَقِيلَ إِنَّهُ هُوَ
الَّذِي أَشَارَ بِذَلِكَ وَالْأَمِيرُ الْأَوْسَطُ وَهُوَ أَبُو الْفَضَائِلِ عَبْدُ
الرَّحْمَنِ كَانَ شَهْمًا خَرَجَ إِلَى بَيْنِ يَدَيِ السُّلْطَانِ هُوَ لَا كُوْ وَوَقَعَ
كَلَامُهُ بِمَوْضِعِ الْإِسْتِحْسَانِ فِي الْحُضْرَةِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالْأَمِيرُ الْأَصْغَرُ
أَبُو الْمُنَاقِبِ

حَدَّثَنِي صَفِيُّ الدِّينِ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنُ فَاحِرٍ الْأَرْمَوِيُّ وَكَانَ قَدْ
صَارَ فِي آخِرِ أَيَّامِ الْمُسْتَعْصِمِ مُقَرَّبًا عِنْدَهُ وَمِنْ خَوَاصِهِ . وَكَانَ قَدْ
اسْتَعَدَّ فِي آخِرِ أَيَّامِهِ خِزَانَةَ كُتُبٍ وَنَقَلَ إِلَيْهَا مِنْ نَفَائِسِ الْكُتُبِ
وَسَلَّمَ مَفَاتِيحَهَا إِلَى عَبْدِ الْمُؤْمِنِ . فَصَارَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ يَجْلِسُ بِبَابِ
الْخِزَانَةِ يَنْسُخُ لَهُ مَا يُرِيدُ . وَإِذَا خَطَرَ لِلْخَلِيفَةِ الْجُلُوسُ فِي خِزَانَةِ
الْكُتُبِ جَاءَ إِلَيْهَا وَعَدَلَ عَنْ الْخِزَانَةِ الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ مُسَامَةً

إِلَى الشَّيْخِ صَدْرِ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ النَّيَّارِ . قَالَ . أَغْنَى عَبْدَ الْمُؤْمِنِ :
 كُنْتُ مَرَّةً جَالِسًا فِي حُجْرَةٍ صَغِيرَةٍ وَأَنَا أَلَسُّخُ وَهُنَاكَ مَرْتَبَةٌ بِرِسْمِ
 الْخَلِيفَةِ إِذَا جَاءَ إِلَى هَذَاكَ جَلَسَ عَلَيْهَا وَقَدْ بُسِطَتْ عَلَيْهَا مِلْحَفَةٌ
 لَتَرُدَّ عَنْهَا الْغُبَارُ . فَجَاءَ خُوَيْدِيمٌ صَغِيرٌ وَنَامَ قَرِيبًا مِنَ الْمَرْتَبَةِ الْمَذْكُورَةِ
 وَأَسْتَفْرَقَ فِي النَّوْمِ فَتَقَلَّبَ حَتَّى تَلَقَّفَ فِي تِلْكَ الْمِلْحَفَةِ الْمَبْسُوطَةِ
 عَلَى الْمَرْتَبَةِ ثُمَّ تَقَابَ حَتَّى صَاوَتْ رِجْلَاهُ عَلَى الْمُسْنَدِ . قَالَ وَأَنَا
 مَشْغُولٌ بِالسَّخِّ فَاخْسَسْتُ يَوْطَهُ فِي الدَّهْلِيزِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ الْخَلِيفَةُ
 وَهُوَ يَسْتَدْعِينِي بِالْإِشَارَةِ وَيُخَفِّفُ وَطْأَهُ . فَنُصْتُ إِلَيْهِ مُنْزَعَجًا وَقَبَّاتُ
 الْأَرْضِ فَقَالَ لِي : هَذَا الْخُوَيْدِيمُ الَّذِي قَدْ نَامَ حَتَّى تَلَقَّفَ فِي هَذِهِ
 الْمِلْحَفَةِ وَصَارَتْ رِجْلَاهُ عَلَى الْمُسْنَدِ مَتَى هَجَمْتُ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ
 وَيَعْلَمُ أَنِّي قَدْ شَاهَدْتُهُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ تَنْقَطِرُ مَرَارَتُهُ مِنَ الْخَوْفِ .
 فَأَيِّقْظُهُ أَنْتَ بِرِفْقٍ فَإِنِّي سَأَخْرُجُ إِلَى الْبُسْتَانِ ثُمَّ أَعُودُ . قَالَ
 وَخَرَجَ الْخَلِيفَةُ فَدَخَلْتُ إِلَى الْخُوَيْدِيمِ وَأَيَّقَظْتُهُ فَأَنْتَبَهَ ثُمَّ أَصْلَحْنَا
 الْمَرْتَبَةَ ثُمَّ دَخَلَ الْخَلِيفَةُ

وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ بَغْدَادَ حَدَّثْتُ أَنَّ الشَّيْخَ صَدَرَ الدِّينِ بْنِ
 النَّيَّارِ شَيْخَ الْخَلِيفَةِ قَالَ : دَخَلْتُ مَرَّةً إِلَى خِزَانَةِ الْكُتُبِ عَلَى عَادَتِي
 وَفِي كُفِّي مِنْدِيلٌ فِيهِ رِقَاعٌ كَثِيرَةٌ لِمَجَامِعَةٍ مِنْ أَرْبَابِ الْحَوَائِجِ
 فَطَرَحْتُ الْمِنْدِيلَ وَفِيهِ الرِّقَاعُ فِي مَوْضِعِي ثُمَّ قُمْتُ لِبَعْضِ شَأْنِي .
 فَلَمَّا عُدْتُ إِلَى الْخِزَانَةِ بَعْدَ سَاعَةٍ سَمِعْتُ الرِّقَاعَ مِنَ الْمِنْدِيلِ حَتَّى

أَتَامَهَا وَأَقْدَمَ مِنْهَا الْمُهَمَّ فَرَأَتْهَا جَمِيعَهَا وَعَالِيَهَا تَوَفَّعَ الْخَلِيفَةُ بِالْإِجَابَةِ إِلَى جَمِيعِ مَا فِيهَا . فَعَلِمْتُ أَنَّ الْخَلِيفَةَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْحِزَانَةِ عِنْدَ قِيَامِي فَرَأَى الْإِنْدِيلَ فِيهِ الرِّفَاعَ فَفَتَحَهَا وَوَقَعَ عَلَى جَمِيعِهَا

وَالْأَسْتَعْصِمُ هُوَ آخِرُ خُلَفَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِبَغْدَادَ وَلَمْ يَجْرِ فِي أَيَّامِ الْأَسْتَعْصِمِ شَيْءٌ يُؤْثِرُ سِوَى نَهَبِ الْكُرْخِ وَبَلْسِ الْأَثَرُ ذَلِكَ . وَفِي آخِرِ أَيَّامِهِ قَوِيَتْ الْأَرَاخِيفُ بِوُضْعُولِ عَسْكَرِ الْأُمُولِ صُخْبَةَ السُّلْطَانِ هُوَلَا كُوفَلَمْ يُجْرِكَ ذَلِكَ مِنْهُ عَزَمًا وَلَا نَبَهَ مِنْهُ هِمَّةٌ وَلَا أَحْدَثَ عِنْدَهُ هَمًّا . وَكَانَ كُلَّمَا سَمِعَ عَنِ السُّلْطَانِ مِنَ الْإِخْتِيَاظِ وَالْإِسْتِعْدَادِ شَيْءٌ ظَهَرَ مِنَ الْخَلِيفَةِ نَقِضُهُ مِنَ التَّقْرِيطِ وَالْإِهْمَالِ . وَلَمْ يَكُنْ يَتَصَوَّرُ حَقِيقَةَ الْحَالِ فِي ذَلِكَ وَلَا يَدْرِي هَذِهِ الدَّوْلَةُ يَسَّرَ اللَّهُ إِحْسَانَهَا وَأَعْلَى شَأْنَهَا حَقَّ الْمَعْرِفَةِ . وَكَانَ وَزِيرُهُ مُؤَيَّدُ الدِّينِ بْنُ الْعَلَقَمِيِّ يَدْرِي حَقِيقَةَ الْحَالِ فِي ذَلِكَ وَيُكَاتِبُهُ بِالنَّحْذِيرِ وَالنَّتِيبِ وَيُشِيرُ عَلَيْهِ بِالتَّقِيطِ وَالْإِسْتِعْدَادِ وَهُوَ لَا يَزْدَادُ إِلَّا عُفُولًا . وَكَانَ خَوَاصُّهُ يُوهَمُونَهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي هَذَا كَبِيرُ خَطَرٍ وَلَا هُنَاكَ مُحْذُورٌ وَأَنَّ الْوَزِيرَ إِنَّمَا يُعْظِمُ هَذَا لِيُنْفِقَ سُوقَهُ وَلِيَتَبَرَّزَ إِلَيْهِ الْأُمُوالُ لِيَجْنِدَ بِهَا الْمَسَاكِرَ فَيَقْتَطِعَ مِنْهَا لِنَفْسِهِ . وَمَا زَالَتْ غَفْلَةُ الْخَلِيفَةِ تَنْبِي وَيَفْظُهُ الْجَانِبِ الْآخِرُ تَضَاعَفُ حَتَّى وَصَلَ الْعَسْكَرُ السُّلْطَانِي إِلَى هَمْدَانَ وَأَقَامَ بِهَا مُدِيدَةً . ثُمَّ تَوَاتَرَتْ الرُّسُلُ السُّلْطَانِيَّةُ إِلَى الدِّيَوَانِ الْأَسْتَعْصِمِيِّ فَوَقَعَ الْمُتَعَيِّنُ مِنَ دِيَوَانِ الْخَلِيفَةِ عَلَى وَلَدِ أَسْتَاذِ الدَّارِ

وَهُوَ شَرَفُ الدِّينِ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الْجُوزِيِّ قُبِثَ رَسُولًا إِلَى خِدْمَةِ
الْدَّرْكَاهِ السُّلْطَانِيَّةِ بِهَمْدَانَ . فَلَمَّا وَصَلَ وَسَمِعَ جَوَابَهُ عَظِمَ أَنَّهُ جَوَابُ
مُغَالَطَةٍ وَمُدَافَعَةٍ

فَحِينَئِذٍ وَقَعَ الشَّرُوعُ فِي قَصْدِ بَغْدَادَ وَبَثَّ الْعَسَاكِرَ إِلَيْهَا .
فَتَوَجَّهَ عَسْكَرُ كَثِيفٌ مِنَ الْمُغُولِ وَالْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ بَاجُو إِلَى تِكْرِيتَ
لِيَعْبُرُوا مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَانِبِ الْفَرَسِيِّ وَيَقْصِدُوا بَغْدَادَ مِنْ غَرْبِهَا
وَيَقْصِدَهَا الْعَسْكَرُ السُّلْطَانِيُّ مِنْ شَرْقِهَا . فَلَمَّا عَبَرَ عَسْكَرُ بَاجُو مِنْ
تِكْرِيتَ وَاتَّخَذَ إِلَى أَعْمَالِ بَغْدَادَ أَجْزَلَ النَّاسِ مِنْ دُجَيْلٍ وَالْإِسْحَاقِيِّ
وَنَهْرِ مَلِكٍ وَنَهْرِ عَيْسَى وَدَخَلُوا إِلَى الْمَدِينَةِ بِنِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ
حَتَّى كَانَ الرَّجُلُ أَوْ الْمَرْأَةُ يَهْدِفُ بِنَفْسِهِ فِي الْمَاءِ وَكَانَ الْمَلَّاحُ إِذَا
عَبَرَ أَحَدًا فِي سَفِينَةٍ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ يَأْخُذُ أَجْرَهُ سَوَادًا مِنْ
ذَهَبٍ أَوْ طَرَاذًا مِنْ زَرْكَشٍ أَوْ عِدَّةٍ مِنَ الدَّنَانِيرِ . فَلَمَّا وَصَلَ
الْعَسْكَرُ السُّلْطَانِيُّ إِلَى دُجَيْلٍ وَهُوَ يَزِيدُ عَلَى ثَلَاثِينَ أَلْفَ فَارِسٍ
خَرَجَ إِلَيْهِ عَسْكَرُ الْخَلِيفَةِ صُحْبَةً مُقَدَّمِ الْجُيُوشِ مُجَاهِدِ الدِّينِ أَبِيكَ
الدَّوِيدَارِ وَكَانَ عَسْكَرًا فِي غَايَةِ الْقِلَّةِ . فَاتَّقُوا بِالْجَانِبِ الْفَرَسِيِّ
مِنْ بَغْدَادَ قَرِيبًا مِنَ الْبَلَدِ فَكَانَتْ الْقَلْبَةُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ لِعَسْكَرِ
الْخَلِيفَةِ . ثُمَّ كَانَتْ الْكُرَّةُ لِلْعَسْكَرِ السُّلْطَانِيِّ فَأَبَادُوهُمْ قَتْلًا وَأَسْرًا .
وَأَعَانَهُمْ عَلَى ذَلِكَ نَهْرٌ فَتَحَوْهُ فِي طُولِ اللَّيْلِ فَكَثُرَتْ الْوُحُولُ فِي
طَرِيقِ الْمُنْهَزِمِينَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ رَمَى نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ أَوْ

مَنْ دَخَلَ الْبَرِّيَّةَ وَمَضَى عَلَى وَجْهِهِ إِلَى الشَّامِ . وَتَجَا الدَّوِيدَارُ فِي
جَمِيعَةٍ مِنْ عَسَاكِرِهِ وَوَصَلَ إِلَى بَغْدَادَ وَسَاقَ بَاجُوحًا حَتَّى دَخَلَ الْبَلَدَ
مِنْ جَانِبِهِ الْقُرْبِيِّ وَوَقَفَ بِعَسَاكِرِهِ مُحَازِي التَّاجَ وَجَاسَتْ عَسَاكِرُهُ
خِلَالَ الدِّيَارِ وَأَقَامَ مُحَازِي التَّاجِ أَيَّامًا

أَمَّا حَالُ الْعَسْكَرِ السُّلْطَانِيِّ فَإِنَّهُ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ رَابِعِ مُحَرَّمٍ
مِنْ سَنَةِ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ثَارَتْ غَبْرَةٌ عَظِيمَةٌ شَرْقِيَّ بَغْدَادَ
عَلَى دَرَبٍ يَنْقُوبُ بِحَيْثُ عَمَّتِ الْبَلَدَ فَارْتَجَحَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ وَصَعِدُوا
إِلَى أَعَالِي السُّطُوحِ وَالْمَنَائِرِ يَتَشَوَّفُونَ . فَأُنْكَشِفَتِ الْغَبْرَةُ عَنْ عَسَاكِرِ
السُّلْطَانِ وَخُيُولِهِ وَلِقْفِهِ وَكِرَاعِهِ وَقَدْ طَبَّقَ وَجْهَ الْأَرْضِ وَأَحَاطَ
بِبَغْدَادَ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا . ثُمَّ شَرَعُوا فِي اسْتِعْمَالِ أَسْبَابِ الْحِصَارِ
وَشَرَعَ الْعَسْكَرُ الْخَلِيفِي فِي الْمُدَافَعَةِ وَالْمُقَاوَمَةِ إِلَى يَوْمِ تَالِعِ وَعِشْرِي
مُحَرَّمٍ . فَلَمْ يَشْعُرِ النَّاسُ إِلَّا وَرَايَاتُ الْمَغُولِ ظَاهِرَةً عَلَى سُورِ بَغْدَادَ
مِنْ بَرْجٍ يُسَمَّى بَرْجَ الْعَجَبِيِّ مِنْ نَاحِيَةِ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ بَغْدَادَ يُقَالُ
بَابُ كَلْوَازِي . وَكَانَ هَذَا الْبَرْجُ أَقْصَرَ أَرْجَ السُّورِ . وَتَقَعَّمَ الْعَسْكَرُ
السُّلْطَانِيُّ هُجُومًا وَدَخُلَا فَجَرِي مِنَ الْقَتْلِ الذَّرِيعِ وَالنَّهْبِ الْعَظِيمِ
وَالْتِهْتِكِ الْبَلِيغِ مَا يَعْظُمُ سَمَاعُهُ جَمَلَةً . فَمَا الظَّنُّ بِتَقَاصِيلِهِ وَكَانَ مَا كَانَ
بِمَا لَسْتُ أَذْكُرُهُ فَظَنُّ ظَنًّا وَلَا تَسْأَلْ عَنِ الْخَبَرِ . وَأَمَرَ السُّلْطَانُ بِخُرُوجِ
الْخَلِيفَةِ وَوَلَدِهِ وَنِسَائِهِ إِلَيْهِ . فَخَرَجُوا فَحَضَرَ الْخَلِيفَةُ بَيْنَ يَدَيْ
الَّذِي كَاهُ . فَيُقَالُ إِنَّهُ عَوْتَبَ وَوَبَّخَ بِمَا مَعْنَاهُ نِسَبَةُ الْعَجَزِ وَالْتَهْرِيطِ

وَالْفُؤْلَ إِلَيْهِ . ثُمَّ أُوصِلَ إِلَى الْيَاسَا (١) وَوَلَدَاهُ الْأَكْبَرُ وَالْأَوْسَطُ .
وَأَمَّا بَنَاتُهُ فَأُسْرِنَ ثُمَّ اسْتَشْهَدَ الْمُسْتَعْصِمُ فِي رَابِعِ صَفَرِ سَنَةِ سِتِّ
وَحَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ

إِنْتَهَى ذِكْرُ خِلَافَةِ الْمُسْتَعْصِمِ بِاللهِ

(١) الياساهي قانون الجنابات في دولة المنقول



مِنْ كِتَابِ

الْمَوَاعِظِ وَالْأَعْتَابِ فِي ذِكْرِ الْخِطَاطِ وَالْأَثَارِ

لِتَقْبِي الدِّينِ الْمُفْرِزِيِّ

ذِكْرُ خِلَافَةِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ (١)

الْحَاكِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ أَبُو عَلِيٍّ مَنْصُورُ بْنُ الْعَزِيزِ زَرَارِ بْنِ الْمُعَزِّ لَدِينِ
اللَّهِ أَبِي تَيْمٍ مَعْدِي وَلِدَ بِالْقَصْرِ مِنَ الْقَاهِرَةِ الْمُعِزِّيَّةِ لَيْلَةَ الْخَمِيسِ
الثَّلَاثِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الْأَوَّلِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِينَ
فِي السَّاعَةِ الثَّلَاثَةِ وَالطَّالِعِ مِنْ بَرْجِ السَّرَطَانِ سَبْعٌ وَعِشْرُونَ
دَرَجَةً . وَسَلِّمَ عَلَيْهِ بِالْخِلَافَةِ فِي مَدِينَةِ بَلْبَاسٍ بَعْدَ الظُّهْرِ مِنْ يَوْمِ
الثَّلَاثَاءِ ثَامِنِ وَعِشْرِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِينَ .
وَسَارَ إِلَى الْقَاهِرَةِ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ بِسَائِرِ أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَالْعَزِيزُ
فِي قُبَّةٍ عَلَى نَاقَةٍ بَيْنَ يَدَيْهِ . وَعَلَى الْحَاكِمِ دُرَاعَةٌ مُصَمَّمَةٌ وَعِمَامَةٌ فِيهَا
الْجَوْهَرُ وَيَبْدُهُ رُمَحٌ وَقَدْ تَقَلَّدَ السِّيفَ وَلَمْ يُفْقَدْ مِنْ جَمِيعِ مَا كَانَ
مَعَ الْعَسَاكِرِ شَيْءٌ وَدَخَلَ الْقَصْرَ قَبْلَ صَلَوةِ الْمَغْرِبِ . وَأَخَذَ فِي

(٢) الحاكم بامر الله هو احد الخلفاء الفاطميين بمصر ولي العهد بعد ابيه سنة ٩٩٦
وكان شرساً جائراً سفك دماء واضطهد اليهود والنصارى وامر بقطع الكرم . وكانت
وفاته سنة ١٠٢١ قتل بعد فتى من المسلمين . وكان يدعي انه من سلالة علي ابن ابي
طالب ويدعو نفسه امير المؤمنين والقائم مقام الله وعدل عن دين محمد واقام ديناً
جديداً وهو دين الدروز المقيمين الآن في سورية ومصر واصحابه يزعمون انه نقل
الى السماء (بولي)

جَهَازِ أَبِيهِ الْعَزِيزِ بِاللَّهِ وَدَفَنَهُ. ثُمَّ بَكَرَ سَائِرُ أَهْلِ الدَّوْلَةِ إِلَى الْقَصْرِ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَقَدْ نُسِبَ لِلْحَاكِمِ سَرِيرٌ مِنْ ذَهَبٍ عَلَيْهِ مَرْتَبَةُ مُذَهَّبَةٌ فِي الْإِيوَانِ الْكَبِيرِ. وَخَرَجَ مِنْ قَصْرِهِ رَاكِبًا وَعَلَيْهِ مُعَمَّةُ الْجَوْهَرِ وَالنَّاسُ وَقُوفٌ فِي صَحْنِ الْإِيوَانِ. فَهَبَلُوا لَهُ الْأَرْضَ وَمَشُوا بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى جَلَسَ عَلَى السَّرِيرِ. فَوَقَفَ مِنْ رَسْمِهِ الْوُقُوفُ وَجَلَسَ مِنْ لَهُ عَادَةٌ أَنْ يَجْلِسَ وَسَلَّمَ الْجَمِيعُ عَلَيْهِ بِالْإِمَامَةِ وَاللَّقَبِ الَّذِي اخْتِيرَ لَهُ وَهُوَ الْحَاكِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ وَكَانَ سِنُهُ يَوْمَئِذٍ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً وَخَمْسَةَ أَشْهُرٍ وَسِتَّةَ أَيَّامٍ.

فَجَعَلَ أَبَا مُحَمَّدٍ الْحَسَنَ بْنَ عَمَّارٍ الْكَتَائِيَّ وَاسِطَةً وَلَقَّبَهُ بِأَمِينِ الدَّوْلَةِ وَأَسْقَطَ مَكُوسًا كَانَتْ بِالسَّاحِلِ وَرَدَّ إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ جَوْهَرٍ الْقَائِدِ الْبَرِيدَ وَالْإِنْشَاءَ. فَكَانَ يَخْلُفُهُ ابْنُ سُورِينَ وَأَقْرَبُ عَيْسَى بْنِ نَسْطُورُسَ عَلَى دِيوَانِ الْخَاصِّ وَقَدْ سُلِّمَانَ بْنَ جَعْفَرِ بْنِ فَلَاحِ الشَّامِ. فَخَرَجَ بَنَجُوتِكِينَ بِدِمَشْقَ وَسَارَ مِنْهَا لِدَافِعَةِ سُلِّمَانَ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ فَلَاحِ. فَلَبَغَ الرَّمْلَةَ وَأَنْضَمَّ إِلَيْهِ ابْنُ الْجَرَّاحِ الطَّائِيُّ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْعَرَبِ وَوَأَقَعَ ابْنُ فَلَاحٍ فَانْهَزَمَ وَفَرَّ. ثُمَّ أُسِرَ وَجُمِلَ إِلَى الْقَاهِرَةِ فَأُكْرِمَ. وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الدَّوْلَةِ عَلَى ابْنِ عَمَّارٍ وَوَقَعَتْ حُرُوبٌ آلَتْ إِلَى صَرْفِهِ عَنِ الْوَسَاطَةِ وَلَهُ فِي النَّظَرِ أَحَدُ عَشَرَ شَهْرًا غَيْرَ خَمْسَةِ أَيَّامٍ. فَلَزِمَ دَارَهُ وَأُطْلِقَتْ لَهُ رُسُومٌ وَجَرَائِثُ. وَأُقِيمَ الطَّوَاشِي بِرَجْوَانَ الصَّقَلِيِّ مَكَانَهُ فِي الْوَسَاطَةِ لِثَلَاثِ بَقِيْنَ مِنْ رَمَضَانَ

سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِينَ. فَجَمَلَ كَاتِبُهُ فَهَدَّ بَنَ إِبرَاهِيمَ يُوقِعُ عَنْهُ وَلَقَّبَهُ بِالرَّئِيسِ وَصَرَفَ سُلَيْمَانَ بَنَ فَلَاحٍ عَنِ الشَّامِ بِجَيْشِ بَنِ الْقَتَمَصَامَةِ. وَقَدْ فَحَلَ بَنَ إِسْمَاعِيلَ الْكَتَابِيُّ مَدِينَةَ صُورَ. وَقَدْ يَأْتِسُ الْحَادِمَ بَرَقَةَ وَمَيْسُورًا الْحَادِمَ طَرَابُلسَ وَيَمَّا الْحَادِمَ غَزَا وَعَسْقَلَانَ. فَوَاقَعَ جَيْشَ الرُّومِ عَلَى قَامِيَّةٍ وَقَتَلَ مِنْهُمْ خَمْسَةَ آلَافٍ رَجُلٍ وَغَزَا إِلَى أَنْ دَخَلَ مَرْعَشَ. وَقَدْ وَظِفَتْهُ قَضَاءُ الْقُضَاةِ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنَ ابْنَ عَلِيٍّ بَنِ النُّعْمَانِ فِي صَفَرِ سَنَةِ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ بَعْدَ مَوْتِ قَاضِي الْقُضَاةِ مُحَمَّدِ بْنِ النُّعْمَانِ. وَقَتَلَ الْأُسْتَاذَ بَرَجَوَانَ لِأَرْبَعٍ بَقِيْنَ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِينَ وَلَهُ فِي النَّظَرِ سَتَانِ وَثَمَانِيَّةُ أَشْهُرٍ غَيْرَ يَوْمٍ وَاحِدٍ

وَرَدَّ النَّظَرَ فِي أُمُورِ النَّاسِ وَتَذْيِيرِ الْمَمْلَكَةِ وَالتَّوْقِيعَاتِ إِلَى الْحُسَيْنِ بْنِ جَوْهَرٍ وَلَقَّبَ بِقَائِدِ الْفَوَادِ فَخَلَقَهُ الرَّئِيسُ فَهْدٌ. وَاتَّخَذَ الْحَاكِمُ مَجْلِسًا فِي الدَّلِيلِ يُخَضِّرُ فِيهِ عِدَّةٌ مِنْ أَعْيَانِ الدَّوْلَةِ ثُمَّ أَبْطَلَهُ وَمَاتَ جَيْشُ بَنِ الْقَتَمَصَامَةِ فِي رَبِيعِ الْآخِرِ سَنَةِ تِسْعِينَ وَثَلَاثِينَ. فَوَصَلَ أَبْنُهُ بِتَرْكِهِ إِلَى الْقَاهِرَةِ وَمَعَهُ دَرَجٌ يُخَطُّ أَبِيهِ فِيهِ وَصِيَّتُهُ وَبَثَّ بِمَا خَلَقَهُ مِنْصَلًا. وَأَنَّ ذَلِكَ جَمِيعُهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ مِنْ أَوْلَادِهِ مِنْهُ دِرْهَمًا. وَكَانَ مَبْلَغُ ذَلِكَ جَمِيعِهِ نَحْوَ أَلْفَيْنِ أَلْفِ دِينَارٍ مَا بَيْنَ عَيْنٍ وَمَتَاعٍ وَدَوَابٍّ. قَدْ أَوْقَفَ جَمِيعَ ذَلِكَ تَحْتَ الْقَصْرِ فَأَخَذَ الْحَاكِمُ الدَّرَجَ وَنَظَرَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ

إِلَى أَوْلَادِ حَيْشٍ وَخَلَعَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ لَهُمْ بِمَحْضَرَةِ وُجُوهِ الدَّوْلَةِ : قَدْ وَقَفْتُ عَلَى وَصِيَّةِ أَبِيكُمْ رَحِمَهُ اللَّهُ وَمَا وَصَّى بِهِ مِنْ عَيْنٍ وَمَتَاعٍ فَخُذُوهُ هَنِيئًا مُبَارَكًا لَكُمْ فِيهِ فَأَنْصَرَفُوا بِجَمِيعِ التَّرِكَةِ

وَمَنْعَ النَّاسِ كَافَّةً مِنْ مُخَاطَبَتِهِ أَحَدٌ وَمُكَاتَبَتِهِ بِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا إِلَّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَحَدَهُ . وَأَبِيعَ دَمٌ مِنْ خَالَفَ ذَلِكَ . وَفِي شَوَالٍ قَتَلَ ابْنُ عَمَارٍ وَفِي سَنَةِ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَاصَلَ الْحَاكِمُ الرُّكُوبَ فِي اللَّيْلِ كُلِّ لَيْلَةٍ . وَكَانَ يَشْقُ الشَّوَارِعَ وَالْأَرْقَةَ وَبَالَ النَّاسُ فِي الْوَقِيدِ وَالزَّيْنَةِ وَأَنْفَقُوا الْأَمْوَالَ الْكَثِيرَةَ عَلَى الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْفَنَاءِ وَاللَّهُوِ وَكَثُرَ تَفَرُّجُهُمْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى خَرَجُوا فِيهِ عَنْ الْحَدِّ فَمَنَعَ النِّسَاءَ مِنَ الْخُرُوجِ فِي اللَّيْلِ . ثُمَّ مَنَعَ الرِّجَالَ مِنَ الْجُلُوسِ فِي الْحَوَانِيتِ

وَفِي سَنَةِ خَمْسٍ وَتِسْعِينَ أَمَرَ النَّصَّارَى وَالْيَهُودَ بِشَدِّ الزَّنَانِيرِ وَلُبْسِ الْغِيَارِ . وَمَنْعَ النَّاسَ مِنْ أَكْلِ الْمُلُوخِيَا وَالْجِرْجِيرِ وَالْمُتَوَكِّلِيَّةِ وَالْدَّلِيلَسِ وَذَبْحِ الْأَبْقَارِ السَّالِمَةِ مِنَ الْعَاهَةِ إِلَّا فِي أَيَّامِ الْأَضْحِيَّةِ . وَمَنْعَ مِنْ بَيْعِ الْفَقَّاعِ وَعَمَلِهِ الْبَتَّةَ وَأَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ الْحَمَّامَ إِلَّا بِمَنْزَرٍ وَأَنْ لَا تَكْشِفَ أَمْرَأَةٌ وَجْهَهَا فِي طَرِيقٍ وَلَا خَلْفَ جَنَازَةٍ وَلَا تَتَبَرَّجَ وَلَا يُبَاعَ شَيْءٌ مِنَ السَّبَكِ بِغَيْرِ قَشِيرٍ وَلَا يَصْطَادُهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّيَّادِينَ . وَتَتَّبَعَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَلَشَدَّدَ فِيهِ وَضُرِبَ جَمَاعَةٌ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ مَا أَمَرُوا بِهِ وَنَهَوْا عَنْهُ مِمَّا ذُكِرَ . وَخَرَجَتْ

الْعَسَاكِرُ لِقِتَالِ بَنِي قُرَّةَ مِنْ أَهْلِ الْجُبَيْرَةِ . وَكَتَبَ عَلَى أَبْوَابِ
الْمَسَاجِدِ وَعَلَى الْجَامِعِ بِمِصْرَ وَعَلَى أَبْوَابِ الْحَوَانِيتِ وَالْمُحَجَّرِ وَالْمَقَابِرِ
سَبَّ السَّالَفِ (١) وَلَعَنَهُمْ وَأَكْرَهَ النَّاسَ عَلَى نَفْسِ ذَلِكَ وَكَتَابَتْهُ
بِالْأَصْبَاغِ فِي سَائِرِ الْمَوَاضِعِ . وَأَقْبَلَ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ التَّوَاجِيهِ
فَدَخَلُوا فِي الدَّعْوَةِ وَجُعِلَ لَهُمْ يَوْمَانِ فِي الْأُسْبُوعِ وَكَثُرَ الْإِزْدِحَامُ
عَلَى ذَلِكَ وَمَاتَ فِيهِ جَمَاعَةٌ

وَمَنَعَ النَّاسَ مِنَ الْخُرُوجِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ فِي الطَّرَفَاتِ وَأَنْ لَا
يُظْهَرَ أَحَدٌ بِهَا لِبَيْعٍ وَلَا شِرَاءٍ . فَخَلَّتِ الطَّرِيقُ مِنَ الْمَادَةِ وَكَثُرَتْ
أَوَانِي الْحُمُورِ وَأَرِيقَتْ مِنْ سَائِرِ الْأَمَاكِينِ . وَاشْتَدَّ خَوْفُ النَّاسِ
بِأَسْرِهِمْ وَقَوِيَتْ الشَّنَاعَاتُ وَزَادَ الْأَضْطِرَابُ فَاجْتَمَعَ كَثِيرٌ مِنْ
الْكَتَّابِ وَغَيْرِهِمْ تَحْتَ الْقَضْرِ وَصَبَّحُوا يَسْأَلُونَ الْعَفْوَ فَكُتِبَتْ عِدَّةُ
أَمَانَاتٍ لِكُلِّ طَوَائِفِ مِنْ أَهْلِ الدَّوْلَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْبَاعَةِ
وَالرَّعِيَّةِ . وَأَمَرَ بِقَتْلِ الْكِلَابِ فَقُتِلَ مِنْهَا مَا لَا يُحْصَى حَتَّى فَقِدَتْ .
وَفُتِحَتْ دَارُ الْحِكْمَةِ بِالْقَاهِرَةِ وَجُمِلَ إِلَيْهَا الْكُتُبُ وَدَخَلَ إِلَيْهَا
النَّاسُ وَاشْتَدَّ الطَّلَبُ عَلَى الرِّكَائِيَّةِ الْمُسْتَحْدِمِينَ فِي الرِّكَابِ وَقُتِلَ
مِنْهُمْ كَثِيرًا . ثُمَّ عَفَا عَنْهُمْ وَكَتَبَ لَهُمْ أَمَانَاتٍ وَمَنَعَ النَّاسَ كَافَّةً مِنَ
الدَّخُولِ مِنْ بَابِ الْقَاهِرَةِ وَهُمْ رُكَّابٌ . وَمَنَعَ الْمَكَارِبِينَ أَنْ يَدْخُلُوا

(١) اسم السلف يطلق على ما ذهب إليه الائمة على عايشة زوجة محمد والي بكر
وعمر ومثان وطلحة وابن الزبير ومعاوية وعمر بن العاص

مَجْمَعِهِمْ إِلَى الْقَاهِرَةِ وَمَنَعَ النَّاسَ مِنَ الْمَشْيِ مُلَاصِقَ الْقَصْرِ. وَقُتِلَ
قَاضِي الْقَضَاةِ حُسَيْنُ بْنُ النُّعْمَانِ وَأُحْرِقَ بِالنَّارِ. وَقُتِلَ عَدَدٌ مِنَ
النَّاسِ كَثِيرٌ ضَرَبَتْ أَعْنَاقُهُمْ

وَفِي سَنَةِ سِتٍّ وَتِسْعِينَ خَرَجَ أَبُو رَكْوَةَ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ وَادَّعَى
أَنَّهُ مِنْ بَنِي أُمَيَّةٍ. فَقَامَ بِأَمْرِهِ بَنُو قُرَّةَ لَكثْرَةً مَا أَوْقَعَ بِهِمُ الْحَاكِمُ
وَبَايُوهُ وَاسْتَجَابَ لَهُ لَوَاتِهِ وَمَزَانُهُ وَزَنَانُهُ وَأَخَذَ بَرَقَةً وَهَزَمَ جِيُوشَ
الْحَاكِمِ غَيْرَ مَرَّةٍ وَعَنِمَ مَا مَعَهُمْ. فَخَرَجَ لِقِتَالِهِ الْقَائِدُ فَضْلُ بْنُ صَالِحٍ
فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ وَوَاقِعُهُ فَأَنهَزَمَ مِنْهُ فَضْلٌ وَاشْتَدَّ الْأَضْطِرَابُ بِبَصْرَ
وَرَزَايِدِ الْأَسْعَارِ. وَاشْتَدَّ الْأَسْتِعْدَادُ لِعُحَارِيَةِ أَبِي رَكْوَةَ وَزَوَّاتِ
الْعَسَاكِرِ بِالْخِيزَةِ. وَسَارَ أَبُو رَكْوَةَ فَوَاقِعُهُ الْقَائِدُ فَضْلٌ وَقُتِلَ عِدَّةٌ
مِّنْ مَعِهِ. فَعَظُمَ الْأَمْرُ وَاشْتَدَّ الْخَوْفُ وَخَرَجَ النَّاسُ فَبَاتُوا فِي
الشَّوَارِعِ خَوْفًا مِنْ هُجُومِ عَسَاكِرِ أَبِي رَكْوَةَ. وَاسْتَرَّتِ الطُّرُوبُ
فَأَنهَزَمَ أَبُو رَكْوَةَ فِي ثَالِثِ ذِي الْحِجَّةِ عَلَى الْقِيُومِ. وَتَبِعَهُ الْقَائِدُ
فَظُلُّ بَعْدَ أَنْ بَعَثَ إِلَى الْقَاهِرَةِ سِتَّةَ آلَافٍ رَأْسٍ وَمِائَةِ أَسِيرٍ إِلَى
أَنْ قُبِضَ عَلَيْهِ فِي بِلَادِ الثُّوبَةِ. وَأُخْضِرَ إِلَى الْقَاهِرَةِ فَقُتِلَ بِهَا
وَحُلِعَ عَلَى الْقَائِدِ فَضْلٍ وَسِيرَتِ الْبَشَارُ قَتْلَهُ فِي الْأَعْمَالِ

وَفِي سَنَةِ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَثَلَاثِينَ أَمَرَ بِغُيُوبِ سَبِّ السَّافِ فَهِيَ
سَائِرُ مَا كُتِبَ مِنْ ذَلِكَ وَغَلَّتِ الْأَسْعَارُ لِثَقَصِ النَّيْلِ. فَإِنَّهُ بَلَغَ سِتَّةَ
عَشَرَ أَصْبَعًا مِنْ سَبْعِ عَشْرَةِ ذِرَاعَاتٍ ثُمَّ نَقَصَ وَمَاتَ نَجُوتَكَيْنِ فِي ذِي

الْحَجَّةَ وَأَشَدَّ الْفَلَاءِ فِي ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَوَلَّى عَلِيٌّ ابْنُ فَلَاحٍ دِمَشْقَ .
وَقُبِضَ جَمِيعُ مَا هُوَ مُحْبَسٌ عَلَى الْكُنَاسِ . وَجُلِيَ فِي الدِّيَّانِ وَأُحْرِقَ
عِدَّةُ صُلْبَانٍ عَلَى بَابِ الْجَامِعِ بِمِصْرَ وَكُتِبَ إِلَى سَائِرِ الْأَعْمَالِ
بِذَلِكَ . وَفِي سَادِسَ عَشَرَ رَجَبٍ قَرَّرَ مَالِكُ بْنُ سَعِيدٍ الْقَارِقِيُّ فِي
وِظِيفَةِ قَضَاءِ الْقَضَاةِ وَتَسَلَّمَ كُتُبَ الدَّعْوَةِ الَّتِي تُقْرَأُ بِالْقَصْرِ عَلَى
الْأَوْلِيَاءِ وَصَرَفَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ النُّعْمَانِ عَنْ ذَلِكَ

وَتَوَقَّعَتْ زِيَادَةُ النَّيْلِ . وَاسْتَسْقَى النَّاسُ مَرَّتَيْنِ وَأَمَرَ بِإِبْطَالِ
عِدَّةٍ مَكُوسٍ وَتَعَدَّرَ وَجُودُ الْخُبْزِ لِفَلَاءِهِ وَقَلَّتْهُ . وَفُتِحَ الْخَلِيجُ فِي
رَابِعِ ثَوْتٍ وَالْمَاءُ عَلَى خَمْسَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فَأَشَدَّ الْفَلَاءُ . وَفِي تَاسِعِ
مُحَرَّمٍ وَهُوَ نِصْفُ ثَوْتٍ نَقَصَ مَاءُ النَّيْلِ وَلَمْ يُوفِ سِتَّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا .
فَمَنَعَ النَّاسُ كَافَّةً مِنَ التَّظَاهُرِ بِالْفَنَاءِ وَمِنْ رُكُوبِ الْبَحْرِ لِلتَّنَجُّجِ .
وَمَنَعَ مِنْ بَيْعِ السُّكَّرَاتِ وَمَنَعَ كَافَّةً مِنَ الْخُرُوجِ قَبْلَ الْفَجْرِ
وَبَعْدَ الْمِشَاءِ إِلَى الطَّرَفَاتِ . وَأَشَدَّ الْأَمْرُ عَلَى الْكَافَّةِ لِشِدَّةِ مَا
دَاخَلَهُمْ مِنَ الْخَوْفِ مَعَ شِدَّةِ الْفَلَاءِ وَتَزَايِدِ الْأَمْرَاضِ فِي النَّاسِ
وَالْمَوْتِ

وَتَزَايَدَتِ الْأَمْرَاضُ وَكَثُرَ الْمَوْتُ وَعَزَّتِ الْأَذْوِيَّةُ وَأَعِيدَتِ
الْمَكُوسُ الَّتِي رُفِعَتْ وَهَدِمَتْ كُنَائِسُ كَانَتْ بِطَرِيقِ الْمَقْسِ .
وَهَدِمَتْ كَنِيسَةُ مِحَارَةِ الرُّومِ مِنَ الْقَاهِرَةِ وَنَهَبَ مَا فِيهَا وَقُتِلَ
كَبِيرٌ مِنَ الْخُدَّامِ وَالْكَتَّابِ وَمِنَ الصَّقَالِيَةِ بَعْدَ مَا قُطِعَتْ أَيْدِي

بَعْضُهُمْ مِنَ الْكُتَّابِ بِالسَّاطُورِ عَلَى خَشْيَةٍ مِنْ وَسَطِ الذِّرَاعِ وَقُتِلَ
 الْقَائِدُ فَضْلُ بْنُ صَالِحٍ فِي ذِي الْقَعْدَةِ . وَفِي حَادِي عَشَرَ صَفَرٍ
 صُرِفَ صَالِحُ بْنُ عَلِيٍّ الرُّوذِبَارِيُّ وَقُرِّرَ مَكَانَهُ ابْنُ عَبْدِونَ النَّصْرَانِيُّ
 الْكَاتِبُ وَلَقِبَ بِالْكَافِي . فَوَقَعَ عَنِ الْحَاكِمِ وَنَظَرَ . وَكُتِبَ بِهِمْ
 كَيْسَةُ الْقُمَامَةِ وَجَدَّدَ دِيوانًا يُنَالُ لَهُ الدِّيوانُ الْمَقْرَدُ بِهِمْ مِنْ
 قَبْضِ مَالِهِ مِنَ الْمُتَوَلِّينَ وَغَيْرِهِمْ . وَكَثُرَتِ الْأَمْرَاضُ وَعَزَّتِ
 الْأَذْوِيَّةُ وَشَهِرَ جَمَاعَةٌ وَجَدَ عِنْدَهُمْ فُتَّاحٌ وَمُلُخِيَا وَدَلِيلَسٌ وَتَرْمَسٌ
 وَضُرْبُرَا وَهَدِيمٌ دَمْرُ الْقَعْرِ وَأَشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى النَّصَارَى وَالْيَهُودِ فِي
 الزَّامِهِمْ لُبْسُ الْغِيَارِ وَكُتِبَ . بِإِبْطَالِ أَخَذِ الْحُدُسِ وَالنَّجَادَى وَالْفَطْرَةِ
 وَقَرَّ الْحُسَيْنُ بْنُ جَوْهَرٍ وَأَوْلَادُهُ وَعَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ الثُّمَّانِ . وَقَرَّ أَبُو
 الْقَسَمِ الْحُسَيْنُ بْنُ الْمَغْرِبِيِّ . وَكُتِبَتِ عِدَّةُ أَمَانَاتٍ لِمَدَّةٍ طَوَائِفَ
 مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِمْ وَقُطِعَتِ قِرَاءَةُ مَجَالِسِ الْحِكْمَةِ بِالْقَعْرِ . وَوَقَعَ
 التَّشْدِيدُ فِي الْمَنَعِ مِنَ الْمُسْكِرَاتِ وَقُتِلَ كَثِيرٌ مِنَ الْكُتَّابِ وَالْحُدَّامِ
 وَالْقَرَّاشِينَ وَقُتِلَ صَالِحُ بْنُ عَلِيٍّ الرُّوذِبَارِيُّ فِي شَوَّالٍ

وَفِي رَاجِعِ الْحَرَمِ سَنَةِ إِحْدَى وَأَرْبَعِمِائَةٍ صُرِفَ الْكَلْفِيُّ بْنُ
 عَبْدِونَ عَنِ النَّظَرِ وَالتَّوْقِيعِ وَقُرِّرَ بَدَلَهُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَشُورِيُّ
 الْكَاتِبُ فِي الْوَسَاطَةِ وَالسَّفَارَةِ . وَحَضَرَ حُسَيْنُ بْنُ جَوْهَرٍ وَعَبْدُ
 الْعَزِيزِ بْنُ الثُّمَّانِ إِلَى الْقَاهِرَةِ فَأُكْرِمَ ثُمَّ صُرِفَ ابْنُ الْقَشُورِيِّ
 بَعْدَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ مِنْ اسْتِقْرَارِهِ وَضُرِبَ عَنْهُ . وَقُرِّرَ بَدَلَهُ ذَرْعَةُ بْنُ

عيسى بن نسطورس الكاتب النضرائي ولقب بالشافي . ومنع الناس
من ركوب المراكب في الخليج وسدت أبواب الدور التي على الخليج
والطافات . وأضيف إلى قاضي القضاة مالك بن سعيد النظر في
المظالم . وأعيدت مجالس الحكمة وأخذ مال التجوى وقيل ابن
عبدون وقبض ماله . وضرب جماعة وشهروا من أجل بيعهم
الملوخيا والسمك الذي لا قشر له وبسبب بيع النيد . وقيل الحسين
بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان في جمادى الآخرة في سنة
إحدى وأربع مائة وأحيط بأموالهما وأبطلت عدة مكوس . ومنع
الناس من الفناء واللهو ومن بيع المغنيات ومن الاجتماع بالصغراء .
وفي هذه السنة خلع حسان بن مفرج بن دغفل بن الجراح طاعة
الحاكم وأقام أبا القنوج حسين ابن جعفر الحسيني أمير مكة خليفة
وبأيعوه ودعا الناس إلى مبايعته وقاتل عساكر الحاكم
وفي سنة اثنتين وأربع مائة منع من بيع الزبيب وكتب بالمنع
من حمله وألقي في بحر النيل منه شيء كثير وأحرق منه كثير .
ومنع النساء من زيارة القبور فلم ير في الأعياد بالمقابر امرأة واحدة .
ومنع من الاجتماع على شاطئ النيل للتفرج ومنع من بيع
الغيب إلا أربعة أذال فما دونها . ومنع من عصيره ولحج كثير
منه وديس في الطرقات وغرق كثير منه في النيل . ومنع من حمله
وقطعت كروم الحيزة كلها وسير إلى الجهات بذلك

وَفِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ غَلَا السَّعْرُ وَأَزْدَحَمَ النَّاسُ عَلَى
 الْخُبَزِ وَفِي ثَانِي رَجَبٍ الْأَوَّلِ مِنْهَا هَلَكَ عِيسَى بْنُ كَسْطُورَسَ . فَأَمَرَ
 النَّصَارَى بِإِبْنِ السَّوَادِ وَتَعْلِيْقِ الصُّلْبَانِ الْخَشَبِ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأَنْ
 يَكُونَ الصُّلْبُ ذِرَاعًا فِي مِثْلِهَا وَزِنْتُهُ خَمْسَةَ أَرْطَالٍ وَأَنْ يَكُونَ مَكْشُوفًا
 يَحِثُّ يَرَاهُ النَّاسُ . وَمُنِعُوا مِنْ رُكُوبِ الْخَيْلِ وَأَنْ يَكُونَ رُكُوبُهُمْ
 الْبَغَالُ وَالْحَمِيرَ بِالسُّرُوجِ الْخَشَبِ وَالسُّيُورِ السُّودِ بِغَيْرِ حِلْيَةٍ وَأَنْ
 يَشْدُوا الزَّانِيَرِ وَلَا يَسْتَعْدِمُوا مُسْلِمًا وَلَا يَشْتَرُوا عَبْدًا وَلَا أَمَةً
 وَتُبِعَتْ آثَارُهُمْ فِي ذَلِكَ فَاسْلَمَ مِنْهُمْ عِدَّةٌ . وَقَرَّرَ حُسَيْنُ بْنُ
 طَاهِرٍ الْوِزَانَ فِي الْوَسَاطَةِ وَالتَّوْقِيعَ عَنِ الْحَاكِمِ فِي تَالِعٍ وَعِشْرِي
 رَجَبٍ الْأَوَّلِ مِنْهَا وَلَقِبَ بِأَمِينِ الْأَمْنَاءِ . وَنَقَشَ الْحَاكِمُ عَلَى خَاتَمِهِ
 يَنْصُرُ اللَّهُ الْعَظِيمَ الْوَلِيُّ يَنْتَصِرُ الْإِمَامُ أَبُو عَلِيٍّ . وَضُرِبَ جَمَاعَةٌ
 بِسَبَبِ اللَّعِبِ بِالسُّطُرُجِ وَهَدِمَتْ الْكُنَائِسُ وَأُخِذَ جَمِيعُ مَا فِيهَا
 وَمَا لَهَا مِنَ الرِّبَاعِ . وَكُتِبَ بِذَلِكَ إِلَى الْأَعْمَالِ فَهَدِمَتْ بِهَا وَفِيهَا
 لَحِقَ أَبُو الْقُتُوحِ بِمَكَّةَ وَدَعَا لِلْحَاكِمِ وَضُرِبَ السَّكَّةُ بِاسْمِهِ . وَأَمَرَ
 الْحَاكِمُ أَنْ لَا يَقْبَلَ أَحَدٌ لَهُ الْأَرْضُ وَلَا يَقْبَلَ رِكَابُهُ وَلَا يَدُهُ عِنْدَ
 السَّلَامِ عَلَيْهِ فِي الْمَوَاقِبِ . فَإِنَّ الْإِثْمَانَ إِلَى الْأَرْضِ لِيَخْلُوقَ مِنْ
 صَنِيعِ الرُّومِ . وَأَنْ لَا يُزَادَ عَلَى قَوْلِهِمُ السَّلَامُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 وَرَحْمَةِ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ . وَلَا يُصَلِّيَ عَلَيْهِ أَحَدٌ فِي مَكَاتِبِهِ وَلَا يُخَاطَبُ بِهِ
 وَيُقْتَصَرُ فِي مَكَاتِبِهِ عَلَى سَلَامِ اللَّهِ وَتَحِيَّاتِهِ وَنَوَامِي بَرَكَاتِهِ عَلَى أَمِيرِ

الْمُؤْمِنِينَ وَيَدْعَى لَهُ بِمَا يَتَّقُ مِنَ الدُّعَاءِ فَقَطُّ لَا غَيْرُ . قَالَمَ يَهْلُ
 الْخُطْبَاءُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ سِوَى اللَّهِ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَسَلَّمَ عَلَى
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ابْنِ
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَفْضَلَ سَلَامِكَ عَلَى عَبْدِكَ وَخَلِيفَتِكَ .
 وَمَنْعَ مِنْ ضَرْبِ الطُّبُولِ وَالْأَبْوَابِ حَوْلَ الْقَصْرِ . فَصَارُوا يَطُوفُونَ
 بِغَيْرِ طَبَلٍ وَلَا بُوقٍ وَكَثُرَتْ إِنْعَامَاتُ الْحَاكِمِ . فَتَوَقَّفَ أَمِينُ الْأَمْنَاءِ
 حُسَيْنُ بْنُ طَاهِرِ الْوَزَانُ فِي إِمْضَائِهَا فَكُتِبَ إِلَيْهِ الْحَاكِمُ بِخَطِّهِ
 بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ

أَصْبَحْتُ لَا أَرْجُو وَلَا أَتَّقِي إِلَّا إِلَهِي وَلَهُ الْفَضْلُ
 جَدِّي نَبِيِّ وَإِمَامِي أَبِي وَدِينِي الْإِخْلَاصُ وَالْعَدْلُ
 أَمَّا مَالُ اللَّهِ وَالْخَلْقُ عِبَادُ اللَّهِ وَتَحْنُ أَمْنَاؤُهُ فِي الْأَرْضِ أَطْلَقَ
 أَرْزَاقَ النَّاسِ وَلَا تَقْطَعُهَا وَالسَّلَامُ . وَرَكِبَ الْحَاكِمُ فِي يَوْمِ عِيدِ
 الْفِطْرِ إِلَى الْمُصَلَّى بِغَيْرِ زِينَةٍ وَلَا جَنَابٍ وَلَا أَهْبَةِ سِوَى عَشْرَةِ
 أَفْرَاسٍ تُقَادُ بِسُرُوحٍ وَلِجَمِّ مُحَلَّاتٍ بِفِضَّةٍ خَفِيفَةٍ وَبُنُودٍ سَادِجَةٍ
 وَمِظَلَّةٍ بَيَاضٍ بِغَيْرِ ذَهَبٍ وَعَلَيْهِ بَيَاضٌ بِغَيْرِ طِرَازٍ وَلَا ذَهَبٍ وَلَا
 جَوْهَرٍ فِي عِمَامَتِهِ وَلَمْ يُفَرِّشِ الْمَنَبْرُ . وَمَنْعَ النَّاسَ مِنْ سَبِّ السَّلَفِ
 وَضَرْبِ فِي ذَلِكَ وَشَهْرَ وَصَلَّى صَلَاةَ عِيدِ الْفِطْرِ كَمَا صَلَّى صَلَاةَ
 الْفِطْرِ مِنْ غَيْرِ أَهْبَةٍ وَتَحَرَّ عَنْهُ عَبْدُ الرَّحِيمِ بْنُ إِيْلَاسَ بْنِ أَحْمَدَ

الْمُهَلَّبِيَّ وَاتَّكَرَ الْحَاكِمُ مِنْ الرُّكُوبِ إِلَى الصَّخْرَاءِ بِحِذَاءِ فِي رِجْلِهِ وَفُوطَةٍ عَلَى رَأْسِهِ

وَفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِيَّةٍ أُلْزِمَ الْيَهُودَ أَنْ يَكُونَ فِي أَعْنَاقِهِمْ جَرَسٌ إِذَا دَخَلُوا إِلَى الْحَمَّامِ وَأَنْ يَكُونَ عَنْقُ النَّصَارَى صُلْبَانٌ وَمَنْعَ النَّاسِ مِنَ الْكَلَامِ فِي النُّجُومِ وَأُفْنِي الْعَجَمِيِّينَ مِنَ الطَّرَفَاتِ وَطَلَبُوا فَتَمَّيْبُوا وَنُفُوا. وَكَثُرَتْ هَبَاتُ الْحَاكِمِ وَصَدَقَاتُهُ وَعَثْفُهُ. وَأَمَرَ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ إِلَى بِلَادِ الرُّومِ وَغَيْرِهَا. وَأَقِيمَ عَبْدُ الرَّحِيمِ بْنُ إِبِلَاسٍ وَلِيَّ الْعَهْدِ وَأَمَرَ أَنْ يُقَالَ فِي السَّلَامِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى ابْنِ عَمِّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلِيِّ عَهْدِ الْمُسْلِمِينَ. وَصَارَ يَجْلِسُ بِمَكَانٍ فِي الْقَصْرِ. وَصَارَ الْحَاكِمُ يَرْكَبُ بِدَرَّاعَةِ صُوفٍ بَيْضَاءٍ وَيَتَمَعَّمُ بِفُوطَةٍ وَفِي رِجْلِهِ حِذَاءٌ عَرَبِيٌّ بِقَبَالَيْنِ وَعَبْدُ الرَّحِيمِ يَتَوَلَّى النُّظَرَ فِي أُمُورِ الدَّوْلَةِ كُلِّهَا. وَأَفْرَطَ الْحَاكِمُ فِي الْعَطَاءِ وَرَدَّ مَا كَانَ أَخَذَ مِنَ الصِّيَاعِ وَالْأَمْلَاقِ لِأَزْبَابِهَا

وَفِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ أَمَرَ بِقَطْعِ يَدَيْ أَبِي الْقَاسِمِ الْجُرْجَرَانِيِّ. وَكَانَ يَكْتُبُ لِلْقَائِدِ عَيْنٍ. ثُمَّ قَطَعَتْ يَدُ عَيْنٍ فَصَارَ مَقْطُوعَ الْيَدَيْنِ وَبَعَثَ إِلَيْهِ الْحَاكِمُ بَعْدَ قَطْعِ يَدَيْهِ بِأَلْفٍ مِنَ الذَّهَبِ وَالنِّيبِ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ أَمَرَ بِقَطْعِ لِسَانِهِ فَصُطِعَ وَأَبْطُلَ عِدَّةُ مَكُوسٍ وَقَتْلَ الْكِلَابِ كُلِّهَا وَاتَّكَرَ مِنَ الرُّكُوبِ فِي اللَّيْلِ وَمَنْعَ النِّسَاءِ مِنَ الْمَشْيِ فِي الطَّرَفَاتِ. فَلَمْ تَرَ أَمْرًا فِي طَرِيقِ الْبَتَّةِ وَأُغْلِقَتْ حَمَامَتُهُنَّ وَمَنْعَ

الْأَسَاكِفَةَ مِنْ عَمَلِ خِفَافِينَ وَتَعَطَّلَتْ حَوَانِيَتُهُمْ وَأَشْدَّتِ الْإِسَاعَةُ
بُوقُوعِ السَّيْفِ فِي النَّاسِ فَتَهَارَبُوا وَغَلَّتِ الْأَسْوَاقُ فَلَمْ يَبِعْ شَيْءٌ
وَدُعِيَ لِعَبْدِ الرَّحِيمِ بْنِ إِلْيَاسَ عَلَى الْمَنَابِرِ وَضُرِبَتِ السِّكَّةُ بِاسْمِهِ
بِوِلَايَةِ الْعَهْدِ

وَفِي سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ قُتِلَ مَالِكُ بْنُ سَعِيدٍ الْفَارَقِيُّ فِي
رَبِيعِ الْآخِرِ وَكَانَتْ مُدَّةُ نَظَرِهِ فِي قَضَاءِ الْفُضَاةِ سِتِّ سِنِينَ وَتِسْعَةَ
أَشْهُرٍ وَعَشْرَةَ أَيَّامٍ وَبَلَغَ إِقْطَاعُهُ فِي السَّنَةِ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ .
وَتَرَايَدَ رُكُوبُ الْحَاكِمِ حَتَّى كَانَ يَرْكَبُ فِي كُلِّ يَوْمٍ عِدَّةَ مِرَايَةٍ
وَأَشْتَرَى الْحَمِيرَ وَرَكَبَهَا بِدَلِّ الْحَيْلِ وَفِي جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنْهَا قَتَلَ
الْحُسَيْنُ بْنُ طَاهِرٍ الْوَزَانَ . فَكَانَتْ مُدَّةُ نَظَرِهِ فِي الْوَسَاطَةِ سَتَيْنِ
وَشَهْرَيْنِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا . فَأَمَرَ أَصْحَابَ الدَّوَاوِينِ بِأَرْزُومٍ دَوَاوِينِهِمْ
وَصَارَ الْحَاكِمُ يَرْكَبُ جِمَارًا بِشَاشِيَةٍ مَكْشُوفَةٍ بِغَيْرِ عِمَامَةٍ . ثُمَّ
أَقَامَ عَبْدُ الرَّحِيمِ بْنُ أَبِي السَّيِّدِ الْكَاتِبَ وَأَخَاهُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ
الْحُسَيْنِ فِي الْوَسَاطَةِ وَالسِّفَادَةِ وَأَقْرَأَ فِي وَظِيفَةِ قَضَاءِ الْفُضَاةِ
أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ أَبِي الْعَوَامِ . وَخَرَجَ الْحَاكِمُ عَنْ الْحَدِّ فِي الْعَطَاءِ
حَتَّى أَقْطَعَ نَوَاتِيَةَ الْمَرَائِبِ وَالْمَشَاعِلَةِ وَبَنِي قُرَّةَ . فَمِمَّا أَقْطَعَ
الْإِسْكَندَرِيَّةَ وَالْبَحِيرَةَ وَنَوَاحِيهَا . ثُمَّ قَتَلَ ابْنِي أَبِي السَّيِّدِ . وَكَانَتْ مُدَّةُ
نَظَرِهَا اثْنَيْنِ وَسِتِّينَ يَوْمًا وَقَلَّدَ الْوَسَاطَةَ فَضْلُ بْنُ جَعْفَرٍ بْنِ الْقُرَاتِ .
ثُمَّ قَتَلَهُ فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ مِنْ وَلَايَتِهِ وَغَلَبَ أَبُو قُرَّةَ عَلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ

وَأَعْمَالَهَا. وَكَثُرَ الْحَاكِمُ مِنَ الرُّكُوبِ فِي يَوْمٍ سِتِّ مَرَّاتٍ مَرَّةً عَلَى
 فَرَسٍ وَمَرَّةً عَلَى حِمَارٍ وَمَرَّةً فِي حِقَّةٍ تُحْمَلُ عَلَى الْأَعْنَاقِ وَمَرَّةً فِي
 عَشَارِيٍّ عَلَى النَّيْلِ. بَغَيْرِ عِمَامَةٍ. وَكَثُرَ مِنْ إِقْطَاعِ الْجُنْدِ وَالْعَبِيدِ
 الْإِقْطَاعَاتِ. وَأَمَامَ ذَا الرَّئِاسَتَيْنِ قُطِبَ الدَّوْلَةُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ
 جَعْفَرٍ بْنِ فَلَاحٍ فِي أَلْوَسَاطَةِ وَالسَّفَادَةِ وَوَلَّى عَبْدَ الرَّحِيمِ بْنُ أَلْيَاسَ
 دِمَشْقَ. فَسَارَ إِلَيْهَا فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ تِسْعٍ. وَأَرْبَعِمِائَةٍ فَأَقَامَ
 فِيهَا شَهْرَيْنِ. ثُمَّ هَجَمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ فَقَتَلُوا جَمَاعَةً مِمَّنْ عِنْدَهُ وَأَخَذُوهُ فِي
 صُنْدُوقٍ وَحَمَلُوهُ إِلَى مِصْرَ ثُمَّ أُعِيدَ إِلَى دِمَشْقَ فَأَقَامَ بِهَا إِلَى لَيْلَةِ
 عِيدِ الْفِطْرِ وَأُخْرِجَ مِنْهَا

وَلَمَّا كَانَ لِللَّيْلَتَيْنِ بَقِيَّتَا مِنْ شَوَالِ سَنَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ
 فَقَدَا الْحَاكِمُ وَقِيلَ إِنَّ أُخْتَهُ قَتَلَتْهُ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ. وَكَانَ عُمُرُهُ سِتًّا
 وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَسَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَكَانَتْ مُدَّةُ خِلَافَتِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً
 وَشَهْرًا. وَكَانَ جَوَادًا سَفَاكَ قَتَلَ عَدَدًا لَا يُحْصَوْنَ. وَكَانَتْ سِيرَتُهُ
 مِنْ أَعْجَابِ السَّيْرِ وَخُطْبَ لَهُ عَلَى مَنَابِرِ مِصْرَ وَالشَّامِ وَإِفْرِيقِيَّةَ
 وَالْحِجَازِ. وَكَانَ يَشْتَغِلُ بِعُلُومِ الْأَوَائِلِ وَيَنْظُرُ فِي النُّجُومِ وَعَمِلَ
 رَصْدًا وَاتَّخَذَ بَيْتًا فِي الْمَقْطَمِ يَنْقَطِعُ فِيهِ عَنِ النَّاسِ لِذَلِكَ وَيَقَالُ
 إِنَّهُ كَانَ يَعْتَرِيهِ جَفَافٌ فِي دِمَاقِهِ فَلِذَلِكَ كَثُرَ تَنَاقُضُهُ وَمَا أَحْسَنَ
 مَا قَالَتْ فِيهِ بَعْضُهُمْ كَانَتْ أَعْمَالُهُ لَا تُعْمَلُ وَأَحْلَامُ وَسَاوِسِهِ
 لَا تُتَوَلَّى

وَقَالَ الْمَسْجِيُّ فِي مُحَرَّمِ سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ وَارْبَعِمِائَةٍ قُبِضَ
عَلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي حُسَيْنٍ ثَارَ بِالصَّعِيدِ الْأَعْلَى فَأَقْرَأَهُ أَنَّهُ قَتَلَ
الْحَاكِمَ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي جُمْلَةٍ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ تَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ وَأَظْهَرَ
قِطْعَةً مِنْ جِلْدَةِ رَأْسِ الْحَاكِمِ وَقِطْعَةً مِنَ الْقَوَاطِئِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِ .
فَقِيلَ لَهُ لِمَ قَتَلْتَهُ : فَقَالَ غَيْرَةَ اللَّهِ وَالْإِسْلَامِ : فَقِيلَ كَيْفَ قَتَلْتَهُ .
فَأَخْرَجَ سِكِّينًا ضَرَبَ بِهَا فُوَادَهُ وَقَتَلَ نَفْسَهُ وَقَالَ هَكَذَا قَتَلْتَهُ .
وَقُطِعَ رَأْسُهُ وَأَنْفِذَ بِهِ إِلَى الْحَضْرَةِ مَعَ مَا وَجَدَ مَعَهُ . وَهَذَا هُوَ
الصَّحِيحُ فِي خَبَرِ قَتْلِ الْحَاكِمِ . لَأَمَّا بِحِكْمِهِ الْمُشَارِقَةُ فِي كُتُبِهِمْ
مِنْ أَنَّ أُخْتَهُ قَتَلَتْهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

مِنْ ذِكْرِ الْحَارَاتِ

عِبَارَةٌ تَتَعَلَّقُ بِفَتْوحَاتِ هَفْتَكَيْنِ وَأَنْكِسَارَاتِهِ
حَادَةُ الدَّيْلَمِ عُرِفَتْ بِذَلِكَ لِنُزُولِ الدَّيْلَمِ الْوَاصِلِينَ مَعَ
هَفْتَكَيْنِ الشَّرَّائِي جَيْنَ قَدِيمٍ وَمَعَهُ أَوْلَادُ مَوْلَاهُ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ الْبُويهي
وَجَمَاعَةٌ مِنَ الدَّيْلَمِ وَالْأَتْرَاكِ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ وَسَكَنُوا
بِهَا فَعُرِفَتْ بِهِمْ

• هَفْتَكَيْنُ وَيُقَالُ لَهُ الْفَتَكَيْنُ التُّزْكِيُّ الشَّرَّائِي غُلَامٌ مُعِزُّ الدَّوْلَةِ
أَحْمَدُ بْنُ بُوَيَه تَرَقَّى فِي الْحُدُمِ حَتَّى غَلَبَ فِي بَغْدَادَ عَلَى عِزِّ الدَّوْلَةِ
بِمُخْتَارِ بْنِ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ . وَكَانَ فِيهِ شَجَاعَةٌ وَثَبَاتٌ فِي الْحَرْبِ . فَلَمَّا
سَلَدَتِ الْأَتْرَاكُ مِنْ بَغْدَادَ لِحَرْبِ الدَّيْلَمِ جَرَى بَيْنَهُمْ قِتَالٌ عَظِيمٌ

أَشْتَهَرَ فِيهِ هَفْتَكَيْنُ إِلَّا أَنَّ أَصْحَابَهُ أَنْهَزُوا عَنْهُ وَصَارَ فِي طَائِفَةٍ
 قَلِيلَةٍ قَوْلِي بَيْنَ مَعَهُ مِنَ الْأَتْرَاكِ وَهُمْ نَحْوُ الْأَرْبَعِمِائَةِ . فَسَارَ عَلَى
 الرَّحِيَّةِ وَأَخَذَ مِنْهَا عَلَى الْبَرِّ إِلَى أَنْ قَرَّبَ مِنْ جُوسِيَّةَ إِحْدَى قُرَى
 الشَّامِ . وَقَدْ وَقَعَ فِي قُلُوبِ الْعُرَبَانِ مِنْهُ هَبَابَةٌ . فَخَرَجَ إِلَيْهِ ظَالِمُ بْنُ
 مَرْهُوبٍ الْعُقَلِيُّ مِنْ بَغْلَبَكْ وَبَعَثَ إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ إِبْرَاهِيمَ بْنِ جَعْفَرٍ
 أَمِيرِ دِمَشْقَ مِنْ قَبْلِ الْخَلِيفَةِ الْمُعِزِّ لِدِينِ اللَّهِ يُعَالِمُهُ بِدُومِ هَفْتَكَيْنِ
 مِنْ بَغْدَادَ لِإِقَامَةِ الْخَطْبَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَخَوْفِهِ مِنْهُ . فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ عَسْكَرًا
 وَسَارَ إِلَى نَاحِيَةِ جُوسِيَّةَ يُرِيدُ هَفْتَكَيْنِ . وَسَارَ بِشَارَةَ الْخَادِمُ مِنْ
 قَبْلِ أَبِي الْمُعَالِي بْنِ حَمْدَانَ عَوْنًا لِهَفْتَكَيْنِ فَرَدَّ ظَالِمٌ إِلَى بَغْلَبَكْ
 مِنْ غَيْرِ حَرْبٍ

وَسَارَ بِشَارَةَ يَهْفَتَكَيْنِ إِلَى خِمَصَ فَحَمَلَ إِلَيْهِ أَبُو الْمُعَالِي وَتَلَقَّاهُ
 وَأَكْرَمَهُ وَكَانَ قَدْ تَارَ بِدِمَشْقَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الدَّعَارَةِ وَالْأَسَادِ
 وَحَارِبُو عَمَالِ السُّلْطَانِ وَأَشْتَدَّ أَمْرُهُمْ وَكَانَ كَبِيرُهُمْ يُعْرِفُ بِأَبْنِ
 الْمَأُورِدِ . فَلَمَّا بَلَغَهُمْ خَبَرُ هَفْتَكَيْنِ يَعْثُوا إِلَيْهِ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى
 خِمَصَ يَسْتَدْعُوهُ وَوَعْدُوهُ بِالْقِيَامِ مَعَهُ عَلَى عَسَاكِرِ الْمُعِزِّ وَإِخْرَاجِهِمْ
 مِنْ دِمَشْقَ لَيْلِي عَلَيْهِمْ فَوَقَعَ ذَلِكَ مِنْهُ بِالْمُؤَافَقَةِ . وَسَارَ حَتَّى نَزَلَ
 ثَنِيَّةَ الْعُقَابِ لِأَيَّامٍ بَقِيَتْ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ .
 فَلَبَّغَ عَسْكَرُ الْمُعِزِّ خَبَرَ الْقَرْنَجِ وَأَنْهُمْ قَدْ قَصَدُوا طَرَابُلُسَ فَسَارُوا
 بِأَجْمِهِمْ إِلَى لِقَاءِ الْعَدُوِّ . وَنَزَلَ هَفْتَكَيْنُ عَلَى دِمَشْقَ مِنْ غَيْرِ

حَرْبٍ فَأَقَامَ أَيَّامًا . ثُمَّ سَارَ يُرِيدُ مُحَارَبَةَ ظَالِمٍ قَرَّرَ مِنْهُ وَدَخَلَ
هَفَّتَكَيْنُ بَعْلَبَكْ فَطَرَقَهُ الْعَدُوُّ مِنَ الرُّومِ . وَالْقَرْجُ وَأَتَتْهُمُ
بَعْلَبَكْ وَأَحْرَقُوا وَذَلِكَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ . وَأَنْتَشَرُوا فِي أَعْمَالِ
بَعْلَبَكْ وَالْبِقَاعِ . يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ وَيُحْرِقُونَ وَقَصَدُوا دِمَشْقَ وَقَدْ
أَنْتَحَقَ بِهَا هَفَّتَكَيْنُ . فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ أَهْلُ دِمَشْقَ وَسَأَلُوهُمْ الْكَفَّ عَنْ
الْبَلَدِ وَالْتَزَمُوا بِمَالِهِ . فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ هَفَّتَكَيْنُ وَأَهْدَى إِلَيْهِمْ وَتَكَلَّمَ
مَعَهُمْ فِي أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ جَبَايَةَ الْمَالِ لِقُوَّةِ ابْنِ الْمَوَرِّدِ وَأَصْحَابِهِ
وَأَغْرَى مَلِكَ الرُّومِ فَقَبَضَ عَلَيْهِ وَقَيَّدَهُ وَعَادَ فَجَبَى الْمَالَ مِنْ دِمَشْقَ
بِالْعُنْفِ وَحَمَلَ إِلَى مَلِكِ الرُّومِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَرَحَلَ إِلَى بَيْرُوتَ
ثُمَّ إِلَى طَرَابُلُسَ

فَتَمَكَّنَ هَفَّتَكَيْنُ مِنْ دِمَشْقَ وَأَقَامَ بِهَا الدَّعْوَةَ لِأَبِي بَكْرٍ عَبْدِ
الْكَرِيمِ الطَّائِعِ بْنِ الْمُطِيعِ الْعَبَّاسِيِّ . وَسَيَّرَ إِلَى الْعَرَبِ السَّرَايَا
فَظَفَّرَتْ وَعَادَتْ إِلَيْهِ بَعْدَهُ بِمَنْ أَسْرَتْهُ مِنْ رِجَالِ الْعَرَبِ وَقَتْلَهُمْ
صَبْرًا . وَكَانَ تَخَوُّفٌ مِنَ الْمُغِيرَةِ . فَكَاتَبَ الْقَرَامِطَةُ يَسْتَدْعِيهِمْ مِنْ
الْأَحْسَاءِ لِلْقُدُومِ عَلَيْهِ لِمُحَارَبَةِ عَسَاكِرِ الْمُغِيرَةِ وَمَا زَالَ بِهِمْ حَتَّى
وَأَفُوا دِمَشْقَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَزَلُّوا عَلَى ظَاهِرِهَا وَمَعَهُمْ
كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ هَفَّتَكَيْنِ . كَانُوا قَدْ تَشَتَّتُوا فِي الْبِلَادِ فَقَوِيَ بِهِمْ
وَلَقِيَ الْقَرَامِطَةُ وَحَمَلَ إِلَيْهِمْ وَسَرَّ بِهِمْ . فَأَقَامُوا عَلَى دِمَشْقَ أَيَّامًا
ثُمَّ رَحَلُوا نَحْوَ الرَّمْلَةِ وَبِهَا أَبُو مُحَمَّدٍ فَلَحِقَ بِأَقَا وَزَلَّ الْقَرَامِطَةُ الرَّمْلَةَ

وَنَصَبُوا الْقِتَالَ عَلَى يَافَا حَتَّى كَلَّ الْقَرِيقَانِ وَسَمِعُوا جَمِيعًا مِنْ طُولِ
الْحَرْبِ وَسَارَ هَفْتَكَيْنِ عَلَى السَّاحِلِ وَزَلَّ صَيْدًا وَبِهَا ظَالِمٌ مِنْ
مَرْهُوبِ الْعَقْلِيِّ وَأَبْنُ الشَّيْخِ مِنْ قَبْلِ الْمِعْزِ فَقَاتَلَهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا
أَنْهَزَمَ مِنْهُ ظَالِمٌ إِلَى صُورَ وَقُتِلَ بَيْنَ الْقَرِيقَيْنِ نَحْوُ أَرْبَعَةِ آلَافٍ
رَجُلٍ . فَتَطَعَ أَيْدِي الْقَتْلَى مِنْ عَسَاكِرِ الْمِعْزِ وَسَيَّرَهَا إِلَى دِمَشَقَ
فَطِيفَ بِهَا . ثُمَّ سَارَ عَنْ صَيْدَا يُرِيدُ عَكَّا وَبِهَا عَسْكَرُ الْمِعْزِ
وَكَانَ قَدْ مَاتَ الْمِعْزُ فِي رَجَبِ الْآخِرِ وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ
الْعَزِيزُ بِاللَّهِ وَسَيَّرَ جَوْهَرًا الْقَائِدَ فِي عَسْكَرٍ عَظِيمٍ إِلَى قِتَالِ هَفْتَكَيْنِ
وَالْقَرَامِطَةِ . فَبَلَغَ ذَلِكَ الْقَرَامِطَةَ وَهُمْ عَلَى الرَّمْلَةِ وَوَصَلَ الْخَبَرُ
بِمَسِيرِهِ إِلَى هَفْتَكَيْنِ وَهُوَ عَلَى عَكَّا فَخَافَ الْقَرَامِطَةُ وَفَرُّوا عَنْهَا
فَنَزَلَهَا جَوْهَرُ وَسَارَ مِنَ الْقَرَامِطَةِ إِلَى الْأَحْسَاءِ الَّتِي هِيَ بِلَادُهُمْ
جَمَاعَةٌ وَتَأَخَّرَ عِدَّةٌ . وَسَارَ هَفْتَكَيْنِ مِنْ عَكَّا إِلَى طَبْرِيَّةَ وَقَدْ
عَلِمَ بِمَسِيرِ الْقَرَامِطَةِ وَتَأَخَّرَ بَعْضُهُمْ فَأَجْتَمَعَ بِهِمْ فِي طَبْرِيَّةَ وَأَسْتَعَدَّ
لِللِقَاءِ جَوْهَرُ وَجَمَعَ الْأَقْوَاتِ مِنْ بِلَادِ حَوْرَانَ وَالْبُشَيْيَةِ وَأَدْخَلَهَا
إِلَى دِمَشَقَ وَسَارَ إِلَيْهَا فَتَحَصَّنَ بِهَا . وَزَلَّ جَوْهَرُ عَلَى ظَاهِرِ دِمَشَقَ
لِثَمَانٍ بَقِيْنَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ وَبَنَى عَلَى مَسْكَنِهِ سُورًا وَحَفَرَ خَنْدَقًا
عَظِيمًا وَجَعَلَ لَهُ أَبْوَابًا وَجَمَعَ هَفْتَكَيْنِ النَّاسَ لِلْقِتَالِ . وَكَانَ قَدْ تَعَيَّنَ
بَعْدَ ابْنِ الْمَأُورِدِ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِقَسَامِ الشَّرَّابِ وَصَارَ فِي عِدَّةٍ وَافِرَةٍ
مِنَ الدُّعَارِ فَأَعَانَهُ هَفْتَكَيْنِ وَقَوَّاهُ وَأَمَدَّهُ بِالسَّلَاحِ وَغَيْرِهِ .

وَوَقَعَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جَوْهَرٍ حُرُوبٌ عَظِيمَةٌ طَوِيلَةٌ إِلَى يَوْمِ الْحَادِي
عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ سِتِّ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِينَ

فَاخْتَلَّ أَمْرُهُمْ هَفَّتْ كَيْنٌ وَهُمْ بِالْفِرَارِ . ثُمَّ إِنَّهُ اسْتَظْهَرَ وَوَرَدَتْ
الْأَخْبَارُ بِقُدُومِ الْحَسَنِ بْنِ أَحْمَدَ الْقَرْمَطِيِّ إِلَى دِمَشْقَ وَطَلَبَ جَوْهَرَ
الصَّلَحَ عَلَى أَنْ يَرْحَلَ عَنْ دِمَشْقَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَّبِعَهُ أَحَدٌ . وَذَلِكَ
أَنَّهُ رَأَى أَمْوَالَهُ قَدْ قَالَتْ وَهَلَكَ مَكْبَرُهُ مِمَّا كَانَ فِي عَسْكَرِهِ حَتَّى
صَارَ أَكْثَرُ عَسْكَرِهِ رَجَالَةً وَأَعْوَزَهُمُ أَلْفُ وَخَشِي قُدُومَ الْقَرَامِطَةِ .
فَأَجَابَهُ هَفَّتْ كَيْنٌ وَقَدْ عَظُمَ فَرَحُهُ وَأَشْتَدَّ سُورُهُ . فَرَحَلَ فِي
ثَالِثِ جُمَادَى الْأُولَى وَجَدَّ فِي السَّيْرِ وَقَدْ قَرُبَ الْقَرْمَطِيُّ فَأَنَاحَ
بِطَبْرِيةَ . فَلَبَغَ ذَلِكَ الْقَرْمَطِيُّ فَقَصَدَهُ وَقَدْ سَارَ عَنْهَا إِلَى الرَّمْلَةِ .
فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِسَرِيَّةٍ كَانَتْ لَهَا مَعَ جَوْهَرَ وَقَعَةٌ قُتِلَ فِيهَا جَمَاعَةٌ مِنْ
الْعَرَبِ وَأَذْرَكَهُ الْقَرْمَطِيُّ وَسَارَ فِي أَثَرِهِ هَفَّتْ كَيْنٌ . فَمَاتَ الْحَسَنُ
بْنُ أَحْمَدَ الْقَرْمَطِيُّ بِالرَّمْلَةِ وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ بِأَمْرِ الْقَرَامِطَةِ ابْنُ عَمِّهِ
جَعْفَرٌ . فَقَسَدَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَفَّتْ كَيْنٍ وَرَجَعَ عَنِ الرَّمْلَةِ إِلَى الْأَحْسَاءِ
وَنَاصَبَ هَفَّتْ كَيْنٌ الْقِتَالَ وَالْحُجَّ فِيهِ عَلَى جَوْهَرَ حَتَّى انْهَزَمَ مِنْهُ
وَصَارَ إِلَى عَسْقلَانَ . وَقَدْ غَنِمَ هَفَّتْ كَيْنٌ مِمَّا كَانَ مَعَهُ شَيْئًا يَحِلُّ
عَنِ الْوَصْفِ وَنَزَلَ عَلَى الْبَلَدِ مُحَاصِرًا لَهُ . وَبَلَغَ ذَلِكَ الْعَزِيزُ فَاسْتَعَدَّ
لِلْمَسِيرِ إِلَى بِلَادِ الشَّامِ .

فَلَمَّا طَالَ الْأَمْرُ عَلَى جَوْهَرَ رَاسَلَ هَفَّتْ كَيْنَ حَتَّى تَقَرَّرَ الصَّلَحُ

عَلَى مَالٍ يَحْمِلُهُ إِلَيْهِ وَأَنْ يَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ سَيْفِ هَفْتَكَيْنَ . فَعَلَّقَ
 سَيْفَهُ عَلَى بَابِ عَسْقَلَانَ وَخَرَجَ جَوْهَرٌ وَمِنْ مَعَهُ مِنْ تَحْتِهِ وَسَارُوا إِلَى
 الْقَاهِرَةِ فَوَجَدَ الْعَزِيزُ قَدْ بَرَزَ يُرِيدُ السَّيْرَ فَسَارَ مَعَهُ . وَكَانَ مُدَّةُ
 قِتَالِ هَفْتَكَيْنَ لِحَوْهَرٍ عَلَى ظَاهِرِ الرَّمْلَةِ وَفِي عَسْقَلَانَ سَبْعَةَ عَشَرَ
 شَهْرًا . وَسَارَ الْعَزِيزُ بِاللَّهِ حَتَّى نَزَلَ الرَّمْلَةَ . وَكَانَ هَفْتَكَيْنَ يُطَبِّرِيَّةَ
 فَسَارَ إِلَى لِقَاءِ الْعَزِيزِ وَمَعَهُ أَبُو إِسْمٰعِيلَ وَأَبُو طَاهِرٍ أَخُو عِزِّ الدَّوْلَةِ
 بِمُخْتَارَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ بُوَيْهٍ وَأَبُو كَالِيلِجَارَ مَرْزُبَانَ بْنَ عِزِّ الدَّوْلَةِ بِمُخْتَارَ
 بْنِ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهٍ وَحَارُبُوهُ . فَلَمْ تَكُنْ غَيْرَ سَاعَةٍ حَتَّى هَزَمَتْ
 عَسَاكِرُ الْعَزِيزِ عَسَاكِرَ هَفْتَكَيْنَ وَمَلَكُوهُ فِي يَوْمِ الْحَمِيسِ لِسَبْعِ
 بَقِينَ مِنَ الْمُحَرَّمِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِينَ . وَأَسْتَأْمَنَ أَبُو إِسْمٰعِيلَ
 وَمَرْزُبَانَ بْنَ مُخْتَارَ وَقَتْلَ أَبُو طَاهِرٍ أَخُو عِزِّ الدَّوْلَةِ بِمُخْتَارَ وَأَخَذَ
 أَكْثَرَ أَصْحَابِهِ أَسْرَى وَطَلَبَ هَفْتَكَيْنَ فِي الْقَتْلِ فَلَمْ يَوْجَدْ وَكَانَ
 قَدْ فَرَّ وَقَتَ الْهَزِيمَةِ عَلَى فَرَسٍ يُبْزِدُهُ فَأَخَذَهُ بَعْضُ الْعَرَبِ أَسِيرًا
 وَقَدِمَ بِهِ عَلَى مُفَرِّجِ بْنِ دَنْفَلِ بْنِ الْجَرَّاحِ الطَّائِيَّ وَعِمَامَتُهُ فِي
 عُنُقِهِ . فَبَعَثَ بِهِ إِلَى الْعَزِيزِ فَأَمَرَ بِهِ فَشُهِرَ فِي الْعَسْكَرِ وَطِيفَ بِهِ
 فَأَخَذَ النَّاسُ يَلْطِطُونَهُ وَيَهْزُونَ لِحِيَّتَهُ حَتَّى رَأَى فِي نَفْسِهِ الْعَبْرَ
 ثُمَّ سَارَ الْعَزِيزُ يَهْفَتَكَيْنَ وَالْأَسْرَى إِلَى الْقَاهِرَةِ فَاصْطَلَمَهُ وَمِنْ
 مَعَهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ غَايَةَ الْإِحْسَانِ وَأَنْزَلَهُ فِي دَارٍ وَوَصَلَهُ بِالْعَطَاءِ
 وَالْخَلْعِ حَتَّى قَالَ : لَقَدْ اخْتَشَشْتُ مِنْ رُكُوبِي مَعَ مَوْلَانَا الْعَزِيزِ بِاللَّهِ

وَنَظَرِي إِلَيْهِ بِمَا عَمَرَنِي بِهِ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ: فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْعَزِيزُ
 قَالَ لِعَمِّهِ حَيْدَرَةَ: يَا عَمِّ وَاللَّهِ إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَرَى النَّعْمَ عَلَى النَّاسِ
 ظَاهِرَةً وَأَرَى عَلَيْهِمُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَالْجَوْهَرَ وَلَهُمُ الْخَيْلُ وَاللِّبَاسُ
 وَالضِّيَاعُ وَالْعَقَارُ وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ عِنْدِي: وَبَلَغَ الْعَزِيزُ أَنَّ
 النَّاسَ مِنَ الْعَامَّةِ يَقُولُونَ مَا هَذَا التُّرْكِيُّ فَأَمَرَ بِهِ وَشَهَرَ فِي أَجْمَلِ
 حَالٍ. وَلَمَّا رَجَعَ مِنْ تَطَوُّافِهِ وَهَبَ لَهُ مَا لَا حَبْرِيْلًا وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَمَرَ
 سَائِرَ الْأَوْلِيَاءِ أَنْ يَدْعُوهُ إِلَى دُورِهِمْ فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ عَمِلَ لَهُ
 دَعْوَةٌ وَقَدِمَ إِلَيْهِ وَقَادَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْخَيُْولَ. ثُمَّ إِنَّ الْعَزِيزَ قَالَ لَهُ
 بَعْدَ ذَلِكَ: كَيْفَ رَأَيْتَ دَعْوَةَ أَصْحَابِنَا. فَقَالَ: يَا مَوْلَانَا حَسَنَةٌ فِي
 الْغَايَةِ وَمَا فِيهِمْ إِلَّا مَنْ أَنْعَمَ وَأَكْرَمَ: فَصَارَ يَرْكَبُ لِلصَّيْدِ وَالنَّفَرِجِ
 وَجَمَعَ إِلَيْهِ الْعَزِيزُ بِاللَّهِ أَصْحَابَهُ مِنَ الْأَتْرَاكِ وَالْدَّيْلَمِ وَأَسْتَجَبَهُ
 وَأَخْتَصَّ بِهِ. وَمَا زَالَ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ تُوُفِيَ سَنَةٌ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ
 وَثَلَاثِمِائَةً فَاتَّهَمَ الْعَزِيزُ وَزِيرَهُ يَعْقُوبَ بْنَ كَلَسٍ أَنَّهُ سَمَّاهُ لِأَنَّ
 هَفْتَكَيْنَ كَانَ يَتَرَفَّعُ عَلَيْهِ فَأَعْتَقْلَهُ مُدَّةً ثُمَّ أَخْرَجَهُ

حَارَةً الْأَتْرَاكِ. هَذِهِ الْحَارَةُ تُجَاهَ الْجَامِعِ الْأَزْهَرِ وَتُعْرَفُ الْيَوْمَ
 بِدَرْبِ الْأَتْرَاكِ. وَكَانَ نَافِذًا إِلَى حَارَةِ الدَّيْلَمِ وَالْوَرَّاقُونَ الْقُدَمَاءُ
 تَارَةً يُفَرِّدُونَهَا مِنَ الدَّيْلَمِ وَتَارَةً يُضَيِّفُونَهَا إِلَيْهَا وَيَجْعَلُونَهَا مِنْ حُصُوفِهَا
 فَيَقُولُونَ حَارَةَ الدَّيْلَمِ وَالْأَتْرَاكِ. وَتَارَةً يَقُولُونَ حَارَتِي الدَّيْلَمِ
 وَالْأَتْرَاكِ. وَقِيلَ لَهَا حَارَةُ الْأَتْرَاكِ لِأَنَّ هَفْتَكَيْنَ لَمَّا غَلَبَ بَغْدَادَ

سَارَ مَعَهُ مِنْ جَنْسِهِ أَرْبَعُمِائَةٍ مِنَ الْأَتْرَاكِ وَتَبَلَّحَقَ بِهِ عِنْدَ وُرُودِ
 الْقَرَامِطَةِ عَلَيْهِ بِدِمَشْقَ عِدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ . فَلَمَّا جَمَعَ لِحَرْبِ الْعَزِيدِ
 بِاللَّهِ كَانَ أَصْحَابُهُ مَا بَيْنَ ثَلَاثٍ وَدَلِيلِم . فَلَمَّا قَبِضَ عَلَيْهِ الْعَزِيدُ
 وَدَخَلَ إِلَى الْقَاهِرَةِ بِهِ فِي الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ
 سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ كَمَا تَقَدَّمَ نَزَلَ الدَّيْلَمُ مَعَ أَصْحَابِهِمْ فِي
 مَوْضِعِ حَارَةِ الدَّيْلَمِ وَنَزَلَ هَفَّتَبُكَيْنُ بِأَتْرَاكِهِ فِي هَذَا الْمَكَانِ .
 فَصَارَ يُعْرَفُ بِحَارَةِ الْأَتْرَاكِ وَكَانَتْ مُخْتَلِطَةً بِحَارَةِ الدَّيْلَمِ لِأَنَّهَا
 أَهْلُ دَعْوَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَّا أَنَّ كُلَّ جَنْسٍ عَلَى حِدَةٍ لِنَحْوِئِهِمَا فِي الْجَنَسِيَّةِ
 ثُمَّ قِيلَ بَعْدَ ذَلِكَ دَرَبُ الْأَتْرَاكِ

كُنْتُ مَرَّةً جَالِسًا فِي حُجْرَةٍ صَغِيرَةٍ وَأَنَا أَلَسُّخُ وَهُنَاكَ مَرْتَبَةٌ بِرَسْمِ
 الْخَلِيفَةِ إِذَا جَاءَ إِلَى هُنَاكَ جَلَسَ عَلَيْهَا وَقَدْ بَسِطَتْ عَلَيْهَا مِلْحَفَةً
 لَتَرَدَّ عَنْهَا الْغُبَارُ . فَجَاءَ خُوَيْدِيمٌ صَغِيرٌ وَنَامَ قَرِيبًا مِنَ الْمَرْتَبَةِ الْمَذْكُورَةِ
 وَاسْتَفْرَقَ فِي النَّوْمِ فَتَقَلَّبَ حَتَّى تَلَفَّ فِي تِلْكَ الْمِلْحَفَةِ الْمَبْسُوطَةِ
 عَلَى الْمَرْتَبَةِ ثُمَّ تَقَلَّبَ حَتَّى صَارَتْ رِجْلَاهُ عَلَى الْمِسْنَدِ . قَالَ وَأَنَا
 مَشْغُولٌ بِاللَّسُّخِ فَأَحْسَسْتُ بَوَظٍّ فِي الدَّهْلِيزِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ الْخَلِيفَةُ
 وَهُوَ يَسْتَدْعِينِي بِالْإِشَارَةِ وَيُخَفِّفُ وَظَاهُ . فَكُنْتُ إِلَيْهِ مُنْزَعَجًا وَقَبْلْتُ
 الْأَرْضَ فَقَالَ لِي : هَذَا الْخُوَيْدِيمُ الَّذِي قَدْ نَامَ حَتَّى تَلَفَّ فِي هَذِهِ

مُخَنَّةٌ

مِنْ سِيرَةِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ صَلَاحِ الدِّينِ (١)
لِبَهَاءِ الدِّينِ الشَّدَادِيِّ

ذِكْرُ مَسِيرِ الْإِفْرَنْجِ الصَّلِيبِيِّينَ مِنْ عَكَّا إِلَى عَسْقَلَانَ وَأَتَمَّالِهِمْ
إِلَى طَرَفِ الْبَحْرِ مِنْ جَانِبِ الْغَرْبِ

وَلَمَّا كَانَ التَّاسِعُ وَالْعِشْرُونَ مِنْ رَجَبِ سَنَةِ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ
وخمسمائة . رَكِبَ الْإِفْرَنْجُ بِأَسْرِهِمْ . وَقَلَعُوا خِيَاءَهُمْ . وَحَمَلُوهَا
عَلَى دَوَابِّهِمْ . وَسَارُوا حَتَّى قَطَعُوا النَّهْرَ إِلَى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ .
وَضَرَبُوا الْحِيَامَ عَلَى طَرِيقِ عَسْقَلَانَ . وَأَظْهَرُوا الْعَزَمَ عَلَى الْأَسِيرِ
عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ . وَأَمَرَ الْأَنْكَتَارُ (يُرِيدُ بِهِ رِيكَرْدُوسَ مَلِكِ

(١) اما صلاح الدين فهو اول ملوك الايوبيين في مصر ولد في تكريت ما بين
النهريين وكان ولداً لايوب الكردي . فاشتهر منذ شبته بجسارة المسيحيين فذهب الى مصر
حيث تقيد بخدمة نور الدين في سنة ١١٦٤ فاصبح وزيراً لآخر الفاطميين . وبعد
وفاة نور الدين انتهز فرصة حادثة ولده صلاح اسماعيل . فانام نفسه وصياً عليه واستولى
على سورية في سنة ١١٧٥ . ثم استقل في مصر والحق بملكه جانباً عظيماً من بين التهرين .
فحاربه المسيحيون فاستظهروا عليه في رملة (١١٧٨) لكنه استظهر في باتياس وطبرية على
قوي دي لوزينيان ملك القدس واستأسره (١١٧٨) وفيها استولى على القدس وقبض
على زمام مملكتها فكان سقوط مملكة القدس سبباً لحرب الصليبيين الثالثة . فاضطر
صلاح الدين أن يقاسي مشقات عظيمة اولاً فاخذت منه عكاً وقيصرية ويافا . لكنه
فهرأ عن بسالة المسيحيين لاسيما ريكردوس قلب الاسد ظفر وساد . وتوفي سنة ١١٩٣ وله
اخ يدعى مالك عادل و١٧ ولداً تقاسموا ملكه . فحاز صلاح الدين الاعتبار حتى لدى
المسيحيين ايضاً لحسن سياسته ونشاطه وكرمه وشجاعته (بولي)

الْأَنْكِيَزِ) بَاقِيَ النَّاسِ أَنْ يَدْخُلُوا إِلَى الْبَلَدِ . وَكَانُوا قَدْ سَدُّوا
ثُغْرَهُ وَثَلَّمَهُ . وَأَصْلَحُوا مَا اسْتَهْدَمَ مِنْهُ . وَكَانَ مُقَدِّمُ الْعَسْكَرِ الْخَارِجِ
السَّائِرِ الْأَنْكَتَارُ . وَجَمْعُ عَظِيمٍ مِنَ الرِّجَالَةِ وَالْحِيَالَةِ . وَلَمَّا كَانَ
مُسْتَهْلُ شَعْبَانَ أَشْتَعَلَتْ زِيرَانُ الْعَدُوِّ فِي سُحْرَةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ
وَعَادَتُهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا الرِّجِيلَ أَشْعَلُوا زِيرَانَهُمْ . وَأَخْبَرَ الْبَيْزَكُ
بِحَرَكَتِهِمْ فَأَمَرَ السُّلْطَانُ بِالْتَّقَبُلِ أَنْ يُدْفَعَ حَتَّى يَبْقَى النَّاسُ عَلَى
ظَهْرِ . فَقَعَلَ النَّاسُ ذَلِكَ . وَهَلَكَ مِنَ النَّاسِ قَاشُ كَثِيرٌ . وَحَوَائِجُ
كَثِيرَةٌ مِنَ السُّوقَةِ لَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ خَيْلٌ وَلَا ظَهْرٌ يُحْمِلُ جَمِيعَ مَا
عِنْدَهُمْ . لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ كَانَ يُحْصِلُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَشْهُرِهِ .
وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ السُّوقَةِ عِنْدَهُ مَا يَتَّخِذُ مِنْ مَنْزِلٍ إِلَى مَنْزِلٍ فِي مِرَازٍ
مُتَعَدِّدَةٍ . لَكِنَّ هَذَا الْمَنْزِلَ لَمْ يَكُنْ أَنْ يَتَخَلَّفَ فِيهِ أَحَدٌ لِقُرْبِهِ مِنَ
الْإِفْرَاجِ الَّذِينَ يَبْغَاوُ الْخَوْفَ مِنْهُمْ

وَلَمَّا أَنَّ عَلَا النَّهَارُ . شَرَعَ الْعَدُوُّ فِي السَّيْرِ عَلَى جَانِبِ الْبَحْرِ .
وَتَفَرَّقُوا قِطْعًا كَثِيرَةً . كُلُّ قِطْعَةٍ تَحْمِي عَنْ نَفْسِهَا . وَقَوَى السُّلْطَانُ
(أَيَّ صَلَاحِ الدِّينِ) الْبَيْزَكُ . وَأَنْفَذَ مُعْظَمَ الْعَسَاكِرِ قُبَالَتِهِمْ . فَمَضَوْا
وَقَاتَلُوهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا . وَأَنْفَذَ وَلَدُهُ الْمَلِكُ الْأَفْضَلَ يُخْبِرُ أَنَّهُ قَطَعَ
طَائِفَةً مِنْهُمْ عَنْ الْمُؤَافَقَةِ . وَلَقَدْ لَزَبَهُمْ بِالْقِتَالِ . وَلَوْ قَوَيْنَا لَأَخَذْنَاهُمْ .
فَسِيرَ السُّلْطَانُ خَلْقًا عَظِيمًا مِنَ الْعَسْكَرِ . وَسَارَ هُوَ بِنَفْسِهِ وَأَنَا
بِخِدْمَتِهِ . حَتَّى أَتَى أَوَائِلَ الرَّمْلِ . فَلَقِينَا الْمَلِكَ الْعَادِلَ أَخُوهُ : إِنَّ

تِلْكَ الطَّائِفَةُ قَدْ اُنْجَتْ بِالطَّائِفَةِ الْاُولَى . وَمُعْظَمُ الْقَوْمِ قَدْ عَبَرُوا
 نَهْرَ حِيفًا وَقَدْ نَزَلُوا . وَالْبَاقُونَ قَدْ لَحِقُوا بِهِمْ . وَلَيْسَ لِلْمَسِيرِ
 وَرَاءَهُمْ حَاصِلٌ اِلَّا اِلْتِمَاعُ الْعَسْكَرِ وَصَيَاحُ الشَّابِّ لَا غَيْرُ
 فَتَرَا جَعَ السُّلْطَانُ عَنِ الْقَوْمِ لَمَّا تَحَقَّقَ ذَلِكَ وَامَرَ طَائِفَةً مِنْ
 الْعَسْكَرِ اَنْ تَسِيرَ وَرَاءَ الثَّقَلِ يَلْحَقُ ضَعِيفَهُمْ بِقُوَّتِهِمْ . وَيَكْفُ
 عَنْهُمْ مَنْ يَلْحَقُ بِهِمْ مِنَ الْعَدُوِّ وَالطَّمَاعَةِ وَسَارَ هُوَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى
 الْقَيْمُونِ عَصَرَ ذَلِكَ النَّهَارِ فَنَزَلَ وَضَرَبَ لَهُ الدَّهَازِيَّ وَشَقَّةَ دَائِرَةِ
 حَوْلَهُ لَا غَيْرُ . وَاسْتَحْضَرَ الْجَمَاعَةَ وَآكَلُوا شَيْئًا وَاسْتَشَارَهُمْ فِي
 مَا يَفْعَلُ

الْمَنْزِلُ الثَّانِي : اتَّفَقَ رَأْيُ جَمَاعَةٍ عَلَى أَنَّهُمْ يَدْخُلُونَ بَكْرَةَ غَدٍ .
 هَذَا وَقَدْ رَتَّبَ حَوْلَ الْاِفْرَنْجِ يَزَكًا يَبْتَاعُونَ حَوْلَهُ وَيَرْقُبُونَ أَمْرَهُ .
 وَلَمَّا كَانَ صَبَاحُ ثَانِي شَعْبَانَ رَحَلَ السُّلْطَانُ الثَّقَلَ وَأَقَامَ هُوَ يَتَرَصَّدُ
 أَخْبَارَ الْعَدُوِّ فَلَمْ يَصِلْ مِنْهُمْ شَيْءٌ إِلَى أَنْ عَلَا النَّهَارُ . فَسَارَ فِي أَثَرِ
 الثَّقَلِ حَتَّى أَتَى قَرْيَةً يُقَالُ لَهَا قَرْيَةُ الصَّبَاغَيْنِ . فَجَلَسَ يَتَرَقَّبُ أَخْبَارَ
 الْعَدُوِّ وَكَانَ قَدْ خَلَفَ جُرْدِيكَ قَرِيبَ الْعَدُوِّ فَلَمْ يَصِلْهُ خَبَرٌ أَضْلًا .
 فَسَارَ حَتَّى أَتَى الثَّقَلَ فِي مَنْزِلَةٍ يُقَالُ لَهَا عُيُونُ الْأَسَاوِدِ وَلَمَّا بَلَغْنَا
 الْمَنْزِلَةَ رَأَى خِيَامًا فَسَالَ عَنْهَا فَقِيلَ إِنَّهَا خِيَمُ الْمَلِكِ الْعَادِلِ . فَعَدَلَ
 لِيَنْزِلَ عِنْدَهُ فَأَقَامَ عِنْدَهُ سَاعَةً . ثُمَّ أَتَى خِيَمَتَهُ . وَقَفَدَ الْخُبْرُ فِي هَذِهِ
 الْمَنْزِلَةِ بِالْكَلِيَّةِ وَغَلَا الشَّعِيرُ حَتَّى بَلَغَ دِرْهَمًا وَبَلَغَ الْبَقْسِمَاطُ الرُّطْلُ

دِرْهَمَيْنِ . ثُمَّ أَقَامَ السُّلْطَانُ حَتَّى عَبَرَ وَقْتُ الظُّهْرِ . وَرَكِبَ وَسَارَ إِلَى
مَوْضِعٍ يُسَمَّى الْمَلَاخَةَ تَكُونُ مَنْزِلًا لِلْعَدُوِّ إِذَا رَحَلَ مِنْ حَيْفَا . وَكَانَ
قَدْ سَبَقَ لِيَتَفَقَّدَ الْمَكَانَ هَلْ يَضِلُّهُ الْمَصَافِ أَمْ لَا . وَتَفَقَّدَ أَرَاضِي
قِيَسَارِيَّةَ بِأَسْرِهَا إِلَى الشُّعْرَاءِ . وَعَادَ إِلَى الْمَنْزِلِ بَعْدَ دُخُولِ وَقْتِ
الْعِشَاءِ الْآخِرِ . وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ التَّعَبُ . وَسَأَلَتْهُ عَمَّا بَلَغَهُ مِنْ خَبَرِ
الْعَدُوِّ فَقَالَ : وَصَلَ إِلَيْنَا مَنْ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ مَا رَحَلَ مِنْ حَيْفَا إِلَى عَصْرِ
يَوْمِنَا هَذَا يَعْنِي ثَانِي شَعْبَانَ وَهَذَا نَحْنُ مُقِيمُونَ مُرْتَقِبُونَ أَخْبَارَهُمْ
وَيَكُونُ الْعَمَلُ بِمُتَضَاهَا . وَبَاتَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَأَصْبَحَ مُقِيمًا بِتَلٍّ
الزَّلْزَلَةِ يَنْتَظِرُ الْعَدُوَّ وَنَادَى الْجَاوِشُ بِالْعَسْكَرِ لِلْعَرَضِ . فَارْتَكَبَ
النَّاسُ عَلَى تَرْتِيبِ الْمَصَافِ وَأَهْبَتِهِ . وَلَمَّا عَلَا النَّهَارُ نُزِلَ السُّلْطَانُ
فِي خِيَمَتِهِ وَأَخَذَ نَصِيبًا مِنَ الرَّاحَةِ بَعْدَ الْغَدَاءِ وَمَثُولِ جَمَاعَةٍ مِنَ
الْأَمْرَاءِ إِلَى خِدْمَتِهِ وَأَخَذَ رَأْيَهُمْ فِي مَا يَصْنَعُونَ . ثُمَّ صَلَّى الظُّهْرَ
وَجَلَسَ يُطْلِقُ أَثْمَانَ الْحَيُولِ الْمَجْرُوحَةِ وَغَيْرِهَا إِلَى الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ
مِنْ مِئَةِ دِينَارٍ إِلَى مِئَةِ وَخَمْسِينَ دِينَارًا وَزَائِدًا وَنَاقِصًا . فَمَا رَأَيْتُ
أَقْسَمَ صَدْرًا مِنْهُ وَلَا أَبْسَطَ وَجْهًا فِي الْعَطَاءِ وَاتَّفَقَ الرَّأْيُ عَلَى
رَحِيلِ الثَّقَلِ فِي عَصْرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى مَجْدَلٍ يَافَا

الْمَنْزِلُ الثَّلَاثُ : وَأَقَامَ هُوَ جَرِيدَةً بِالْمَنْزِلِ إِلَى الصَّبَاحِ رَابِعِ
الشَّهْرِ . وَرَكِبَ وَسَارَ فِي رَأْسِ النَّهْرِ الْجَارِي إِلَى قِيَسَارِيَّةَ وَنَزَلَ
هُنَاكَ . وَبَلَغَ الْبُقْسِمَاطُ الرُّطْلُ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ . وَالشَّعِيرُ الرَّبْعُ دِرْهَمَيْنِ

وَنُصِفَ . وَالحَبْرُ لَمْ يُوَجَدْ أَصْلًا . وَنَزَلَ فِي خِيَمَةٍ وَأَكَلَ خُبْزًا وَصَلَّى
الظُّهْرَ . وَرَكِبَ إِلَى طَرِيقِ الْعَدُوِّ لِتَجْدِيدِ إِرْشَادِهِ فِي ضَرْبِ
الْمُصَافِ . وَلَمْ يَبْذُ إِلَى أَنْ دَخَلَ وَقْتُ الْعَصْرِ فَجَلَسَ سَاعَةً وَأَخَذَ
جُزْءًا مِنَ الرَّاحَةِ . ثُمَّ عَادَ وَرَكِبَ وَأَمَرَ النَّاسَ بِالرَّحِيلِ وَرَمَى خِيَمَتَهُ
وَرَمَى النَّاسُ خِيَامَهُمْ فِي أَوَاخِرِ النَّهَارِ

الْمَنْزِلُ الرَّابِعُ : وَكَانَ الرَّحِيلُ إِلَى رَايَةِ مُاخِرَةٍ مِنْ تِلْكَ
الرَّايَةِ . وَفِي ذَلِكَ الْمَنْزِلِ أَتَى بِأَتْنَيْنِ مِنَ الْإِفْرَنْجِ قَدْ تَخَطَّاهُمُ
الْإِيزُكُ . فَأَمَرَ بِضَرْبِ رِقَابِهِمَا فَفُتِلَا . وَتَكَثَّرَ النَّاسُ عَلَيْهِمَا بِالسُّيُوفِ
تَشْفِيًا . ثُمَّ بَاتَ هُنَاكَ وَأَصْبَحَ مُقِيمًا بِالْمَنْزِلَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ عَنِ الْعَدُوِّ
رَحِيلٌ وَأَنْفَذَ إِلَى الثَّقَلِ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مِمَّا طَرَأَ عَلَى
النَّاسِ مِنَ الضِّيقِ فِي الْمَأْكَلِ وَالْقَضْمِ . وَرَكِبَ فِي وَقْتِ عَادَتِهِ
إِلَى جِهَةِ الْعَدُوِّ . وَأَشْرَفَ عَلَى قَيْسَارِيَّةَ . وَعَادَ إِلَى الثَّقَلِ قَرِيبَ
الظُّهْرِ وَقَدْ وَصَلَ الْخَبْرُ أَنَّ الْعَدُوَّ لَمْ يَزَلْ بَعْدُ مِنَ الْمَلَاَحَةِ .
وَأَحْضَرَ عِنْدَهُ اثْنَانِ أَيْضًا قَدْ أَخَذَا مِنْ أَطْرَافِ الْعَدُوِّ وَقُتِلَا شَرًّا
قِتْلَةً . وَكَانَ فِي حِدَّةِ الضِّيقَةِ لَمَّا جَرَى عَلَى أَسْرَى عَكَّا . ثُمَّ أَخَذَ
جُزْءًا مِنَ الرَّاحَةِ وَجَلَسَ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ . وَحَضَرَتْ عِنْدَهُ وَقَدْ
أَحْضَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْعَدُوِّ فَارِسٌ مَذْكُورٌ هَيْئَتُهُ تُخْبِرُ عَنْ أَنَّهُ
مُتَقَدِّمٌ فِيهِمْ . فَأَحْضَرَ زُجْجَانٌ وَبَحَثَ عَنْ أَحْوَالِ الْقَوْمِ وَسَأَلَهُ كَيْفَ
يُسَوَّى الطَّعَامُ عِنْدَكُمْ فَقَالَ : أَوَّلَ يَوْمٍ رَحْنَا مِنْ عَكَّا كَانَ الْإِنْسَانُ

يَشْعُ بِسِتَّةِ قَرَاتِيسَ فَلَمْ يَزَلِ السَّعْرُ يَغْلُو حَتَّى صَارَ يَشْعُ بِثَمَانِيَةِ
 قَرَاتِيسَ . وَسَأَلَ عَنْ سَبَبِ تَأْخُرِهِمْ فِي الْمَنَازِلِ فَقَالَ : لَا تُتَظَارَرُ
 وَصُولُ الْمَرَائِكِ بِالرَّجَالِ وَالْمِيرَةِ . فَسَأَلَ عَنْ الْقَتْلِ وَالْجُرْحَى فِي
 يَوْمِ رَحِيهِمْ فَقَالَ : كَثِيرٌ . فَسَأَلَ عَنِ الْحَيْلِ الَّتِي هَلَكَتْ فِي ذَلِكَ
 الْيَوْمِ فَقَالَ : مِقْدَارُ أَرْبَعِيَّاتِهِ فَرَسٍ . فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ . وَنَهَى عَنْ
 التَّمَثُّلِ بِهِ . فَسَأَلَ التَّرْجَمَانُ عَمَّا قَالَ السُّلْطَانُ فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ .
 فَتَغَيَّرَ تَغَيُّرًا عَظِيمًا وَقَالَ : أَنَا أَخْلَصْتُ لَكُمْ أَسِيرًا مِنْ عِكََا . فَقَالَ رَحِمَهُ
 اللَّهُ بَلْ أَمِيرًا . فَقَالَ : لَا أَقْدِرُ عَلَى خَلَاصِ أَمِيرٍ . فَشَفَعَ الطَّمَعُ فِيهِ
 وَحَسَنُ خِلَقَتِهِ . فَأَيَّ مَا رَأَيْتُ أَتَمَّ خِلَقَةً مِنْهُ مَعَ تَرْفٍ فِي الْأَطْرَافِ
 وَرَفَاهِيَةٍ . فَأَمَرَ أَنْ يُتْرَكَ الْآنَ وَيُؤَخَّرَ أَمْرُهُ . فَصَدَقَهُ وَعَاتَبَهُ عَلَى مَا
 بَدَأَ مِنْهُمْ مِنَ الْعُدْوِ وَقَتْلِ الْأَسْرَى . فَأَعْتَرَفَ بِأَنَّهُ قَبِيحٌ وَأَنَّهُ لَمْ
 يُجْرِ إِلَّا بِرِضَى الْمَلِكِ وَحْدَهُ . وَرَكِبَ السُّلْطَانُ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ
 عَلَى عَادَتِهِ . وَبَعْدَ أَنْ نُزِلَ أَمْرُ بَيْتِلِ الْفَارِسِ الْمَذْكُورِ . وَأُتِيَ بَعْدَهُ
 بِأَتْنَيْنِ فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمَا . وَبَاتَ فِي ذَلِكَ الْمَنْزِلِ وَذَكَرَ لَهُ فِي السَّحَرِ
 أَنَّ الْعَدُوَّ قَدْ تَحَرَّكَ نَحْوَ قَيْسَارِيَّةَ . وَقَارَبَ أَوَائِلَهُمْ الْبَلَدَ . فَرَأَى أَنْ
 يَتَأَخَّرَ مِنْ طَرِيقِ الْعَدُوِّ مَنْزِلًا آخَرَ

الْمَنْزِلُ الْخَامِسُ : فَرَحَلَ وَرَحَلَ النَّاسُ إِلَى قَرِيبِ التَّلِّ الَّذِي كُنَّا
 عَلَيْهِ فَنَزَلَ النَّاسُ وَضُرِبَتِ الْخِيَامُ . وَمَضَى هُوَ يَدْتَاذِ الْأَرَاضِي
 الْكَائِنَةِ فِي طَرِيقِ الْعَدُوِّ لِيَنْظُرَ أَيُّهَا أَصْحُلُ لِلْمَصَافِ وَنَزَلَ قَرِيبَ

الظَّهْرِ . وَاسْتَدْعَى أَخَاهُ الْمَلِكَ الْعَادِلَ . وَعَلَّمَ الدِّينَ سُلَيْمَانَ . وَأَخَذَ رَأْيَهُمَا فِي مَا يَصْنَعُ . وَأَخَذَ جُزْءًا مِنَ الرَّاحَةِ وَأَذَنَ الظَّهْرِ . فَصَلَّى وَرَكِبَ لِشُرْفٍ وَلِيَكْشِفَ عَنِ الْعَدُوِّ وَيَتَسَمَّ أَخْبَارُهُ . وَأَتَاهُ اثْنَانِ مِنَ الْإِفْرَنْجِ قَدْ نَهَبَا وَأَمَرَ بِقَتْلِهِمَا قَتْلًا . ثُمَّ أَتَى بِأَتْنَيْنِ آخَرَيْنِ قَتْلًا أَيْضًا . وَجِيَّ أَوَاخِرَ النَّهَارِ بِأَتْنَيْنِ قَتْلًا أَيْضًا . وَعَادَ مِنَ الزُّكُوبِ وَصَلَّى صَلَاةَ الْمَغْرِبِ . وَجَلَسَ عَلَى عَادَتِهِ وَاسْتَدْعَى أَخَاهُ وَصَرَفَ النَّاسَ . وَخَلَا بِهِ إِلَى هَوِيِّ مِنَ اللَّيْلِ . ثُمَّ بَاتَ وَأَصْبَحَ وَنَادَى الْجَلَاوِشَ لِعَرْضِ الْخَلْقَةِ لَا غَيْرُ . وَرَكِبَ إِلَى جِهَةِ الْعَدُوِّ وَوَقَفَ عَلَى تَلْوَلٍ مُشْرِفَةٍ عَلَى قَيْسَارِيَّةَ . وَكَانَ الْعَدُوُّ قَدْ وَصَلَ إِلَيْهَا نَهَارَ الْجُمُعَةِ سَادِسَ شَعْبَانَ . وَلَمْ يَزَلْ يَعْزِضُ هُنَاكَ إِلَى أَنْ عَلَا النَّهَارُ . ثُمَّ نَزَلَ وَآكَلَ الطَّعَامَ . وَرَكِبَ إِلَى أَخِيهِ وَعَادَ بَعْدَ صَلَاةِ الظَّهْرِ . وَأَخَذَ جُزْءًا مِنَ الرَّاحَةِ . وَأَتَى بِأَرْبَعَةِ عَشَرَ مِنَ الْإِفْرَنْجِ وَأَمْرَأَةٍ إِفْرَنْجِيَّةٍ بَيْنَهُمْ أُسِيرَةٌ . وَهِيَ بِنْتُ الْقَارِسِ الْمَذْكُورِ . وَمَعَهَا أُسِيرَةٌ مُسْلِمَةٌ قَدْ أَخَذَتْهَا فَأَطْلَقَتِ الْمُسْلِمَةَ . وَرَفَعَ الْبَاغُونَ إِلَى الزَّرْدَخَانَةِ وَهَؤُلَاءِ أَتَى بِهِمْ مِنْ بَيْرُوتَ أَخَذُوا فِي مَرْكَبٍ مِنْ جُمْلَةِ عِدَّةٍ كَثِيرَةٍ قَتَلُوا . كُلُّ ذَلِكَ فِي نَهَارِ السَّبْتِ سَابِعِ الشَّهْرِ . وَهُوَ فِي الْمَنْزِلَةِ يَنْتَظِرُ رَحِيلَ الْعَدُوِّ . مُجْمَعًا عَلَى لِقَائِهِ إِذَا رَحَلَ الْمَنْزِلَ السَّادِسُ : وَلَمَّا كَانَ صَبِيحَةُ الثَّامِنِ رَكِبَ السُّلْطَانُ عَلَى عَادَتِهِ ثُمَّ نَزَلَ . وَوَصَلَ مِنْ أَخِيهِ أَنَّ الْعَدُوَّ عَلَى حَرَكَةٍ . وَكَانَتْ

الْأَطْلَابُ قَدْ بَاتَ حَوْلَ قَيْسَارِيَّةَ فِي مَوَاضِعِهَا . فَأَمَرَ بِمَدِّ الطَّعَامِ
وَأَطْعَمَ النَّاسَ فَوَصَلَ ثَانٍ وَأَخْبَرَ : أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ سَارُوا . فَأَمَرَ بِالْكَوْسِ
فَدُقَ وَرَكِبَ وَرَكِبَ النَّاسُ وَسَارَ وَسِيرْتُ فِي خِدْمَتِهِ حَتَّى أَتَى
عَسْكَرَ الْعَدُوِّ وَصَفَّ الْأَطْلَابَ حَوْلَهُ وَأَمَرَهُمْ بِقِتَالِهِمْ وَأَخْرَجَ
الْجَالِيشَ . فَكَانَ الثُّنَابُ بَيْنَهُمْ كَالْمَطَرِ وَكَانَ عَسْكَرُ الْعَدُوِّ قَدْ وَثَبَ .
فَكَانَتِ الرِّجَالُ حَوْلَهُ كَالسُّودِ وَعَلَيْهِمُ اللَّبُودُ الْثَخِينَةُ وَالزَّرْدِيَّاتُ
السَّائِفَةُ الْعُكْمَةُ بِحَيْثُ يَتَّعُ فِيهِمُ الثُّنَابُ وَلَا يَتَأَخَّرُونَ وَهُمْ يَزْمُونَ
بِالزَّرْبِ نَبِيْلٍ فَيُخْرِجُ خَيْلَ الْمُسْلِمِينَ وَخِيَالَتَهُمْ . وَلَقَدْ شَاهَدْتُهُمْ وَتَغَرَّزُوا
فِي ظَهْرِ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ الْوَاحِدُ وَالْعَشْرَةُ وَهُوَ لَيْسَرُ عَلَى هَيْئَةٍ مِنْ
غَيْرِ أَرْعَاجٍ . وَثُمَّ قَسَمَ آخَرُ مِنَ الرِّجَالِ مُسْتَرْمِجٌ يَمْشُونَ عَلَى جَانِبِ
الْبَحْرِ وَلَا قِتَالَ عَلَيْهِمْ . فَإِذَا تَبَّ هَوْلَاءُ الْمُقَاتِلُونَ أَوْ انْخَنَعَتْهُمُ الْجِرَاحُ
قَامَ مَقَامَهُمُ الْمُسْتَرْمِجُ وَاسْتَرَاحَ التَّسَمُّ الْعَمَالُ . هَذَا وَالْخِيَالَةُ فِي
وَسْطِهِمْ لَا يُخْرِجُونَ عَنِ الرِّجَالَةِ إِلَّا فِي وَقْتِ الْحُمْلَةِ لَا غَيْرُ . وَقَدْ
انْقَسَمُوا أَيْضًا ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ الْقِسْمُ الْأَوَّلُ الْمَلِكُ الْعَتِيقُ جُفَرَى
وَجَمَاعَةُ السَّاجِلِيَّةِ مَعَهُ فِي الْمَقْدَمَةِ وَالْأَنْكَتَارُ وَالْقَرْنَيْسُ مَعَهُ فِي
الْوَسْطِ وَأَوْلَادُ إِيْلَيْتِ أَصْحَابُ طَبَرِيَّةَ وَطَابَرْتَةُ أُخْرَى فِي السَّاقَةِ .
وَفِي وَسْطِ الْقَوْمِ بُرْجٌ عَلَى عَجَلَةٍ وَعَلَيْهِ كَالْمَنَارَةِ الْعَظِيمَةِ . هَذَا
تَرْتِيبُ الْقَوْمِ عَلَى مَا شَاهَدْتُهُ . وَأَخْبَرَ مَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَسْرَى
وَالْمُسْتَأْمِنِينَ . وَسَارُوا عَلَى الْمِثَالِ وَسُوقُ الْحَرْبِ قَائِمَةٌ وَالْمُسْلِمُونَ

يُرْمُونَهُمْ بِالْأَشَابِ مِنْ جَوَانِبِهِمْ وَيُحَرِّكُونَ عَزَائِهِمْ حَتَّى يَخْرُجُوا .
وَهُمْ يَحْفَظُونَ نَفْسَهُمْ حِفْظًا عَظِيمًا وَيَطْمَئِنُّونَ الطَّرِيقَ عَلَى هَذَا
الْوَضْعِ وَيَسِيرُونَ سَيْرًا رَفِيقًا وَمَرَاحَةً فِيهِمْ تَسِيرُ فِي مُقَابَلَتِهِمْ فِي
الْبَحْرِ إِلَى أَنْ أَتَوْا الْمُنْزِلَ . وَكَانَتْ مَنَازِلُهُمْ قَرِيبَةً لِأَجْلِ الرِّجَالَةِ .
فَإِنَّ الْمُسْتَرِيحِينَ مِنْهُمْ كَانُوا يَحْمِلُونَ أَثْقَالَهُمْ وَخِيَمَهُمْ لِقَاءِ الظُّوْرِ
عَلَيْهِمْ . فَانْظُرْ إِلَى صَبْرِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ . وَكَانَ
مَنْزِلَتُهُمْ قَاطِعَ نَهْرٍ قِيسَارِيَّةً

الْمُنْزِلُ السَّابِعُ : وَلَمَّا كَانَتْ صَبِيحَةُ التَّاسِعِ وَصَلَ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ
الْعَدُوَّ قَدْ رَكِبَ سَارِيًّا فَرَكِبَ السُّلْطَانُ أَوَّلَ الصُّبْحِ رَطَابَ الْأَطْلَابِ
وَأَخْرَجَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ جَالِيشًا . فَسَارَ يَطْلُبُ الْقَوْمَ وَطَافَ الْجَالِيشُ
حَوْلَهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَزَوَّوهُمْ بِالْأَشَابِ . وَهُمْ سَارُونَ ثَلَاثَةَ
أَقْسَامٍ عَلَى الْمِثَالِ الَّذِي حَكَمْتُهُ . وَكُلَّمَا ضَمَفَ قِسْمٌ عَاوَنَهُ الَّذِي
يَلِيهِ . وَهُمْ يَحْفَظُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . وَالْمَسَامُونَ مُحْدِقُونَ بِهِمْ مِنْ ثَلَاثَةِ
جَوَانِبٍ وَالْقِتَالُ عَلَيْهِمْ شَدِيدٌ وَالسُّلْطَانُ يُقَرِّبُ الْأَطْلَابَ . وَرَأَيْتُهُ
هُوَ يَسِيرُ نَفْسَهُ بَيْنَ الْجَالِيشِينَ . وَنَشَابُ الْقَوْمِ يُحَاوِرُهُ وَيَأْسُ مَعَهُ
إِلَّا صَبِيحَانِ بِجَنَبَيْنِ لَا غَيْرَ . وَهُوَ يَسِيرُ مِنْ طَلَبٍ إِلَى طَلَبٍ يَحْتَفِظُهُمْ
عَلَى التَّقَدُّمِ وَيَأْمُرُهُمْ بِضَاقَةِ الْقَوْمِ وَمُقَاتَلَتِهِمْ وَالْكُوسَاتُ تَحْتَقُ
وَالْبُوقَاتُ تَنْعَرُ وَالصَّبَاحُ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ يَدْتَفِعُ . هَذَا وَالْقَوْمُ
عَلَى أَمَرٍ ثَبَاتٍ عَلَى تَرْتِيبِهِمْ لَا يَتَغَيَّرُونَ وَلَا يَنْزِعُونَ . وَجَرَتْ

حَالَاتٌ كَثِيرَةٌ وَرَجَّالَتُهُمْ تَخْرُجُ الْمُسْلِمِينَ وَخِيُولُهُمْ بِالزَّرَنُوكِ
وَالشَّابِ . وَلَمْ تَزَلْ حَوَالِيَهُمْ نَقَاتِلُهُمْ وَتَحْمِلُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ يَكْرَهُونَ
بَيْنَ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ يَتَكَبَّرُونَ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ أَتَوَانِهْرًا يُقَالُ
لَهُ نَهْرُ الْقَصَبِ تَزَلُّوا عَلَيْهِ . وَقَدْ قَامَتِ الظَّهِيرَةُ وَضَرَبُوا خِيَامَهُمْ .
وَتَرَجَعَ النَّاسُ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ إِذَا كَانُوا تَزَلُّوا أَيْسَ النَّاسِ مِنْ أَنْ يَتِمَّ
مَعَهُمْ وَرَجَعُوا عَنْ قِتَالِهِمْ . وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قُتِلَ مِنْ فُرْسَانِ
الْإِسْلَامِ شُجَاعٌ كُنِيَّتُهُ إِيَازُ الطَّوِيلُ بَعْضُ مَمَالِكِ السُّلْطَانِ . وَكَانَ
قَدْ فَتَكَ فِيهِمْ وَقَتْلَ خَلْقًا مِنْ خِيَالَتِهِمْ وَشُجْعَانِهِمْ وَكَانَتْ فِدَى
اِسْتَفَاضَتِ شُجَاعَتُهُ بَيْنَ الْعَسْكَرَيْنِ بِحَيْثُ أَنَّهُ جَرَتْ لَهُ وَقَعَاتٌ
كَثِيرَةٌ وَصَدَقَتْ أَخْبَارُ الْأَوَائِلِ . وَصَارَ بِحَيْثُ إِذَا عَرَفَهُ الْإِفْرَنْجُ
فِي مَوْضِعٍ يُخَافُونَهُ وَتَقَطَّرَ بِهِ فَرَسُهُ وَأَسَاسُهُمْ وَحَزَنَ الْمَسَامُونَ
عَلَيْهِ حُزْنًا عَظِيمًا وَدُفِنَ عَلَى تَلٍّ مُشْرِفٍ عَلَى الْبِرْكَةِ . وَزَلَّ السُّلْطَانُ
بِالثَّقَلِ عَلَى الْبِرْكَةِ وَهِيَ مَوْضِعٌ يَجْتَمِعُ فِيهِ مِيَاهُ كَثِيرَةٌ وَأَقَامَ فِي
ذَلِكَ الْمُنْزِلِ إِلَى بَعْدِ صَلَاةِ الْعَصْرِ وَأَطْعَمَ النَّاسَ خُبْزًا وَاسْتَرَا حُوا
سَاعَةً . ثُمَّ رَحَلَ وَأَتَى نَهْرَ الْقَصَبِ وَزَلَّ عَلَيْهِ أَيْضًا فَشَرِبَ مِنْهُ
قَلِيلًا مِنْ أَعْلَاهُ وَالْعَدُوُّ يَشْرَبُ مِنْ أَسْفَلِهِ . لَيْسَ بَيْنَنَا إِلَّا سَافَةٌ
لَيْسِيرَةٌ وَبَلَغَ الشَّعِيرُ الرَّبْعَ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ وَالْخُبْزُ مَوْجُودٌ كَثِيرٌ
وَسِعْرُهُ رَطْلٌ بِنِصْفِ دِرْهَمٍ . وَأَقَامَ يَنْتَظِرُ رَحِيلَ الْإِفْرَنْجِ حَتَّى
يَرْحَلَ فِي مُقَابَلَتِهِمْ . وَبَاتُوا تِلْكَ اللَّيْلَةَ هُنَاكَ وَبَنَيْنَا أَيْضًا

ذِكْرُ وَقْعَةِ جَرَتْ

وَذَلِكَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْعَسْكَرِ الْإِسْلَامِيِّ كَانُوا مُشْرِفِينَ عَلَى
 الْعَدُوِّ فَصَادَفُوا جَمَاعَةً مِنْهُمْ يَتَشَوَّفُونَ أَيْضًا عَلَى الْعَسْكَرِ الْإِسْلَامِيِّ
 فَظَفَرُوا بِهِمْ وَهَجَمُوا عَلَيْهِمْ وَجَرَى بَيْنَهُمْ قِتَالٌ عَظِيمٌ فَقُتِلَ مِنَ الْعَدُوِّ
 جَمَاعَةٌ وَأَحْسَ بِهِمْ عَسْكَرُ الْعَدُوِّ. فَتَارَ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ وَاتَّصَلَ
 الْحَرْبُ وَقُتِلَ أَيْضًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَفَوَانِ وَأَسِيرَ مِنَ الْعَدُوِّ ثَلَاثَةٌ
 وَمُتَلُّوا بِخِدْمَةِ السُّلْطَانِ فَسَأَلَهُمْ عَنِ الْأَحْوَالِ. فَأَخْبَرُوا أَنَّ الْمَلِكَ
 أَنْكَتَارَ كَانَ قَدْ حَضَرَ عِنْدَهُ بَعْدًا اثْنَانِ بَدَوِيَّانِ وَأَنْهَمَا أَخْبَرَا بِقَاةِ
 الْعَسْكَرِ الْإِسْلَامِيِّ وَذَلِكَ الَّذِي أَطْمَعَهُ حَتَّى خَرَجَ. وَأَنَّهُ لَمَّا كَانَ
 بِالْأَمْسِ يَعْنِي الْإِثْنَيْنِ رَأَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ قِتَالًا عَظِيمًا وَأَسْتَكْثَرَ
 الْأَطْلَابَ وَأَنَّهُ جُرِحَ زُهَاءُ أَلْفِ نَفَرٍ وَقُتِلَ جَمَاعَةٌ وَأَنَّ ذَاكَ الَّذِي
 أَوْجَبَ إِقَامَتَهُ الْيَوْمَ حَتَّى يَسْتَرِيحَ عَسْكَرُهُ. وَأَنَّهُ لَمَّا رَأَى مَا أَصَابَهُ
 مِنَ الْقِتَالِ الْعَظِيمِ وَكَثْرَةِ الْمُسْلِمِينَ أَحْضَرَ الْبَدَوِيَّيْنِ عِنْدَهُ وَأَوْفَقَهُمَا
 وَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمَا. وَأَقْنَأَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فِي تِلْكَ الْمُنْزِلَةِ لِإِقَامَةِ
 الْعَدُوِّ وَهُوَ الثَّلَاثَاءُ الْعَاشِرُ مِنْ شَعْبَانَ

الْمُنْزِلُ الثَّامِنُ: وَلَمَّا كَانَ ظَهِيرَةُ الْيَوْمِ الْمَذْكُورِ رَأَى السُّلْطَانُ
 عَلَى الرَّحِيلِ وَالْتَقَدَّمَ إِلَى قُدَامِ الْعَدُوِّ فَدَقَّ الْكُوسُ وَرَحَلَ النَّاسُ
 وَدَخَلَ فِي شَعْرَاءِ أَرْضُوفَ حَتَّى تَوَسَّطَهَا إِلَى تَلٍّ عِنْدَ قَرْيَةٍ تُسَمَّى
 دَيْرَ الرَّاهِبِ فَنَزَلَ هُنَاكَ وَدِهِمَ النَّاسَ اللَّيْلُ وَهُمْ يَقْطَعُونَ فِي الشَّعْرَاءِ

وَأَصْبَحَ مُقِيمًا يَنْتَظِرُ بَقِيَّةَ الْعَسَاكِرِ إِلَى صَبَاحِ الْأَرْبَعَاءِ الْخَادِي
عَشَرَ. وَتَلَا حَقَّتِ الْعَسَاكِرُ وَرَكِبَ يَدْتَاذُ مَوْضِعًا يَصْلُحُ لِلْقِتَالِ وَلِقَاءِ
الْعَدُوِّ. وَأَقَامَ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَجْمَعَ هُنَاكَ. وَمِنْ أَخْبَارِ الْعَدُوِّ فِي تِلْكَ
الْمُنْزِلَةِ أَنَّهُ أَقَامَ عَلَى نَهْرِ الْقَصَبِ ذَلِكَ الْيَوْمَ أَيْضًا. وَأَنَّهُ لَحِقَهُ مُجْدَةٌ
مِنْ عَمَّا فِي ثَمَانٍ بَطَسَ كِبَارُ وَبِذُكُ الْإِسْلَامِ حَوْلَهُ يُوَاصِلُونَ
بِالْأَخْبَارِ الْمُسْتَجِدَّةِ بِهِمْ

ذِكْرُ مَرَاثِلَةٍ جَرَتْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ
وَذَلِكَ أَنَّ الْعَدُوَّ طَلَبَ مِنَ الْبُيُوتِ مَنْ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ. وَكَانَ
مُقَدِّمُ الْبُيُوتِ عِلْمُ الدِّينِ سُلَيْمَانَ فَإِنَّمَا كَانَتْ تَوْبَتُهُ. فَلَمَّا مَضَى إِلَيْهِمْ
مَنْ سَمِعَ كَلَامَهُمْ كَانَ كَلَامُهُمْ طَلَبَ الْمَلِكِ الْعَادِلِ حَتَّى يَتَحَدَّثُوا
مَعَهُ. فَاسْتَأْذَنَ وَمَضَى وَبَاتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْبُيُوتِ وَيَتَحَدَّثُونَ مَعَهُ.
وَكَانَ حَاصِلُ حَدِيثِهِمْ أَنَا قَدْ طَالَ بَيْنَنَا الْقِتَالُ وَأَنَّهُ قَدْ قُتِلَ مِنْ
الْجَانِبَيْنِ الرِّجَالُ الْأَبْطَالُ وَأَنَا نَحْنُ جُنَا فِي نَصْرَةِ الْإِسْلَامِ السَّاحِلِ.
فَأَصْطَلَحُوا أَنْتُمْ وَهُمْ وَكُلُّ مَنَا يَرْجِعُ إِلَى مَكَانِهِ. وَكَتَبَ السُّلْطَانُ
إِلَى أَخِيهِ فِي صَبِيحَةِ يَوْمِ الْخَمِيسِ الثَّانِي وَالْعَشْرَةِ رُفْعَةً يَقُولُ لَهُ فِيهَا:
إِنْ قَدَّرْتَ أَنْ تَطَاوَلَ الْإِسْلَامُ فَلَعَلَّهُمْ يُقِيمُونَ الْيَوْمَ حَتَّى يُلْحَقَنَا
الْتُّرُكُ، إِنْ فَانَهُمْ قَدْ قَرُبُوا مِنَّا

ذِكْرُ اجْتِمَاعِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ وَالْأَنْكَتَارِ
وَلَمَّا عَرَفَ الْأَنْكَتَارُ وَصُولَ الْمَلِكِ الْعَادِلِ إِلَى الْبُيُوتِ طَلَبَ

الاجتماع به فأجابه إلى ذلك. فأجتمعا بخوة من أصحابهما وكان
يترجم بينهما ابن الهنري وهو من إفرنج الساحل من كبارهم
ورأته يوم الصلح وهو شاب حسن إلا أنه مخلوق الخيبة على ما
هو شعارهم. وكان الحديث بينهما أن الأتكتار شرع في ذكر
الصلح وأن الملك العادل قال له: أنتم تطلبون الصلح ولا تذكرون
مطلوبكم فيه حتى أتوسط أنا الحالم مع السلطان. فقال الأتكتار:
القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا ونصرفوا إلى بلادكم فأحسن
له الجواب وجرت منازرة اقتضت أنهم رحلوا بعد انفصالهم.
ولما أحس السلطان برحيلهم أمر الثقل بالرحيل ووقف هو وعبي
الناس تعبئة القتال. وسار الثقل الصغير أيضا حتى قارب الثقل
الكبير. ثم ودد أمراء السلطان يعودهم إليه. فعادوا ووصلوا وقد
دخل الليل وتخطت الناس تلك الليلة مخبطا عظيما وأستدعى أخاه
ليعرفه ما جرى بينه وبين الملك. وخلا به لذلك وذلك في ليلة
الجمعة ثالث عشر. وأما العدو فإنه سار ونزل على موضع يسمى
البركة أيضا يشرف على البحر وأصبح السلطان في يوم الجمعة
متطعلا إلى أخبار العدو. فأحضر عنده اثنان من الإفرنج قد
مخطفهما أليزك. فأمر به ضرب أعناقهما ووصل من أخبر أن العدو
لم يرحل اليوم من منزله تلك. فنزل السلطان واجتمع بأخيه يتحدثان
بهذا الأمر وما يصنع مع العدو. وبات تلك الليلة في تلك المنزلة

ذِكْرُ وَقْعَةِ أَرْسُوفَ وَهِيَ أَنْكَتَ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ
وَلَمَّا كَانَ يَوْمَ السَّبْتِ رَابِعِ عَشَرَ بَلَغَ السُّلْطَانُ أَنَّ الْعَدُوَّ حَرَكَ
الرَّحِيلَ نَحْوَ أَرْسُوفَ . فَزَكِبَ وَرَتَّبَ الْأَطْلَابَ لِلْقِتَالِ وَعَزَمَ عَلَى
مُضَايَقَتِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ . وَمُصَادَمَتِهِمْ . وَأَخْرَجَ الْجَالِيشَ مِنْ كُلِّ
طَلَبٍ . وَسَارَ الْعَدُوُّ حَتَّى قَارَبَ شِعْرَاءَ أَرْسُوفَ وَبَسَاتِينَهَا وَأَطَاقَ
عَلَيْهِمُ الْجَالِيشُ النَّشَابَ وَلَزَبَتْهُمْ الْأَطْلَابُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَالسُّلْطَانُ
يُهِرَبُ بَعْضُهَا وَيُوقِفُ بَعْضُهَا وَيَضَاقُ الْعَدُوُّ مُضَاقَةً عَظِيمَةً وَأُلْتَحِمَ
الْقِتَالُ وَأَضْطَرَمَّتْ نَارُهُ مِنَ الْجَالِيشِ وَقُتِلَ مِنْهُمْ وَجْهٌ . فَاشْتَدُّوا
فِي السَّيْرِ عَسَاهُمْ يَبْلُغُونَ الْمَنْزِلَةَ فَيَنْزِلُونَ وَاشْتَدَّ بِهِمُ الْأَمْرُ وَضَاقَ
بِهِمُ الْخِنَاقُ وَالسُّلْطَانُ يَطُوفُ مِنَ الْأَيْمَنَةِ إِلَى الْمَيْسَرَةِ يُحِثُّ النَّاسَ
عَلَى الْجِهَادِ وَلَقِيْتُهُ مِرَارًا لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا صَبِيَّانِ بِحَبْنَيْنِ لَا غَيْرُ وَلَقِيْتُ
أَخَاهُ وَهُوَ عَلَى مِثْلِ الْحَالِ وَالنَّشَابُ يُجَاوِزُهَا وَلَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ يَشْتَدُّ
بِالطَّمَعِ لِلْعَدُوِّ وَطَمِعَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِمْ طَمَعًا عَظِيمًا حَتَّى وَصَلَ أَوَائِلُ رَاحِلِهِمْ
إِلَى بَسَاتِينِ أَرْسُوفَ . ثُمَّ اجْتَمَعَتِ الْحَيَالَةُ وَتَوَاصَوْا عَلَى الْحُمْلَةِ خَشْيَةَ عَلَى
الْقَوْمِ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ لَا يُنْجِيهِمْ إِلَّا الْحُمْلَةُ . وَلَقَدْ رَأَيْتُهُمْ وَقَدْ اجْتَمَعُوا فِي
وَسْطِ الرَّجَالَةِ وَأَخَذُوا رِمَاحَهُمْ وَصَاحُوا صَيْحَةَ الرَّجُلِ الْوَاحِدِ وَفَرَجَ
لَهُمْ رَجَالَتُهُمْ وَحَمَلُوا حُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ الْجَوَانِبِ كُلِّهَا فَحَمَلَتْ طَائِفَةٌ
عَلَى الْأَيْمَنَةِ وَطَائِفَةٌ عَلَى الْمَيْسَرَةِ وَطَائِفَةٌ عَلَى الْقَلْبِ . فَأَنْدَفَعَ النَّاسُ
بَيْنَ أَيْدِيهِمْ . وَاتَّفَقَ أَتَى كُنْتُ فِي الْقَلْبِ فَقَرَّ الْقَلْبُ فِرَارًا عَظِيمًا

فَنَوَيْتُ التَّحِيْزَ إِلَى الْمَيْسِرَةِ وَكَانَتْ أَقْرَبَ إِلَيَّ وَوَصَلَتْهَا وَقَدْ انْكَسَرَتْ
كُسْرَةً عَظِيمَةً وَفَرْتُ أَشَدَّ فِرَارًا مِنْ الْكُلِّ . فَنَوَيْتُ التَّحِيْزَ إِلَى
طَلَبِ السُّلْطَانِ وَكَانَ رِذْءُ الْأَطْلَابِ كُلِّهَا كَمَا حَبَتِ الْعَادَةُ وَلَمْ يَبْقَ
لِلسُّلْطَانِ فِيهِ إِلَّا سَبْعَةٌ عَشَرَ مَقَاتِلًا لَا غَيْرُ وَأَخَذَ الْبَاقِينَ إِلَى الْقِتَالِ .
لَكِنَّ الْأَعْلَامَ كُلَّهَا بَاقِيَةٌ ثَابِتَةٌ وَالْكُوسُ يَدُقُّ لَا يَفْتُرُ . وَأَمَّا السُّلْطَانُ
فَإِنَّهُ لَمَّا رَأَى مَا نَزَلَ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذِهِ النَّازِلَةِ . سَارَ حَتَّى أَتَى
طَلَبَهُ فَوَجَدَ فِيهِ هَذَا النِّفَرَ الْقَلِيلَ . فَوَقَّفَ فِيهِ وَالنَّاسُ يَفْرُونَ مِنْ
الْجَوَابِ وَهُوَ يَأْمُرُ أَصْحَابَ الْكُوسِ بِالْدَّقِّ بِحَيْثُ لَا يَفْتُرُونَ وَكُلَّمَا
رَأَى فَارًّا يَأْمُرُ مَنْ يُخْضِرُهُ عِنْدَهُ وَفِي الْجُبَلَةِ مَا أَقْصَرَ النَّاسُ فِي
فِرَارِهِمْ . فَإِنَّ الْعَدُوَّ حَمَلَ حَمَلَةً قَفَرُوا . ثُمَّ وَقَفَ خَوْفًا مِنَ الْكَمِينِ
فَوَقَفُوا وَقَاتَلُوا . ثُمَّ حَمَلَ حَمَلَةً ثَانِيَةً . قَفَرُوا وَهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي فِرَارِهِمْ
ثُمَّ وَقَفَ فَوْقَهُمْ . ثُمَّ حَمَلَ حَمَلَةً ثَالِثَةً حَتَّى بَلَغَ إِلَى رُؤْسِ رَوَائِي هُنَاكَ
وَأَعَالِي ثُلُولٍ . قَفَرُوا إِلَى أَنْ وَقَفَ الْعَدُوُّ وَوَقَفُوا . وَكَانَ كُلُّ مَنْ
رَأَى طَلَبَ السُّلْطَانِ وَاقِفًا وَالْكُوسُ يَدُقُّ لَيْسْتَحْيَ أَنْ يُجَاوِزَهُ
وَيَخَافُ غَائِلَةً ذَلِكَ فَعَبُدُ إِلَى الطَّلَبِ . فَاجْتَمَعَ فِي الْقَلْبِ خَلْقٌ
عَظِيمٌ وَوَقَفَ الْعَدُوُّ قِبَالَتَهُمْ عَلَى رُؤْسِ الثُّلُولِ وَالرَّوَائِي وَالسُّلْطَانُ
وَاقِفٌ فِي طَلَبِهِ وَالنَّاسُ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ حَتَّى أَتَتْ الْعَسَاكِرُ بِأَسْرِهَا
وَخَافَ الْعَدُوُّ أَنْ يَكُونَ فِي الشَّعْرَاءِ الْكَمِينُ . فَتَرَجَعُوا يَطْلُبُونَ
الْمَنْزِلَةَ وَعَادَ السُّلْطَانُ إِلَى تَلٍّ فِي أَوَائِلِ الشَّعْرَاءِ وَنَزَلَ عَلَيْهِ فِي

خَيْمَتِهِ . وَلَقَدْ كُنْتُ فِي خِدْمَتِهِ أَسْلِيَهُ وَهُوَ لَا يَقْبَلُ السُّلُوَ وَظَلَّلَ عَلَيْهِ بِمَنْدِيلٍ وَسَأَلْنَاهُ أَنْ يَطْعَمَ شَيْئًا فَأَحْضَرَ لَهُ شَيْئًا لَطِيفٌ فَتَأَوَّلَ مِنْهُ شَيْئًا يَسِيرًا وَبَعَثَ النَّاسُ خِيْلَهُمْ لِلشَّيْءِ فَإِنْ الْمَكَانَ كَانَ بَعِيدًا وَجَلَسَ يَنْتَظِرُ النَّاسَ مِنَ الْعَوْدِ مِنَ الشَّيْءِ وَالْجَرْحِ يُحْضِرُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ يَتَقَدَّمُ بُدَاوَاتِهِمْ وَحَمْلِهِمْ وَقَتْلَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ رَجُلًا كَثِيرَةً وَجَرَحَ مِنَ الطَّاغُتَيْنِ . وَكَانَ مِمَّنْ ثَبَتَ الْمَلِكُ الْعَادِلُ وَالطَّوْاشِي فَأَيَّازُ النُّجَيْيُ وَالْمَلِكُ الْأَنْضَلُ وَلَدُهُ وَصَدِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَنْفَتَحَ دُمْلُ كَانَ فِي وَجْهِهِ وَسَالَ مِنْهُ دَمٌ كَثِيرٌ عَلَى وَجْهِهِ وَهُوَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ . وَثَبَتَ أَيْضًا طَابُ الْمَوْصِلِيِّ وَمَقْدَمُهُ عَلَاءُ الدِّينِ وَشَكَرَهُ السُّلْطَانُ عَلَى ذَلِكَ وَتَقَعَّدَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَوَجَدُوا قَدْ اسْتَشْهَدَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعَسْكَرِ عُرِفَ مِنْهُمْ أَمِيرُ كَبِيرُ مُوسَكُ . وَكَانَ شُجَاعًا مَعْرُوفًا وَقَائِمًا بِالْعَادِلِيِّ وَكَانَ مَذْكُورًا وَلَيْغُوشُ وَكَانَ شُجَاعًا . وَجَرَحَ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَخِيُولٌ كَثِيرَةٌ . وَقَتْلَ مِنَ الْعَدُوِّ جَمَاعَةٌ وَأَمِيرٌ وَاحِدٌ فَأَحْضَرَ فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ وَأَخَذَتْ مِنْهُمْ خِيُولٌ أَرْبَعَةٌ . وَكَانَ قَدْ تَقَدَّمَ رَحِمَهُ اللَّهُ إِلَى التَّمَلُّ أَنْ يَسِيرَ إِلَى الْعَوْجَاءِ فَاسْتَأْذَنَتْهُ وَتَقَدَّمَتْهُ إِلَى الْمَنْزِلِ وَجَلَسَ هُوَ يَنْتَظِرُ أَجْتِمَاعَ الْعَسَاكِرِ وَمَا يَرِدُ مِنْ أَخْبَارِ الْعَدُوِّ . وَكَانَ الْعَدُوُّ قَدْ نَزَلَ عَلَى أَرْسُوفٍ

الْمَنْزِلُ الثَّامِسُ : وَسِرْتُ بِنْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ حَتَّى آتَيْتُ التَّمَلُّ وَقَدْ

نَزَلَ قَاطِعَ النَّهْرِ الْمَعْرُوفِ بِالْعُوجَاءِ فِي مَنْزِلَةٍ خَضِرَاءَ طَيِّبَةٍ عَلَى
 جَانِبِ النَّهْرِ وَوَصَلَ السُّلْطَانُ إِلَى الْمَنْزِلَةِ أَوَاخِرَ النَّهَارِ . وَازْدَحَمَ
 النَّاسُ عَلَى الْقَنْطَرَةِ . فَنَزَلَ عَلَى تَلٍّ مُشْرِفٍ عَلَى النَّهْرِ وَلَمْ يَبْذُ إِلَى
 الْحَيْمَةِ وَأَمَرَ الْجَلَاوِشَ أَنْ يُنَادِيَ فِي الْعَسْكَرِ بِالْعُبُورِ إِلَيْهِ . وَكَانَ
 فِي قَلْبِهِ مِنَ الْوَقْعَةِ أَمْرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ وَالنَّاسُ بَيْنَ جَرِيحِ الْجَسَدِ
 وَجَرِيحِ الْقَلْبِ . وَأَقَامَ السُّلْطَانُ إِلَى سُحْرَةِ الْخَامِسِ عَشَرَ وَدُقَّ
 الْكُوسُ وَرَكِبَ النَّاسُ وَسَارَ رَاجِعًا إِلَى جِهَةِ الْعَدُوِّ حَتَّى وَصَلَ إِلَى
 قَرِيبِ أَرْسُوفَ وَصَفَّ الْأَطْلَابَ لِلْقِتَالِ رَجَاءَ خُرُوجِ الْعَدُوِّ وَمَسِيرِهِ
 حَتَّى يُصَادِفَهُ . فَلَمْ يَرَحُلِ الْعَدُوُّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِمَا نَالَهُمْ مِنَ اتِّعَبِ
 وَأَقَامَ قُبَالَتِهِمْ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ وَعَادَ إِلَى مَنْزِلَتِهِ الَّتِي بَاتَ بِهَا . وَلَمَّا
 كَانَ صَبِيحَةَ السَّادِسِ عَشَرَ دَقَّ الْكُوسُ وَرَكِبَ النَّاسُ وَسَارَ
 نَحْوَهُمْ وَوَصَلَ خَبَرَ الْعَدُوِّ أَنَّهُ قَدْ رَحَلَ طَالِبًا جِهَةَ يَافَا فَقَادَرَهُمْ
 مُقَارَبَةً عَظِيمَةً وَرَتَّبَ الْأَطْلَابَ تَرْتِيبَ الْقِتَالِ وَأَخْرَجَ الْجَلَالِشَ
 وَأَحْدَقَ الْعَسْكَرُ الْإِسْلَامِيُّ بِالْأَقْدَمِ وَأَلْقَوْا عَلَيْهِمْ مِنَ النَّشَابِ مَا
 كَادَ يَسُدُّ الْأَفَقَ وَقَاتَلَهُمْ قُلُوبُهُمْ قِتَالِ الْحَقِّ وَقَصَدَ رَحْمَهُ اللَّهُ
 تَحْرِيكَ عَزَائِهِمْ عَلَى الْحَمَلَةِ حَتَّى إِذَا حَمَلُوا أَتَى النَّاسَ عَلَيْهِمْ
 وَيُعْطِي اللَّهُ النَّصْرَ لِمَنْ يَشَاءُ . فَلَمْ يَحْمِلُوا وَحَفَظُوا أَنْفُسَهُمْ وَسَارُوا
 مُصْطَفِينَ عَلَى عَادَتِهِمْ حَتَّى أَتَوْا نَهْرَ الْعُوجَاءِ وَهُوَ النَّهْرُ الَّذِي مَنْزِلَتُنَا
 أَعْلَاهُ . فَنَزَلَ فِي أَسْفَلِهِ وَعَبَّرَ بَعْضُهُمْ إِلَى غَرَبِيِّ النَّهْرِ وَأَقَامَ الْبَاقُونَ

مِنَ الْجَانِبِ الشَّرْقِيِّ . فَلَمَّا عَلِمَ النَّاسُ بِزُورِهِمْ تَرَجَعَ النَّاسُ عَنْهُمْ
وَعَادَ السُّلْطَانُ إِلَى الثَّقَلِ وَزُلَّ فِي خَيْمَتِهِ وَأُطْعِمَ الطَّعَامَ وَأُتِيَ
بِأَرْبَعَةٍ مِنَ الْإِفْرَنْجِ قَدْ أَخَذَتْهُمْ الْعَرَبُ وَمَعَهُمْ أَمْرَأَةٌ فَرَفَعُوا إِلَى
الزُّرْدَخَانَةِ وَأَقَامَ بَقِيَّةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ يَكْتُبُ الْكُتُبَ إِلَى الْأَطْرَافِ
بِاسْتِخْصَارِ بَقِيَّةِ الْعَسَاكِرِ وَحَضَرَ مِنْ أَخْبَرِهِ أَنَّهُ قُتِلَ مِنَ الْعَدُوِّ
يَوْمَ أَرْسُوفَ خَيْلٌ كَثِيرَةٌ وَأَنَّهُ تَبَعَهَا الْعَرَبُ وَعَدُّوْهَا وَزَادَتْ عَلَى
مِئَةٍ وَأَمَرَ السُّلْطَانُ أَنْ تَرْحَلَ الْحِمَالُ وَتَتَقَدَّمَ إِلَى الرَّمْلَةِ وَبَاتَ هُوَ
يَتْلِكَ الْمُنْزِلَةَ

الْمُنْزِلُ الْعَاشِرُ : وَلَمَّا كَانَ سَابِعَ عَشَرَ صَلَّى الصُّبْحَ وَرَحَلَ وَرَحَلَ
مَعَهُ الثَّقَلُ الصَّغِيرُ وَسَارَ يُرِيدُ الرَّمْلَةَ وَأُتِيَ بِاثْنَيْنِ مِنَ الْإِفْرَنْجِ
فَأَمَرَ بِضَرْبِ أَغْنَاكِهِمَا . وَوَصَلَ مِنَ الْبُزْجِ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ الْعَدُوَّ
رَحَلَ مِنْ يَافَا . وَسَارَ السُّلْطَانُ إِلَى أَنْ أَتَى الرَّمْلَةَ وَأُتِيَ بِاثْنَيْنِ
مِنَ الْإِفْرَنْجِ أَيْضًا . فَسَأَلَهُمَا عَنْ أَحْوَالِهِمَا . فَذَكَرَا أَنَّهُمَا رُبَّمَا أَقَامُوا
بِیَافَا أَيَّامًا وَفِي أَنْفُسِهِمْ عِمَارَتُهَا وَإِسْكَانُهَا بِالرِّجَالِ وَالْعُدَدِ . وَأَخْضَرَ
السُّلْطَانُ أَرْبَابَ مَشُورَتِهِ وَشَاوَرَهُمْ فِي أَمْرِ عَسْقَلَانَ وَهَلْ إِنَّهَا
تُخَرَّبُ أَوْ تَبْقَى . وَاتَّفَقَ الرَّأْيُ عَلَى أَنْ يَتَخَفَفَ الْمَلِكُ الْعَادِلُ وَمَعَهُ
طَائِفَةٌ مِنَ الْعَسْكَرِ مُقَارِبَ الْعَدُوِّ لِيَعْرِفَ أَحْوَالَهُمْ وَاتِّصَالَهَا وَأَنْ
يَسِيرَ هُوَ وَيُخَرَّبَ عَسْقَلَانَ خَشْيَةَ أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلَيْهَا الْإِفْرَنْجُ وَهِيَ
عَايِرَةٌ فَيَقْتُلُوا مِنْ يَدِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَيَأْخُذُوا بِهَا الْقُدْسَ الشَّرِيفَ

وَيَقْطَعُونَ بِهَا طَرِيقَ مِصْرَ . وَخَشِيَ السُّلْطَانُ مِنْ ذَلِكَ وَعَلِمَ عَجْزَ
 الْمُسْلِمِينَ عَنْ حِفْظِهَا لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ مِنْ عِكَّا وَمَا جَرَى عَلَى مَنْ
 كَانَ مُقِيمًا بِهَا . فَتَعَيَّنَ لِذَلِكَ خَرَابُ عَسْقَلَانَ . فَسَارَ الثَّقَلُ مِنْ أَوَّلِ
 اللَّيْلِ . وَتَقَدَّمَ إِلَى وَلَدِهِ الْمَلِكِ الْأَفْضَلِ أَنْ سَارَ عَقِيبَ الثَّقَلِ
 نِصْفَ اللَّيْلِ وَسَارَ هُوَ وَأَنَا فِي خِدْمَتِهِ سُحْرَةَ الْأَرْبَعَاءِ

الْمَنْزِلُ الْحَادِي عَشَرَ وَهُوَ عَلَى عَسْقَلَانَ : وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ
 ثَامِنَ عَشَرَ الشَّهْرِ وَصَلَ السُّلْطَانُ إِلَى بَيْتِنَا فَتَزَلَّ بِهَا وَضَخَى وَأَخَذَ
 النَّاسُ رَاحَةً . ثُمَّ رَحَلَ وَسَارَ حَتَّى أَتَى أَرْضَ عَسْقَلَانَ وَقَدْ ضُرِبَتْ
 خَيْمَتُهُ بَعِيدًا مِنْهَا . فَبَاتَ هُنَاكَ مَهْمُومًا بِسَبَبِ الْخَرَابِ وَمَا نَامَ إِلَّا
 قَلِيلًا . وَلَقَدْ دَعَانِي فِي خِدْمَتِهِ سُحْرًا وَكُنْتُ فَارَقْتُ خِدْمَتَهُ بَعْدَ مَضِيِّ
 نِصْفِ اللَّيْلِ . فَحَضَرْتُ وَبَدَأَ بِالْحَدِيثِ فِي مَعْنَى خَرَابِهَا وَأَحْضَرَ
 وَلَدَهُ الْمَلِكَ الْأَفْضَلَ وَشَاوَرَهُ فِي ذَلِكَ وَطَالَ الْحَدِيثُ فِي الْمُنْعَى
 وَلَقَدْ قَالَ لِي : وَاللَّهِ لَأَنْ أَفْقِدَ أَوْلَادِي بِأَسْرِهِمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ
 أَهْدِمَ مِنْهَا حَجْرًا وَاحِدًا وَلَكِنْ إِذَا قَضَى اللَّهُ ذَلِكَ وَفِيهِ دَعْوَتُهُ لِحِفْظِ
 مَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ . ثُمَّ اسْتَخَارَ اللَّهُ تَعَالَى فَأَوْقَعَ اللَّهُ فِي نَفْسِهِ أَنَّ الْمَصْلَحَةَ
 فِي خَرَابِهَا لِعَجْزِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ حِفْظِهَا . فَاسْتَحْضَرَ الْوَالِيَّ قَيْصَرَ بِهَا
 وَهُوَ مِنْ كِبَارِ تَمَالِيكِهِ وَذَوِي الْأَرْاءِ مِنْهُمْ فَأَمَرَهُ بِجَمْعِ الْقَعْلَةِ فِيهَا .
 وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَقَدْ اجْتَاَزَ بِالسُّوقِ وَالْوَطَاقِ بِنَفْسِهِ مُسْتَنْفِزَ النَّاسِ
 لِلْخَرَابِ . وَقَسَمَ السُّورَ عَلَى النَّاسِ وَجَعَلَ لِكُلِّ أَمِيرٍ وَطَائِفَةٍ مِنْ

الْمَسْكِرِ بَرْجًا مَعْلُومًا يُخْرِبُونَهُ . وَدَخَلَ النَّاسُ الْبَلَدَ وَوَقَعَ فِيهِ
 الصَّحِيجُ وَالْبُكْلَاءُ وَكَانَ بَلَدًا خَفِيفًا عَلَى الْقَلْبِ مُحْكَمَ الْأَسْوَارِ عَظِيمَ
 الْبِنَاءِ مَرْغُوبًا فِي سَكْنَتِهِ فَحَقَّقَ النَّاسَ عَلَيْهِ حُزْنٌ عَظِيمٌ وَعَظُمَ عَوِيلُ
 أَهْلِهِ عَلَى مُفَارَقَةِ أَوْطَانِهِمْ وَشَرَعُوا فِي بَيْعِ مَا لَا يُمَكِّنُ حَمْلَهُ وَبِيعَ
 مَا يَسُوَّى عَشْرَةَ دَرَاهِمٍ بِدِرْهَمٍ وَاحِدٍ وَاسْتَبَطَّ الْبَلَدُ وَخَرَجَ أَهْلُهُ
 إِلَى الْمَسْكِرِ بِذَرَارِيهِمْ وَنِسَائِهِمْ خَشْيَةً أَنْ يَهْجُمَ الْإِفْرَنْجُ وَبَذَلُوا
 فِي الْكِرَاءِ أَضْعَافَ مَا يَسُوَّى . قَوْمٌ إِلَى وَصَرٍ وَقَوْمٌ إِلَى الشَّامِ
 وَقَوْمٌ يَمْشُونَ . وَجَرَتْ أُمُورٌ عَظِيمَةٌ وَفَتَنَةٌ هَائِلَةٌ لَعَلَّهَا لَمْ تَخْتَصْ
 بِالَّذِينَ ظَلَمُوا . وَكَانَ هُوَ بِنَفْسِهِ وَوَلَدُهُ الْمَلِكُ الْأَفْضَلُ يَسْتَعْمَلَانِ
 النَّاسَ فِي الْحُرَابِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ خَشْيَةً أَنْ يَسْمَعَ الْعَدُوُّ فَيَحْضُرَ وَلَا
 يُمْكِنَ مِنْ خَرَابِهَا . وَبَاتَ النَّاسُ فِي الْحَيْمِ عَلَى أَتَمِّ حَالٍ مِنَ التَّعَبِ
 وَالنَّصَبِ . وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَصَلَ مِنْ جَانِبِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ
 الْإِفْرَنْجَ تَحَدَّثُوا مَعَهُ فِي الصَّلَاحِ وَأَنَّهُ خَرَجَ إِلَيْهِ ابْنُ الْهَنْفَرِيِّ وَتَحَدَّثَ
 مَعَهُ وَأَنَّهُ طَلَبَ جَمْعَ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ . فَرَأَى السُّلْطَانُ أَنَّ ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ
 لِمَا رَأَى فِي أَنْفُسِ النَّاسِ مِنَ الصَّبْرِ وَالسَّامَةِ مِنَ الْقِتَالِ وَالْمَصَابِرَةِ
 وَكَثْرَةِ مَا عَلَيْهِمُ مِنَ الدِّيُونِ . وَكَتَبَ إِلَيْهِ يَسْمَعُ فِي الْحَدِيثِ فِي
 ذَلِكَ . وَفُوضَ أَمْرُ ذَلِكَ إِلَى رَأْيِهِ وَأَصْبَحَ الْعِشْرِينَ عَلَى الْإِضْرَارِ
 عَلَى الْحُرَابِ وَاسْتَعْمَالَ النَّاسِ فِيهِ وَحَثِّهِمْ عَلَيْهِ وَأَبَاحَهُمُ الْهَرِي
 الَّذِي كَانَ ذَخِيرَةً فِي الْبَلَدِ لِلْهَجْرِ عَنْ نَفْلِهِ وَضَعْفِ الْوَقْتِ وَالْخَوْفِ

مِنْ هُجُومِ الْإِفْرِجِ . وَأَمَرَ بِحَرْقِ الْبَلَدِ فَأُضْرِمَتِ النَّارُ فِي بُيُوتِهِ
 وَأَذُورِهِ وَرَقَصَ أَهْلُهُ بِوَاثِي أَقْمَشَتِهِ لِيُخْرِجُوا عَنْ نَفْلِهَا وَالْأَخْبَارُ
 تَوَاتَرَتْ مِنْ جَانِبِ الْعَدُوِّ بِعِمَارَةِ يَاقَا . وَكَتَبَ الْمَلِكُ الْعَادِلُ يُخْبِرُ
 أَنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَتْلَمَوْا بِخَرَابِ الْبَلَدِ فَأَجَابَهُ أَنْ سَوْفَ الْقَوْمَ وَطَوَّلَ
 الْحَدِيثَ لَعَلَّنَا نَتَمَكَّنُ مِنَ الْخَرَابِ وَأَمَرَ بِحَشْوِ أَبْرَاجِ الْبَلَدِ
 بِالْأَخْطَابِ وَأَنْ تُحْرَقَ وَأَصْحَ الْحَادِيهِ وَالْعِشْرِينَ رَكِبَ يَحْتَ النَّاسَ .
 وَدَامَ يَسْتَعْمِلُهُمْ عَلَى التَّخْرِيبِ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ حَتَّى أَتَاهُ
 مِرَاجُهُ أَلْيَانًا قَرِيبًا أَمْتَعَ بِسَبِيهِ مِنَ الرُّكُوبِ وَالْعِذَاءِ يَوْمِينَ .
 وَأَخْبَارُ الْعَدُوِّ تَتَوَاصَلُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَيَجْرِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
 الْإِزْكِ وَالْعُسْكَرِ وَقَعَاتٌ وَقَلَبَاتٌ وَهُوَ يُوَاطِبُ عَلَى الْحُثِّ عَلَى الْخَرَابِ
 وَنَقَلَ الثَّقَلَ إِلَى قَرِيبِ الْبَلَدِ لِيُعَاوَنَ الْعُلَمَاءُ وَالْحَمَالُونَ وَغَيْرُهُمْ
 فِي ذَلِكَ . فَخَرِبَ مِنَ السُّورِ مُعْظَمُهُ وَكَانَ عَظِيمُ الْبِنَاءِ بِحَيْثُ إِنَّهُ
 كَانَ عَرْضُهُ فِي مَوَاضِعَ تِسْعَةَ أَذْرُعٍ وَفِي مَوَاضِعَ عَشْرَةَ أَذْرُعٍ .
 ذَكَرَ بَعْضُ الْحَجَّارِينَ لِلسُّلْطَانِ . وَأَنَا حَاضِرٌ أَنَّ عَرْضَ السُّورِ الَّذِي
 يَنْبُوتُهُ فِيهِ مِقْدَارُ رُمْحٍ . وَلَمْ يَزَلِ الْخَرَابُ وَالْحَرْقُ يَفْعَلُ فِي الْبَلَدِ
 وَأَسْوَارِهِ إِلَى سَلْخِ شَعْبَانَ . وَعِنْدَ ذَلِكَ وَصَلَ مِنْ جَرْدِيكَ كِتَابُ
 يَذْكُرُ فِيهِ أَنَّ الْقَوْمَ يَنْقَسِحُونَ وَصَارُوا يَخْرُجُونَ مِنْ يَاقَا يَفَارُونَ
 عَلَى الْبِلَادِ الْقَرِيبَةِ مِنْهَا . وَتَحَرَّكَ السُّلْطَانُ لَعَلَّهُ يَبْلُغُ مِنْهُمْ غَرَضًا
 فِي غَرَّتِهِمْ . فَغَزَمَ عَلَى الرَّحِيلِ وَعَلَى أَنْ يُخْلِفَ فِي عَسْكَلَانَ حَجَّارِينَ

وَمَعَهُمْ خَيْلٌ يُحْمِيهِمْ وَيَسْتَفْضُونَهُمْ فِي الْحَرَابِ . فَرَأَى أَنْ يَتَأَخَّرَ
يَحِثُّ أَنْ يُحْرِقَ الْبَرْجَ الْمَعْرُوفُ بِالْأَسْبَتَارِ . وَكَانَ بَرْجًا عَظِيمًا
مُشْرِفًا عَلَى الْبَحْرِ كَالْقَاعَةِ الْمُنِيعةِ . وَلَقَدْ دَخَلَتْهُ وَطْفَتْهُ فَرَأَيْتُ بِنَاءَهُ
أَحْكَمَ بِنَاءٍ بَعَرَضٍ أَنْ يَكُونَ لَا يَفْعَلُ فِيهِ الْمُعَاوِلُ . وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ
يُحْرِقُوهُ حَتَّى يَبْقَى بِالْحَرِيقِ قَابِلًا لِلْخَرَابِ . وَاصْبَحَ مُسْتَهْلَ رَمَضَانَ
أَمَرَ وَلَدَهُ الْمَلِكَ الْأَفْضَلَ أَنْ يُبَاشِرَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ وَخَوَاصِهِ . وَلَقَدْ
رَأَيْتُهُ يُحْمِلُ الْحَشَبَ هُوَ وَخَوَاصُهُ لِحَرِيقِ الْبَرْجِ . وَلَمْ يَزَلِ النَّاسُ
يَنْقُلُونَ الْحَشَبَ وَيُخْشَوْنَهُ فِي الْبَرْجِ حَتَّى أُمْتَلَأَ ثُمَّ أُطْلِقَتْ فِيهِ النَّارُ
فَاشْتَعَلَ الْحَشَبُ وَبَقِيَ النَّارُ تَشْمَلُ فِيهِ يَوْمَيْنِ بِلَيْلِهِمَا . ثُمَّ رَحَلَ
السُّلْطَانُ ثَانِي رَمَضَانَ نِصْفَ اللَّيْلِ خَشْيَةً عَلَى مِزَاجِهِ مِنَ الْحَرِّ
وَوَصَلَ بَيْنَنَا صَاحِبِي النَّهَارِ وَبَاتَ فِي تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ وَاصْبَحَ ثَالِثَ الشَّهْرِ
رَاحِلًا إِلَى جِهَةِ الرَّمْلَةِ



مُحَبَّةُ

مِنْ كِتَابِ التَّارِيخِ لِأَبِي الْفِدَاءِ

الْمَعْرُوفِ بِصَاحِبِ حِمَاةِ

ذِكْرُ وَفَاةِ نُورِ الدِّينِ وَمَا كَانَ لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ

فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ تُوفِّيَ الْمَلِكُ الْعَادِلُ نُورُ الدِّينِ
 بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عِمَادِ الدِّينِ زَنْكِي بْنِ أَقْسَنَقَرٍ صَاحِبُ الشَّامِ رُذِيَارِ
 الْجَزِيرَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ حَادِي عَشَرَ شَوَّالٍ بِعَلَّةِ الْخَوَانِقِ
 بِقَلْعَةِ دِمَشْقِ الْخَرْوَسَةِ . وَكَانَ نُورُ الدِّينِ قَدْ شَرَعَ يَنْجَازُ الدُّخُولَ
 إِلَى مِصْرَ لِأَخْذِهَا مِنْ صَاحِبِ الدِّينِ وَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يَخْلِيَ ابْنَ أَخِيهِ
 سَيْفَ الدِّينِ غَازِيَّ بْنَ مَوْدُودٍ فِي الشَّامِ قُبَالَةَ الْقَرْمِجِ وَيَسِيرَ هُوَ
 بِنَفْسِهِ إِلَى مِصْرَ . فَأَتَاهُ أَمْرُ اللَّهِ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ . وَكَانَ نُورُ الدِّينِ أَسْرَرَ
 طَوِيلَ الْقَامَةِ لَيْسَ لَهُ لَحْيَةٌ إِلَّا فِي حَنْكِهِ حَسَنَ الصُّورَةِ . وَكَانَ قَدْ
 اتَّسَعَ مَلِكُهُ جَدًّا وَخُطِبَ لَهُ بِالْحَرَمَيْنِ وَالْيَمَنِ لَمَّا مَلَكَهَا تَوْرَانُ شَاهُ
 بْنُ أَيُّوبَ وَكَذَلِكَ كَانَ يُخْطَبُ لَهُ بِمِصْرَ . وَكَانَ مَوْلَدُ نُورِ الدِّينِ
 سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَطَبَّقَ ذِكْرُهُ الْأَرْضَ لِحُسْنِ سِيرَتِهِ
 وَعَدْلِهِ وَكَانَ مِنَ الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ عَلَى قَدَمٍ عَظِيمٍ . وَكَانَ يُصَلِّي
 كَثِيرًا مِنَ اللَّيْلِ وَكَانَ كَمَا قِيلَ

جَمَعَ الشُّجَاعَةَ وَالْحُشُوعَ لِرَبِّهِ مَا أَحْسَنَ الْخِرَابَ فِي الْخِرَابِ
 وَكَانَ عَارِفًا بِالْفَقْهِ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُ وَلَيْسَ عِنْدَهُ تَهْصُبُ وَهُوَ الَّذِي بَنَى أَسْوَارَ مَدِينِ الشَّامِ مِنْهَا
دِمَشْقُ وَحِمَصُ وَحِمَاةُ وَحَلَبُ وَشِيرَزُ وَبَغْلَبُكُ وَغَيْرُهَا لَمَّا تَهَدَّمَتْ
بِالْزَّلَازِلِ وَبَنَى الْمَدَارِسَ الْكَثِيرَةَ الْخَفِيَّةَ وَالشَّافِعِيَّةَ وَلَا يَحْتَمِلُ هَذَا
الْمُخْتَصَرُ ذِكْرَ فَضَائِلِهِ

وَلَمَّا تَوَفَّى نُورُ الدِّينِ قَامَ ابْنُهُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ إِنْشِعَالُ بْنُ نُورِ
الدِّينِ مُحَمَّدٍ بِالْمَلِكِ بَعْدَهُ وَعُمُرُهُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً وَحَلَفَ لَهُ
الْعَسْكَرُ بِدِمَشْقَ وَأَقَامَ بِهَا وَأَطَاعَهُ صَالِحُ الدِّينِ بِمَضَرَ وَخُطِبَ لَهُ
بِهَا وَضُرِبَتِ السَّكَّةُ بِاسْمِهِ . وَكَانَ الْمَتَوَلَّى لِتَذْيِيرِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ
وَتَذْيِيرِ دَوْلَتِهِ الْأَمِيرُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدًا الْمَعْرُوفَ بِابْنِ الْمُقَدَّمِ .
وَلَمَّا مَاتَ نُورُ الدِّينِ وَمَلَكَ ابْنُهُ الْمَلِكُ الصَّالِحُ سَارَ مِنَ الْمُوَصِّلِ
سَيْفُ الدِّينِ غَازِي بْنُ قُطَبِ الدِّينِ مَوْدُودِ بْنِ عِمَادِ الدِّينِ زَنْكِي
وَمَلَكَ جَمِيعَ الْبِلَادِ الْجَزِيرَةِ (الجزرية)

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ سَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ . وَفِي أَوَّلِ هَذِهِ السَّنَةِ
اجْتَمَعَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الصَّعِيدِ يُقَالُ لَهُ الْكَنْزُ جَمْعٌ كَثِيرٌ وَأَظْهَرَ
الْخِلَافَ عَلَى صَالِحِ الدِّينِ فَأَرْسَلَ صَالِحُ الدِّينِ إِلَيْهِ عَسْكَرًا فَأَقْتَلُوا
وَقُتِلَ الْكَنْزُ وَجَمَاعَةٌ مَعَهُ وَأَنْهَزَمَ الْبَاقُونَ

ذِكْرُ مُلْكِ صَالِحِ الدِّينِ دِمَشْقَ وَغَيْرِهَا
فِي هَذِهِ السَّنَةِ سَلَخَ رَبِيعِ الْأَوَّلِ مَلِكُ صَالِحِ الدِّينِ يُوسُفُ
بْنُ أَيُّوبَ دِمَشْقَ وَحِمَصَ وَحِمَاةَ . وَسَبَبُهُ أَنَّ شَمْسَ الدِّينِ ابْنَ الدَّائِيَّةِ

الْمُقِيمِ بِحَلَبَ أَرْسَلَ سَعْدَ الدِّينِ كَشْتَكِينَ يَسْتَدْعِي الْمَلِكَ الصَّالِحَ
 ابْنَ نُورِ الدِّينِ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى حَلَبَ لِيَكُونَ مُقَامَهُ بِهَا . فَسَارَ الْمَلِكُ
 الصَّالِحُ إِلَى حَلَبَ مَعَ سَعْدِ الدِّينِ كَشْتَكِينَ . وَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِحَلَبَ
 وَتَمَكَّنَ كَشْتَكِينَ قَبَضَ عَلَى تَمَسَّرِ الدِّينِ ابْنِ الدَّايَةِ وَإِخْوَتِهِ وَقَبَضَ
 عَلَى الرَّيْسِ ابْنِ الْحُشَّابِ وَإِخْوَتِهِ وَهُوَ رَيْسُ حَلَبَ وَاسْتَبَدَّ
 سَعْدُ الدِّينِ بِتَذْيِيرِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ بِخَفَافِهِ ابْنُ الْقُدَّامِ وَغَيْرُهُ مِنْ
 الْأَمْراءِ الَّذِينَ بِدِمَشْقَ فَكَاتَبُوا صَاحِبَ الدِّينِ وَاسْتَدْعَوْهُ لِيَمْلِكُوهُ
 عَلَيْهِمْ . فَسَارَ جَرِيدَةً فِي سَبْعِ مِائَةِ فَارِسٍ وَلَمْ يَلْبَثْ وَوَصَلَ إِلَى
 دِمَشْقَ فَخَرَجَ كُلُّ مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ الْمَسْكِرِ وَالْتَقَوْهُ وَخَدَمُوهُ وَزَلَّ
 بِدَارِ وَالِدِهِ أَيُّوبَ الْمَرْوُوفَةَ بِدَارِ الْعَقِيْبِيِّ وَعَصَتْ عَلَيْهِ الْقَلْعَةُ .
 وَكَانَ فِيهَا مِنْ جِهَةِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ خَادِمٌ اسْمُهُ رِيحَانُ . فَرَأَسَلَهُ صَاحِبُ
 الدِّينِ وَاسْتَمَالَهُ فَسَلَّمَ الْقَلْعَةَ إِلَيْهِ . فَصَعِدَ إِلَيْهِمْ صَاحِبُ الدِّينِ وَأَخَذَ
 مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ . وَلَمَّا ثَبَتَ قَدَمَهُ وَفَرَّرَ أَمْرُ دِمَشْقَ اسْتَخْلَفَ بِهَا
 أَخَاهُ سَيْفَ الْإِسْلَامِ طُنْجَكِينَ بَنَ أَيُّوبَ وَسَارَ إِلَى خِمَصَ مُسْتَهْلًا
 جُمَادَى الْأُولَى

وَكَانَتْ خِمَصُ وَحَمَاءُ وَقَلْعَةُ بَارِينَ وَسَلْمِيَّةُ وَتَلُّ خَالِدٍ وَالرُّهَاءُ مِنْ
 بَلَدِ الْجَزِيرَةِ فِي أَقْطَاعِ فَخْرِ الدِّينِ مَسْعُودِ بْنِ الزَّعْفَرَانِيِّ . فَلَمَّا مَاتَ
 نُورُ الدِّينِ لَمْ يُمْكِنْ فَخْرَ الدِّينِ مَسْعُودًا الْمَقَامَ بِخِمَصَ وَحَمَاءَ إِسْوَهَ
 سِيرَتِهِ مَعَ النَّاسِ وَكَانَتْ هَذِهِ أَلْيَادُهُ لَهُ يَغْيِرُ وَلَا يَعْمَاهَا . فَإِنْ قَلَاعِيهَا

فِيهَا وَلَاةٌ لِنُورِ الدِّينِ وَلَيْسَ لِفِرْعٍ الدِّينِ مَعَهُمْ فِي الْقِلَاعِ حُكْمٌ إِلَّا
بَارِينَ فَإِنَّ قَلْعَتَهَا كَانَتْ لَهُ أَيْضًا . وَزُلَّ صَلَاحُ الدِّينِ عَلَى خِمَصٍ
فِي حَادِي عَشَرَ جُمَادَى الْأُولَى وَمَلَكَ الْمَدِينَةَ وَعَصَتْ عَلَيْهِ الْقَلْعَةُ .
فَنَزَلَ عَلَيْهَا مَنْ يُضَيِّقُ عَلَيْهَا وَرَحَلَ إِلَى حِمَاةِ فَلَكَ مَدِينَتُهَا مُسْتَهْلٌ
جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ . وَكَانَ بِقَلْعَتِهَا الْأَمِيرُ عِزُّ الدِّينِ
جُرْدِيكُ أَحَدُ الْمَمَالِكِ النُّورِيَّةِ . فَاِمْتَنَعَ فِي الْقَلْعَةِ فَذَكَرَ لَهُ صَلَاحُ
الدِّينِ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ غَرَضٌ إِلَّا حِفْظُ بِلَادِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا
هُوَ نَائِبُهُ وَقَصْدُهُ مِنْ جُرْدِيكِ الْمَسِيرُ إِلَى حَلَبَ فِي رِسَالَةٍ فَاسْتَحْلَفَهُ
جُرْدِيكُ عَلَى ذَلِكَ . وَسَارَ جُرْدِيكُ إِلَى حَلَبَ بِرِسَالَةِ صَلَاحِ
الدِّينِ وَاسْتَحْلَفَ فِي قَلْعَةِ حِمَاةِ أَخَاهُ . فَلَمَّا وَصَلَ جُرْدِيكُ إِلَى حَلَبَ
قَبِضَ عَلَيْهِ كَمَشْتَكِينَ وَسَجَنَهُ . فَلَمَّا عَلِمَ أَخُوهُ بِذَلِكَ سَلَّمَ الْقَلْعَةَ إِلَى
صَلَاحِ الدِّينِ فَلَمَكَهَا

ثُمَّ سَارَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى حَلَبَ وَحَصَرَهَا وَبِهَا الْمَلِكُ الصَّالِحُ .
فَجَمَعَ أَهْلَ حَلَبَ وَقَاتَلُوا صَلَاحَ الدِّينِ وَصَدُّوهُ عَنْ حَلَبَ وَأَرْسَلَ
سَعْدُ الدِّينِ كَمَشْتَكِينَ إِلَى سِنَانٍ مُقَدِّمِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ أَمْوَالًا عَظِيمَةً
لِيَقْتُلُوا صَلَاحَ الدِّينِ . فَأَرْسَلَ سِنَانُ جَمَاعَةً وَوَثَبُوا عَلَى صَلَاحِ الدِّينِ
فَقَتَلُوا دُونَهُ . وَاسْتَرَى صَلَاحُ الدِّينِ مُحَاصِرًا لِحَلَبَ إِلَى مُسْتَهْلٍ
رَجَبٍ وَرَحَلَ عَنْهَا بِسَبَبِ زُولِ الْقَرْنَجِ عَلَى خِمَصٍ وَسَارُوا إِلَى
خِمَصٍ . فَرَحَلَ الْقَرْنَجُ عَنْهَا وَوَصَلَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى خِمَصٍ وَحَصَرَ

قَلَعَتَهَا وَمَلَكَهَا فِي الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ مِنَ السَّنَةِ . ثُمَّ سَارَ
إِلَى بَعْلَبَكْ قَلَعَهَا

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ مُلْكُ صَالِحِ الدِّينِ لِهَذِهِ الْبِلَادِ . أَرْسَلَ الْمَلِكُ
الصَّالِحُ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ سَيْفِ الدِّينِ غَازِي صَاحِبِ الْمُوَصِّلِ يَسْتَعِجِدُهُ
عَلَى صَالِحِ الدِّينِ . فَجَهَّزَ حَيْشَهُ صُحْبَةً أَخِيهِ عِزِّ الدِّينِ مَسْعُودِ بْنِ
مَوْدُودِ زَنْكِي وَجَعَلَ مُقَدِّمَ الْجَيْشِ الْكَبِيرِ أَمْرَانَهُ وَهُوَ عِزُّ الدِّينِ مُحَمَّدُ
وَلَقَبُهُ سَلْفَنْدَارُ وَطَلَبَ أَخَاهُ الْأَكْبَرَ عِمَادَ الدِّينِ زَنْكِي بْنَ مَوْدُودِ
صَاحِبَ سِنْجَارِ يَسِيرُ فِي التَّجْدَةِ أَيْضًا . فَأَمَّتَعَهُ مُضَابِيَةً لِصَالِحِ
الدِّينِ . فَسَارَ سَيْفُ الدِّينِ غَازِي وَحَصَرَهُ بِسِنْجَارِ وَوَصَلَ عَسْكَرُ
الْمُوَصِّلِ صُحْبَةً مَسْعُودِ بْنِ مَوْدُودِ وَسَلْفَنْدَارُ إِلَى حَابٍ وَأَنْفَضَ إِلَيْهِمْ
عَسْكَرُ حَلَبٍ وَسَارَ إِلَى صَالِحِ الدِّينِ . فَأَرْسَلَ صَالِحُ الدِّينِ يَدْلِي
خِمَصَ وَحَمَاةَ وَأَنْ يَهْرَ بِيَدِهِ دِمَشْقُ وَيَكُونَ فِيهَا نَائِبًا لِلْمَلِكِ الصَّالِحِ .
فَلَمْ يَجِيبُوا إِلَى ذَلِكَ وَسَارُوا إِلَى قِتَالِهِ وَأَقْتَتَلُوا عِنْدَ قُرُونِ حَمَاةَ
فَأَنْهَزَ عَسْكَرُ الْمُوَصِّلِ وَحَابَ وَغَنِمَ صَالِحُ الدِّينِ وَعَسْكَرُهُ أَمْوَالَهُمْ
وَتَبِعَهُمْ صَالِحُ الدِّينِ حَتَّى حَصَرَهُمْ فِي حَابٍ وَقَطَعَ حَبْنِدَ خُطْبَةٍ
الْمَلِكِ الصَّالِحِ بْنِ نُورِ الدِّينِ وَأَزَالَ اسْمَهُ عَنِ السَّكَّةِ وَأَسْتَبَدَّ
بِالْإِسْلَامَةِ . فَرَأَسُوا صَالِحَ الدِّينِ فِي الصُّلْحِ عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ مَا بِيَدِهِ
مِنَ الشَّامِ وَالْمَلِكِ الصَّالِحِ مَا بَقِيَ بِيَدِهِ مِنْهُ فَصَالَحَهُمْ عَلَى ذَلِكَ
وَرَحَلَ عَنْ حَلَبَ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنْ شَوَّالٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ .

وَفِي الْعَشْرِ الْأَخِيرِ مِنْ شَوَّالٍ مَلَكَ السُّلْطَانُ صَلَاحُ الدِّينِ قَلْعَةَ
بَارِينٍ وَأَخَذَهَا مِنْ صَاحِبِهَا فَخَرَّ الدِّينِ مَسْعُودُ بْنُ الزَّعْفَرَانِيِّ . وَكَانَ
فَخْرُ الدِّينِ الْمَذْكُورُ مِنْ أَكْبَرِ الْأُمَرَاءِ النُّورِيَّةِ

ذِكْرُ أَنْهَزَامِ سَيْفِ الدِّينِ غَازِي صَاحِبِ الْمَوْصِلِ

بِإِذْنِ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةٌ إِحْدَى رَسْبَعِينَ وَخَمْسِينَ وَفِيهَا عَاشِرَ شَوَّالٍ
كَانَ الْمَصَافَّةُ بَيْنَ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ وَبَيْنَ سَيْفِ الدِّينِ غَازِي
بْنِ مَوْدُودِ بْنِ زَيْكِيِّ بَتَلِ السُّلْطَانِ فَهَرَبَ سَيْفُ الدِّينِ غَازِي
وَالْمَسَاكِرُ الَّتِي كَانَتْ مَعَهُ . فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ اسْتَجَدَّ بِصَاحِبِ
حِضْنِ كَيْفَا وَصَاحِبِ مَارِدِينِ وَغَيْرِهِمَا وَتَمَّتْ عَلَى سَيْفِ الدِّينِ غَازِي
الْهَزِيمَةُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْمَوْصِلِ مَرْغُوبًا وَقَصَدَ الْهُرُوبَ مِنْهَا إِلَى
بَعْضِ الْأَقْلَاعِ فَتَبَّعَتْهُ وَزِيَرُهُ وَأَقَامَ بِالْمَوْصِلِ وَاسْتَوَلَى السُّلْطَانُ صَلَاحُ
الدِّينِ عَلَى أَثْقَالِ عَسْكَرِ الْمَوْصِلِ وَغَيْرِهِمْ وَغَنِمَ مَا فِيهَا . ثُمَّ سَارَ إِلَى
بَرْأَبَةَ وَحَصَرَهَا وَتَسَلَّمَهَا . ثُمَّ سَارَ إِلَى مَنبِجٍ فَحَصَرَهَا فِي آخِرِ شَوَّالٍ .
وَكَانَ صَاحِبُهَا قُطْبُ الدِّينِ يَنَالُ بْنُ حَسَّانِ الْمُنْبِجِيِّ شَدِيدَ الْبَغْضِ
لِصَلَاحِ الدِّينِ وَفَتْحَهَا غَنَوَةٌ وَأَسَرَ يَنَالٌ وَأَخَذَ جَمِيعَ مَوْجُودِهِ . ثُمَّ
أَطْلَقَهُ فَسَارَ يَنَالٌ إِلَى الْمَوْصِلِ فَأَقْطَعَهُ سَيْفُ الدِّينِ غَازِي مَدِينَةَ
الرَّقَّةِ

ثُمَّ سَارَ السُّلْطَانُ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى عَزَازَ وَنَازَلَهَا ثَالِثَ ذِي

الْقَعْدَةِ وَتَسَلَّمَهَا حَادِي عَشَرَ ذِي الْحِجَّةِ . فَوَثَبَ إِسْمَاعِيلِيُّ عَلَى
صَلَاحِ الدِّينِ فِي حِصَارِهِ عَزَازَ فُضْرَبَهُ بِسِكِّينٍ فِي رَأْسِهِ فَجَرَحَهُ
فَأَمْسَكَ صَلَاحُ الدِّينِ الْإِسْمَاعِيلِيَّ وَبَغْيِي يَضْرِبُ بِالْسِكِّينِ فَلَا
يُؤَثِّرُ حَتَّى قُتِلَ الْإِسْمَاعِيلِيُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ . وَوَثَبَ آخَرُ عَلَيْهِ فَقُتِلَ
وَبَالَتْ قَتْلُ أَيضًا وَنَجَّى السُّلْطَانُ إِلَى خَيْمَتِهِ مَذْعُورًا وَأَعْرَضَ جُنْدَهُ
وَأَبْعَدَ مَنْ أَنْكَرَهُ مِنْهُمْ . وَلَمَّا مَلَكَ السُّلْطَانُ عَزَازَ رَحَلَ عَنْهَا وَنَازَلَ
حَلَبَ فِي مُتَنَصَفِ ذِي الْحِجَّةِ وَحَصَرَهَا وَبِهَا الْمَلِكُ الصَّالِحُ وَأَنْقَضَتْ
هَذِهِ السَّنَةُ وَهُوَ مُحَاصِرٌ لِحَلَبَ . فَسَأَلُوهُ فِي الصُّلْحِ فَأَجَابَهُمْ إِلَيْهِ
وَأَخْرَجُوا إِلَيْهِ بِنْتًا صَغِيرَةً لِئُورِ الدِّينَ فَاعْتَزَمَهَا وَأَعْطَاهَا شَيْئًا كَثِيرًا
وَقَالَ لَهَا: مَا تَرُومِينَ : فَقَالَتْ أُرِيدُ قَلْعَةَ عَزَازَ وَكَانُوا قَدْ عَلِمُوهَا
ذَلِكَ . فَسَلَّمَهَا السُّلْطَانُ إِلَيْهِمْ وَأَسْتَقَرَّ الصُّلْحُ وَرَحَلَ السُّلْطَانُ مِنْ
حَلَبَ فِي الْعِشْرِينَ مِنَ الْعَحْرَمِ سَنَةَ أَلْتَيْنِ وَسَبْعِينَ

سِيَاثِي الْقِسْمِ الثَّالِثِ مِنْ نَجَبِ الْمَلِكِ

مِنْ كِتَابِ الْعَبْرِ لِابْنِ خَلْدُونِ

وَمِنْ كِتَابِ نَفْعِ الطَّيِّبِ مِنْ فِصْنِ الْإِنْدَلَسِ لِلْمَقْرِي

وَمِنْ كِتَابِ الْإِفَادَةِ لِابْنِ الطَّيِّفِ

وَمِنْ كِتَابِ نَحْفَةِ النَّظَارِ فِي غَرَائِبِ الْأَمْصَارِ لِابْنِ بَطْوَلَةَ

وَمِنْ كِتَابِ عَجَائِبِ الْخُلُوقَاتِ لِابْنِ مُحَمَّدِ الْقَرْوِينِي

فهرسة

الجزء الثاني

وجه	
٣	نخبة من مقدمة جنود بن سحوان ويُعرف بعلي بن الشاه الفارسي
٢٦	بعثة برزويه الى بلاد الهند
٣٧	معركة الواقوصة
٤٠	مرور خالد من العراق الى الشام
٤٣	معركة اجنادين
٤٥	افتتاح دمشق
٤٩	افتتاح بلاد فارس . وقعة القرقس
٥٢	وقعة البريب
٥٨	ذكر خلافة هرون الرشيد
٦٣	شرح حال الوزارة في ايامه
٦٨	سيرة الفضل بن يحيى
٧٣	سيرة جعفر بن يحيى البرمكي
٧٩	شرح السبب في نكبة البرامكة وكيفية الحال في ذلك
٨٠	شرح مقتل جعفر بن يحيى والقبض على اهله
٨١	وزارة ابي العباس الفضل بن الربيع
٨٢	ذكر خلافة ابي احمد جده الله المستعصم بالله
٨٩	ذكر خلافة الحاكم بامر الله
١٠٣	عبارة تتعلق بفتوحات مفتكين وانكساراته
١١١	ذكر مسير الافرنج الصليبيين من عكا الى عسقلان
١٢١	ذكر وقعة جرت
١٢٢	ذكر مراسلة جرت
١٢٢	ذكر اجتماع الملك العادل والانكشار
١٢٤	ذكر وقعة ارسوف وهي انكت في قلوب المسلمين
١٣٣	ذكر وفاة نور الدين وما كان له من الصفات
١٣٤	ذكر ملك صلاح الدين دمشق وغيرها
١٣٨	ذكر اخزام سيف الدين غازي صاحب الموصل من السلطان صلاح الدين

تبريد
١٣٩٥

